

شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد المعتزلي

الجزء الحادي عشر



تتمة باب الخطب و الأوامر

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الواحد العدل



196 و من كلام له ع

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ وَ الآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ فَخُذُوا مِنْ مَمَرِكُمْ لِمَمَرِكُمْ وَ لَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ وَ أَخْرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ فَفِيهَا أُخْتَبِرْتُمْ وَ لِعِيرِهَا خُلِقْتُمْ إِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ وَ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلَّهِ آبَاؤُكُمْ فَفَقَدْتُمُوهَا بَعْضًا يَكُنْ لَكُمْ قَرَضًا وَ لَا تُخْلِفُوا كَلًّا فَيَكُونَ فَرَضًا عَلَيْكُمْ ذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْمُبَرَّدُ فِي الْكَامِلِ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ خَطَبْنَا أَعْرَابِيًّا بِالْبَادِيَةِ فَحَمَدَ اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَهُ وَ وَحَدَّهُ وَ صَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ص فَابْلَغَ فِي إِيجَازِ ثُمَّ قَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بِلَاحٍ وَ الآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ فَخُذُوا لِمَمَرِكُمْ مِنْ مَمَرِكُمْ وَ لَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارِكُمْ فِي الدُّنْيَا أَنْتُمْ

[4]

وَ لِعِيرِهَا خُلِقْتُمْ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَ اسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَ لَكُمْ وَ الْمَصْلَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ وَ الْمَدْعُو لَهُ الْخَلِيفَةُ وَ الْأَمِيرُ جَعْفَرُ بْنُ سَلِيمَانَ . وَ ذَكَرَ غَيْرَهُ الزِّيَادَةُ الَّتِي فِي كَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع وَ هِيَ أَنَّ الْمَرْءَ إِذَا هَلَكَ إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ . وَ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع . وَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَعْرَابِيُّ حَفِظَهُ فَأُورِدَهُ كَمَا يُورِدُ النَّاسُ كَلَامَ غَيْرِهِمْ . قَوْلُهُ ع دَارُ مَجَازٍ أَيُّ بِيحَازٍ فِيهَا إِلَى الْآخِرَةِ وَ مِنْهُ سُمِّيَ الْمَجَازُ فِي الْكَلَامِ مَجَازًا لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ قَدْ عَبَّرَ الْحَقِيقَةَ إِلَى غَيْرِهَا كَمَا يَعْبُرُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ . وَ دَارُ الْقَرَارِ دَارُ الْاسْتِقْرَارِ الَّذِي لَا آخِرَ لَهُ . فَخُذُوا مِنْ مَمَرِكُمْ أَيُّ مِنَ الدُّنْيَا لِمَمَرِكُمْ وَ هُوَ الْآخِرَةُ . قَوْلُهُ ع قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ يُرِيدُ أَنْ بَنِي آدَمَ مَشْغُولُونَ بِالْعَاجِلَةِ لَا يَفْكَرُونَ فِي غَيْرِهَا وَ لَا يَتَسَاءَلُونَ إِلَّا عَنْهَا فَإِذَا هَلَكَ أَحَدُكُمْ فَإِنَّمَا قَوْلُهُمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مَا الَّذِي تَرَكَ فَلَانَ مِنَ الْمَالِ مَا الَّذِي خَلَفَ مِنَ الْوَلَدِ وَ أَمَا الْمَلَائِكَةُ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَسْتَهْوِيهِمْ شَهَوَاتُ الدُّنْيَا وَ إِنَّمَا هُمْ مَشْغُولُونَ بِالذِّكْرِ وَ التَّسْبِيحِ فَإِذَا هَلَكَ الْإِنْسَانُ قَالُوا مَا قَدَّمَ أَيُّ شَيْءٍ قَدَّمَ مِنَ الْأَعْمَالِ . ثُمَّ أَمْرُهُمْ ع بِأَنْ يَقْدَمُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ بَعْضُهَا صَدَقَةً فَإِنَّهَا تَبْقَى لَهُمْ وَ نَهَاهُمْ أَنْ يَخْلِفُوا أَمْوَالَهُمْ كُلَّهَا بَعْدَ مَوْتِهِمْ فَتَكُونَ وَبِالْآخِرَةِ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ

[5]

197 و من كلام له ع كان كثيرا ما ينادي به أصحابه

تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ وَ أَقْلُوا الْعُرْجَةَ الْعُرْجَةَ عَلَى الدُّنْيَا وَ انْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بَحَضَرَتْكُمْ مِنَ الزَّادِ فَإِنَّ
أَمَامَكُمْ عَقَبَةَ كُنُوداً وَ مَنَارِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً لَا بُدَّ مِنَ الْوُرُودِ عَلَيْهَا وَ الْوُقُوفِ عِنْدَهَا . وَ اعْلَمُوا أَنَّ مَلَا حِظَّ الْأَمْنِيَّةِ نَحْوَكُمْ
دَائِبَةٌ دَائِبَةٌ وَ كَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَ قَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ وَ قَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُفْطِعَاتُ الْأُمُورِ وَ مُضْلِعَاتُ مَعْضَلَاتِ الْمَحْدُورِ . فَقَطِّعُوا
عَلَائِقَ الدُّنْيَا وَ اسْتَظْهِرُوا بِرَّادِ التَّقْوَى وَ قَدْ مَضَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ يَخَالِفُ هَذِهِ الرَّوَايَةَ تَجَهَّزُوا لَكَذَا أَيْ
تَهَيَّنُوا لَهُ . وَ الْعُرْجَةُ التَّعْرِيجُ وَ هُوَ الْإِقَامَةُ تَقُولُ مَا لِي عَلَى رِبْعِكَ عُرْجَةٌ أَيْ إِقَامَةٌ وَ عَرَجَ فُلَانٌ عَلَى الْمَنْزِلِ إِذَا حَبَسَ
عَلَيْهِ مَطِيئَتَهُ .

[6]

وَ الْعَقَبَةُ الْكُنُودُ الشَّاقَّةُ الْمَصْعَدُ وَ دَائِبَةٌ جَادَةٌ وَ الْمَخْلَبُ لِلسَّبْعِ بِمَنْزِلَةِ الظَّفَرِ لِلإِنْسَانِ . وَ أَفْطَعَ الْأَمْرُ فَهُوَ مَفْطَعٌ إِذَا جَاوَزَ
الْمِقْدَارَ شِدَّةً . وَ مُضْلِعَاتُ الْمَحْدُورِ الْخُطُوبُ الَّتِي تَضْلَعُ أَيْ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ ضَلِيعًا أَيْ مَعُوجًا وَ الْمَاضِي ضَلَعٌ بِالْكَسْرِ يَضْلَعُ
ضَلْعًا . وَ مِنْ رَوَايَاهَا بِالظَّاءِ أَرَادَ الْخُطُوبَ الَّتِي تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ ظَالِعًا أَيْ يَغْمَزُ فِي مَشِيئِهِ لِنَقْلِهَا عَلَيْهِ وَ الْمَاضِي ظَلَعٌ بِالْفَتْحِ
يُظْلَعُ ظَلْعًا فَهُوَ ظَالِعٌ

[7]

198 و من كلام له ع كلم به طلحة و الزبير بعد بيعته بالخلافة

و قد عتبا عليه من ترك مشورتها و الاستعانة في الأمور بهما : لَقَدْ نَفَمْتُمَا يَسِيرًا وَ أَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا أَلَا تُخْبِرَانِي أَيُّ شَيْءٍ كَانَ لَكُمَا فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُمَا عَنْهُ أَمْ أَيُّ قَسَمٍ اسْتَأْثَرْتُمْ عَلَيْنَا بِهِ أَمْ أَوْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ أَمْ جَهَلْتُهُ أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ . وَ اللَّهُ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ وَ لَا فِي الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ وَ لَكُنْكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا وَ حَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا فَلَمَّا أَفْضَتْ إِلَيَّ نَظَرْتُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَ مَا وَضَعَ لَنَا وَ أَمَرْنَا بِالْحُكْمِ بِهِ فَاتَّبَعْتُهُ وَ مَا اسْتَنَّ النَّبِيُّ ص فَافْتَدَيْتُهُ فَلَمْ أَحْتَجْ فِي ذَلِكَ إِلَيَّ رَأْيِكُمَا وَ لَا رَأْيَ غَيْرِكُمَا وَ لَا وَقَعَ حُكْمٌ جَهْلْتُهُ فَاسْتَشِيرَكُمَا وَ إِخْوَانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ أَرْغَبْ عَنْكُمَا وَ لَا عَنْ غَيْرِكُمَا . وَ أَمَّا مَا ذَكَرْتُمَا مِنْ أَمْرِ الْأَسْوَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَمْ أَحْكَمْ أَنَا فِيهِ بِرَأْيِي وَ لَا وَلِيِّتُهُ هُوَ مِنِّي بَلْ وَجَدْتُ أَنَا وَ أَنْتُمَا مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ص قَدْ فَرِغَ مِنْهُ فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَيْكُمَا فِيمَا قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنْ قَسَمِهِ وَ أَمْضَى فِيهِ حُكْمَهُ فَلَيْسَ لَكُمَا وَ اللَّهِ عِنْدِي وَ لَا لِغَيْرِكُمَا فِي هَذَا عُنْبَى . أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَ قُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ وَ أَلْهَمَنَا وَ إِيَّاكُمْ الصَّبْرَ .

[8]

ثُمَّ قَالَ ع رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَأَى حَقًّا فَأَعَانَ عَلَيْهِ أَوْ رَأَى جَوْرًا فَرَدَّهُ وَ كَانَ عَوْنًا بِالْحَقِّ عَلَى صَاحِبِهِ نَقِمْتُ عَلَيْهِ بِالْفَتْحِ أَنْقَمَ هَذِهِ اللَّغَةُ الْفَصِيحَةَ وَ جَاءَ نَقِمْتُ بِالْكَسْرِ أَنْقَمَ . وَ أَرْجَأْتُمَا أَخْرَجْتُمَا أَي نَقِمْتُمَا مِنْ أَحْوَالِي الْيَسِيرِ وَ تَرَكْتُمَا الْكَثِيرَ الَّذِي لَيْسَ لَكُمَا وَ لَا لِغَيْرِكُمَا فِيهِ مَطْعَنٌ فَلَمْ تَذْكُرَاهُ فَهَلَا اغْتَفَرْتُمَا الْيَسِيرَ لِلْكَثِيرِ . وَ لَيْسَ هَذَا اعْتِرَافًا بِأَنْ مَا نَقِمَاهُ مَوْضِعَ الطَّعْنِ وَ الْعَيْبِ وَ لَكِنَّهُ عَلَى جِهَةِ الْجَدْلِ وَ الْإِحْتِجَاجِ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَطْعَنُ فِي بَيْتٍ مِنْ شِعْرِ شَاعِرٍ مَشْهُورٍ لَقَدْ ظَلَمْتَهُ إِذْ تَتَعَلَّقُ عَلَيْهِ بِهَذَا الْبَيْتِ وَ تَنْسِي مَا لَهُ مِنَ الْمَحَاسِنِ الْكَثِيرَةِ فِي غَيْرِهِ . ثُمَّ ذَكَرَ وَجْهَ الْعِتَابِ وَ الْإِسْتِرَادَةَ وَ هِيَ أَقْسَامٌ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَهَا حَقٌّ يَدْفَعُهَا عَنْهُ أَوْ اسْتَأْثَرَ عَلَيْهِمَا فِي قَسَمٍ أَوْ ضَعْفٍ عَنِ السِّيَاسَةِ أَوْ جَهْلٍ حَكْمًا مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ أَوْ أَخْطَأَ بَابَهُ . فَإِنْ قَلَّتْ أَي فَرَقَ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَ الثَّانِي قَلَّتْ أَمَا دَفَعُهَا عَنْ حَقِّهَا فَمَنْعُهَا عَنْهُ سِوَاءَ صَارَ إِلَيْهِ عَ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ أَوْ لَمْ يَصِرْ إِلَى أَحَدٍ بَلْ بَقِيَ بِحَالِهِ فِي بَيْتِ الْمَالِ .

[9]

وَ أَمَا الْقِسْمُ الثَّانِي فَهُوَ أَنْ يَأْخُذَ حَقِّهَا لِنَفْسِهِ وَ بَيْنَ الْقَسْمَيْنِ فَرَقٌ ظَاهِرٌ وَ الثَّانِي أَفْحَشُ مِنَ الْأَوَّلِ . فَإِنْ قَلَّتْ فَأَيُّ فَرَقٍ بَيْنَ قَوْلِهِ أَمْ جَهْلْتُهُ أَوْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ . قَلَّتْ جَهْلُ الْحَكْمِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ حَكَمَ بِحَرْمَةِ شَيْءٍ فَأَحْلَاهُ الْإِمَامُ أَوْ الْمَفْتَى وَ كَوْنَهُ يَخْطِئُ بَابَهُ هُوَ أَنْ يَصِيبَ فِي الْحَكْمِ وَ يَخْطِئُ فِي الْإِسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ . ثُمَّ أَقْسَمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ وَ لَا إِرْبَةٌ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَ هِيَ الْحَاجَةُ وَ صَدَقَ عَ فَهَكَذَا نَقَلَ أَصْحَابُ التَّوَارِيخِ وَ أَرْبَابُ عِلْمِ السِّيَرِ كُلِّهِمْ وَ

رَوَى الطَّبْرِيُّ فِي التَّارِيخِ وَ رَوَاهُ غَيْرُهُ أَيْضًا إِنْ النَّاسُ غَشَوْهُ وَ تَكَاثَرُوا عَلَيْهِ يَطْلُبُونَ مَبَايَعَتَهُ وَ هُوَ يَأْبَى ذَلِكَ وَ يَقُولُ دَعُونِي وَ التَّمَسُّوا غَيْرِي فَإِنَا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجْوهٌ وَ أَلْوَانٌ لَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَ لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ قَالُوا نُنَشِّدُكَ اللَّهُ أَلَا تَرَى الْفِتْنَةَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا حَدَثَ فِي الْإِسْلَامِ أَلَا تَخَافُ اللَّهُ فَقَالَ قَدْ أَجَبْتُمْ لِمَا أَرَى مِنْكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُمْ رَكِبْتُمْ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَ إِنْ تَرَكْتُمُونِي فَإِنَّمَا أَنَا كَأَحَدِكُمْ بَلْ أَنَا أَسْمَعُكُمْ وَ أَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلِيْتُمُوهُ أَمْرًا إِلَيْهِ فَقَالُوا مَا نَحْنُ بِمَفَارِقِيكَ حَتَّى نَبَايَعَكَ قَالَ إِنْ كَانَ لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ فَفِي الْمَسْجِدِ فَإِنْ بَيْعْتِي لَا تَكُونُ خَفِيًّا وَ لَا تَكُونُ إِلَّا عَنْ رِضَا الْمُسْلِمِينَ وَ فِي مَلٍّ وَ

جماعة فقام و الناس حوله فدخل المسجد و انثال عليه المسلمون فبايعوه و فيهم طلحة و الزبير . قلت قوله إن بيعتي لا تكون خفيا و لا تكون إلا في المسجد بمحضر من جمهور الناس يشابه قوله بعد وفاة رسول الله ص للعباس لما سامه مد يده للبيعة إني أحب أن أصحر بها و أكره أن أبايع من وراء رتاج .

[10]

ثم ذكر ع أنه لما بويع عمل بكتاب الله و سنة رسوله و لم يحتج إلى رأيهما و لا رأي غيرهما و لم يقع حكم بجهله فيستشيرهما و لو وقع ذلك لاستشارهما و غيرهما و لم يأنف من ذلك . ثم تكلم في معنى التنفيل في العطاء فقال إني عملت بسنة رسول الله ص في ذلك و صدق ع فإن رسول الله ص سوى في العطاء بين الناس و هو مذهب أبي بكر . و العتبي الرضا أي لست أرضيكما بارتكاب ما لا يحل لي في الشرع ارتكابه و الضمير في صاحبه و هو الهاء المجرورة يرجع إلى الجور أي و كان عوننا بالعمل على صاحب الجور

من أخبار طلحة و الزبير

قد تقدم منا ذكر ما عتب به طلحة و الزبير على أمير المؤمنين ع و أنهما قالوا ما نراه يستشيرنا في أمر و لا يفاوضنا في رأي و يقطع الأمر دوننا و يستبد بالحكم عنا و كانا يرجوان غير ذلك و أراد طلحة أن يوليه البصرة و أراد الزبير أن يوليه الكوفة فلما شاهدها صلابته في الدين و قوته في العزم و هجره الأدهان و المراقبة و رفضه المدالسة و المواربة و سلوكه في جميع مسالكه منهج الكتاب و السنة و قد كانا يعلمان ذلك قديما من طبعه و سجيته و كان عمر قال لهما و لغيرهما إن الأجلح إن وليها ليحملنكم على المحجة البيضاء و الصراط المستقيم و

كان رسول الله ص

[11]

من قبل قال و إن تولوها عليا تجدوه هاديا مهديا إلا أنه ليس الخبر كالعيان و لا القول كالفعل و لا الوعد كالإنجاز و حالا عنه و تنكرا له و وقعا فيه و عاباه و غمصاه و تطلبا له العلل و التأويلات و تنقما عليه الاستبداد و ترك المشاورة و انتقالا من ذلك إلى الوقيعة فيه بمساواة الناس في قسمة المال و أثنيا على عمر و حمدا سيرته و صوبا رأيه و قالوا إنه كان يفضل أهل السوابق و ضللا عليا ع فيما رآه و قالوا إنه أخطأ و إنه خالف سيرة عمر و هي السيرة المحمودة التي لم تفضحها النبوة مع قرب عهدنا منها و اتصالها بها و استنجدا عليه بالرؤساء من المسلمين كان عمر يفضلهم و ينفلهم في القسم على غيرهم و الناس أبناء الدنيا و يحبون المال حبا جما فتكرت على أمير المؤمنين ع بتنكرهما قلوب كثيرة و نغلت عليه نيات كانت من قبل سليمة و لقد كان عمر موفقا حيث منع قريشا و المهاجرين و ذوي السوابق من الخروج من المدينة و نهاهم عن مخالطة الناس و نهى الناس عن مخالطتهم و رأى أن ذلك أس الفساد في الأرض و أن الفتوح و الغنائم قد أبطرت المسلمين و متى بعد الرءوس و الكبراء منهم عن دار الهجرة و انفردوا بأنفسهم و خالطهم الناس في البلاد البعيدة لم يأمن أن يحسنوا لهم الوثوب و طلب الإمرة و مفارقة الجماعة و حل نظام الألفة و لكنه رضي الله عنه نقض هذا الرأي الشديد بما فعله بعد طعن أبي لؤلؤة له من أمر الشورى فإن ذلك كان سبب كل فتنة وقعت و تقع إلى أن تنقضي الدنيا و قد قدمنا ذكر ذلك و شرحنا ما أدى إليه أمر الشورى من الفساد بما حصل في نفس كل من الستة من ترشيحه للخلافة .

[12]

و روى أبو جعفر الطبري في تاريخه قال كان عمر قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن و أجل فشكوه فبلغه فقام فخطب فقال ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعا ثم ثنيا ثم يكون رباعيا ثم سديسا ثم بازلا ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا و إن الإسلام قد صار بازلا و إن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات على ما في أنفسهم ألا إن في قريش من يضمم الفرقة و يروم خلع الريقة أما و ابن الخطاب حي فلا إني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش و حجزها أن يتهافتوا في النار . و قال أبو جعفر الطبري في التاريخ أيضا فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان عمر يأخذهم به فخرجوا إلى البلاد فلما نزلوها و رأوا الدنيا و رأهم الناس حمل من لم يكن له طول و

لا قدم في الإسلام و نبه أصحاب السوابق و الفضل فانقطع إليهم الناس و صاروا أوزاعا معهم و أملوهم و تقربوا إليهم و قالوا يملكون فيكون لنا في ملكهم حظوة فكان ذلك أول و هن على الإسلام و أول فتنة كانت في العامة . و روى أبو جعفر الطبري عن الشعبي قال لم يمّت عمر حتى ملته قريش و قد كان حصرهم بالمدينة و سألوه أن يأذن لهم في الخروج إلى البلاد فامتنع عليهم و قال إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد حتى أن الرجل كان يستأذنه في غزو الروم أو الفرس و هو ممن حبسه بالمدينة من قريش و لا سيما من المهاجرين فيقول له إن لك في غزوك مع رسول الله ص ما يكفيك و يبلغك و يحسبك و هو خير لك من الغزو اليوم و إن خيرا لك ألا ترى الدنيا و لا تراك .

[13]

فلما مات عمر و ولي عثمان خلى عنهم فاتتسروا في البلاد و اضطربوا و انقطع إليهم الناس و خالطوهم فلذلك كان عثمان أحب إلى قريش من عمر . فقد بان لك حسن رأي عمر في منع المهاجرين و أهل السابقة من قريش من مخالطة الناس و الخروج من المدينة و بان لك أن عثمان أرخى لهم في الطول فخالطهم الناس و أفسدوهم و حببوا إليهم الملك و الإمرة و الرئاسة لا سيما مع الثروة العظيمة التي حصلت لهم و الثراء مفسدة و أي مفسدة و حصل لطلحة و الزبير من ذلك ما لم يحصل لغيرهما ثروة و يسارا و قدما في الإسلام و صار لهما نفيف عظيم من المسلمين يمنونهما الخلافة و يحسنون لهما طلب الإمرة لا سيما و قد رشحهما عمر لها و أقامهما مقام نفسه في تحملها و أي امرئ منى بها قط نفسه ففارقها حتى يغيب في اللحد و لا سيما طلحة قد كان يحدث بها نفسه و أبو بكر حي و يروم أن يجعلها فيه بشبهة أنه ابن عمه و سخط خلافة عمر و قال لأبي بكر ما تقول لربك و قد وليت علينا فظا غليظا و كان له في أيام عمر قوم يجلسون إليه و يحادثونه سرا في معنى الخلافة و يقولون له لو مات عمر لبايعناك بغتة جلب الدهر علينا ما جلب و بلغ ذلك عمر فخطب الناس بالكلام المشهور أن قوما يقولون إن بيعة أبي بكر كانت فتنة و إنه لو مات عمر لفعلنا و فعلنا أما إن بيعة أبي بكر كانت فتنة إلا أن الله و قى شرها و ليس فيكم من تقطع إليه الرقاب كأبي بكر فأبي امرئ بايع امرأ من غير مشورة من المسلمين فإنهما بغرة أن يقتلا فلما صارت إلى عثمان سخطها طلحة بعد أن كان رضيها و أظهر ما في نفسه و ألب عليه حتى قتل و لم يشك أن الأمر له فلما صارت إلى علي ع حدث منه ما حدث و آخر الدواع الكي . و أما الزبير فلم يكن إلا علوي الرأي شديد الولاء جاريا من الرجل مجرى نفسه .

[14]

و يقال إنه ع لما استنجد بالمسلمين عقيب يوم السقيفة و ما جرى فيه و كان يحمل فاطمة ع ليلا على حمار و ابناها بين يدي الحمار و هو ع يسوقه فيطرق بيوت الأنصار و غيرهم و يسألهم النصر و المعونة أجابه أربعون رجلا فبايعهم على الموت و أمرهم أن يصبحوا بكرة محلقي رعوسهم و معهم سلاحهم فأصبح لم يوافه منهم إلا أربعة الزبير و المقداد و أبو ذر و سلمان ثم أتاهم من الليل فناشدهم فقالوا نصبك غدوة فما جاءه منهم إلا أربعة و كذلك في الليلة الثالثة و كان الزبير أشدهم له نصر و أنفذهم في طاعته بصيرة حلق رأسه و جاء مرارا و في عنقه سيفه و كذلك الثلاثة الباقيون إلا أن الزبير هو كان الرأس فيهم و قد نقل الناس خبر الزبير لما هجم عليه ببيت فاطمة ع و كسر سيفه في صخرة ضربت به و نقلوا اختصاصه بعلي ع و خلواته به و لم يزل مواليا له متمسكا بحبه و مودته حتى نشأ ابنه عبد الله و شب فنزع به عرق من الأم و مال إلى تلك الجهة و انحرف عن هذه و محبة الوالد للولد معروفة فانحرف الزبير لانحرافه على أنه قد

كانت جرت بين علي ع و الزبير هنات في أيام عمر كدرت القلوب بعض التكدير و كان سببها قصة موالى صفية و منازعة علي للزبير في الميراث ففضى عمر للزبير فأذن علي ع لقضائه بحكم سلطانه لا رجوعا عما كان يذهب إليه من حكم الشرع في هذه المسألة و بقيت في نفس الزبير على أن شيخنا أبا جعفر الإسكافي رحمه الله ذكر في كتاب نقض العثمانية عن الزبير كلاما إن صح فإنه يدل على انحراف شديد و رجوع عن موالاته أمير المؤمنين ع . قال تفاخر علي ع و الزبير فقال الزبير أسلمت بالغا و أسلمت طفلا و كنت أول من سل سيفا في سبيل الله بمكة و أنت مستخف في الشعب يكفلك الرجال

[15]

و يمونك الأقارب من بني هاشم و كنت فارسا و كنت راجلا و في هياتي نزلت الملائكة و أنا حوارى رسول الله ص . قال شيخنا أبو جعفر و هذا الخبر مفتعل مكذوب و لم يجر بين علي و الزبير شيء من هذا الكلام و لكنه من وضع العثمانية و لم يسمع به في أحاديث الحشوية و لا في كتب أصحاب السيرة . و لعلي ع أن يقول طفل مسلم خير من بالغ كافر و أما سل السيف بمكة فلم يكن في موضعه و في ذلك قال الله تعالى **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ** الآية و أنا على منهاج الرسول في الكف و الإقدام و ليس كفالة الرجال و الأقارب بالشعب عارا علي فقد كان رسول الله ص في الشعب يكفله الرجال و الأقارب و أما حربك فارسا و حربى راجلا فهلا أغنت فروسيك يوم عمرو بن عبد ود في الخندق و هلا أغنت فروسيك يوم طلحة بن أبي طلحة في أحد و هلا أغنت فروسيك يوم مرحب بخيبر ما كانت فرسك التي تحارب عليها في هذه الأيام إلا أذل من العنز الجرباء و من سلمت عليه الملائكة أفضل ممن نزلت في هياته و قد نزلت الملائكة في صورة دحية الكلبي أ فوجب من ذلك أن يكون دحية أفضل منى و أما كونك حوارى رسول الله ص فلو عدت خصانصي في مقابلة هذه اللفظة الواحدة لك لاستغرقت الوقت و أفنيت الزمان و رب صمت أبلغ من نطق . ثم نرجع إلى الحديث الأول فتقول إن طلحة و الزبير لما أيسا من جهة علي ع

[16]

و من حصول الدنيا من قبله قلبا له ظهر المجن فكاشفاه و عاتباه قبل المفارقة عتابا لاذعا روى شيخنا أبو عثمان قال أرسل طلحة و الزبير إلى علي ع قبل خروجهما إلى مكة مع محمد بن طلحة و قالوا لا تقل له يا أمير المؤمنين و لكن قل له يا أبا الحسن لقد فال فيك رأينا و خاب ظننا أصلحنا لك الأمر و وطننا لك الإمرة و أجلبنا على عثمان حتى قتل فلما طلبك الناس لأمرهم أسرعنا إليك و بايعناك و قدنا إليك أعناق العرب و وطئ المهاجرون و الأنصار أعقابنا في بيعتك حتى إذا ملكت عنانك استبددت برأيك عنا و رفضتنا رفض التريكة و أذلنا إذالة الإماء و ملكت أمرك الأشر و حكيم بن جبلة و غيرهما من الأعراب و نزع الأمصار فكنا فيما رجوانه منك و أملناه من ناحيتك كما قال الأول

فكنت كمهريق الذي في سقانه

لرقرق آل فوق رابية صلد

فلما جاء محمد بن طلحة أبلغه ذلك فقال اذهب إليهما فقل لهما فما الذي يرضيكما فذهب و جاءه فقال إنهما يقولان ول أحدنا البصرة و الآخر الكوفة فقال لاها الله إذن يحلم الأديم و يستشرى الفساد و تنتقض على البلاد من أقطارها و الله إنى

لا أمنهما و هما عندي بالمدينة فكيف أمنهما و قد وليتهما العراقيين اذهب إليهما فقل أيها الشيخان احذرا من سطوة الله و
نقمته و لا تبغيا للمسلمين غائلة و كيدا و قد سمعنا قول الله تعالى **تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الْأَرْضِ وَ لَا فَسَاداً وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** فقام محمد بن طلحة فاتهما و لم يعد إليه و تأخرا عنه أياما ثم جاءه فاستأذناه في
الخروج إلى مكة للعمرة فأذن لهما بعد أن أحلفهما

[17]

ألا ينقضا بيعته و لا يغدرا به و لا يشقا عصا المسلمين و لا يوقعا الفرقة بينهم و أن يعودا بعد العمرة إلى بيوتهما بالمدينة
فحلفا على ذلك كله ثم خرجا ففعلا ما فعلا . و روى شيخنا أبو عثمان قال لما خرج طلحة و الزبير إلى مكة و أوهما الناس
أنهما خرجا للعمرة قال علي ع لأصحابه و الله ما يريدان العمرة و إنما يريدان الغدرة **فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَ**
مَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . و روى الطبري في التاريخ قال لما بايع طلحة و الزبير عليا ع سألاه
أن يؤمرهما على الكوفة و البصرة فقال بل تكونان عندي أتجمل بكما فإنني أستوحش لفراقكما . قال الطبري و قد كان قال
لهما قبل بيعتهما له إن أحببنا أن تبايعاني و إن أحببنا بايعتكما فقالا لا بل نبايعك ثم قال بعد ذلك إنما بايعناه خشية علي
أنفسنا و قد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا ثم ظهرا إلى مكة و ذلك بعد قتل عثمان بأربعة أشهر . و روى الطبري أيضا في
التاريخ قال لما بايع الناس عليا و تم له الأمر قال طلحة للزبير ما أرى أن لنا من هذا الأمر إلا كحسة أنف الكلب . و روى
الطبري أيضا في التاريخ قال لما بايع الناس عليا ع بعد قتل عثمان جاء علي إلى الزبير فاستأذن عليه قال أبو حبيبه مولى
الزبير فأعلمته به فسل سيف و وضعه تحت فراشه و قال انذن له فأذنت له فدخل فسلم على الزبير و هو واقف ثم خرج
فقال الزبير لقد دخل لأمر ما قضاه قم مقامه و انظر هل ترى من

[18]

السيف شيئا فقامت في مقامه فأريت ذباب السيف فأخبرته و قلت إن ذباب السيف ليظهر لمن قام في هذا الموضع فقال ذاك
أعجل الرجل و روى شيخنا أبو عثمان قال كتب مصعب بن الزبير إلى عبد الملك من مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن
مروان سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد

ستعلم يا فتى الزرقاء أني
سأهتك عن حلائك الحجابا
و أترك بلدة أصبحت فيها
تهور من جوانبها خرابا

أما إن الله على الوفاء بذلك إلا أن تتراجع أو تتوب و لعمرى ما أنت كعبد الله بن الزبير و لا مروان كالزبير بن العوام
حواري رسول الله ص و ابن عمته فسلم الأمر إلى أهله فإن نجاتك بنفسك أعظم الغنيمتين و السلام . فكتب إليه عبد الملك
من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى الذلول الذي أخطأ من سماه المصعب سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله
إلا هو أما بعد

أ توعدي و لم أر مثل يومي
خشاش الطير يوعدن العقابا
متى تلق العقاب خشاش طير
يهتك عن مقاتلها الحجابا
أ توعد بالذئاب أسود غاب
و أسد الغاب تلتهم الذنابا

أما ما ذكرت من وفانك فلعمري لقد وفى أبوك لتيمة و عدي بعداء قريش و زعانفها حتى إذا صارت الأمور إلى صاحبها عثمان الشريف النسب الكريم الحسب بغاة الغوائل و أعد له المخاتل حتى نال منه حاجته ثم دعا الناس إلى علي و بايعه فلما

[19]

دانت له أمور الأمة و أجمعت له الكلمة و أدركه الحسد القديم لبني عبد مناف فنقض عهده و نكث ببيعه بعد توكيدها ف **فَكَرَّ وَ قَدَّرَ فَفُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ** و تمزقت لحمه الضباع بوادي السباع و لعمري إنك تعلم يا أخا بني عبد العزى بن قصي أنا بنو عبد مناف لم نزل سادتكم و قادتكم في الجاهلية و الإسلام و لكن الحسد دعاك إلى ما ذكرت و لم ترث ذلك عن كلاله بل عن أبيك و لا أظن حسدك و حسد أخيك ينول بكما إلا إلى ما آل إليه حسد أبيكما من قبل **وَ لَا يَجِيئُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ** . و روى أبو عثمان أيضا قال دخل الحسن بن علي ع على معاوية و عنده عبد الله بن الزبير و كان معاوية يحب أن يغري بين قريش فقال يا أبا محمد أيهما كان أكبر سنا علي أم الزبير فقال الحسن ما أقرب ما بينهما و علي أسن من الزبير رحم الله عليا فقال ابن الزبير رحم الله الزبير و هناك أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب فقال يا عبد الله و ما يهيجك من أن يترحم الرجل على أبيه قال و أنا أيضا ترحمت على أبي قال أظننه ندا له و كفوا قال و ما يعدل به عن ذلك كلاهما من قريش و كلاهما دعا إلى نفسه و لم يتم له قال دع ذاك عنك يا عبد الله إن عليا من قريش و من الرسول ص حيث تعلم و لما دعا إلى نفسه أتبع فيه و كان رأسا و دعا الزبير إلى أمر و كان الرأس فيه امرأة و لما تراءت الفتان نكص على عقبه و ولى مدبرا قبل أن يظهر الحق فيأخذه أو يدحض الباطل فيتركه فأدركه رجل لو قيس ببعض أعضانه لكان أصغر فضرب عنقه و أخذ سلبه و جاء برأسه و مضى علي قدما كعادته مع ابن عمه رحم الله عليا

[20]

فقال ابن الزبير أما لو أن غيرك تكلم بهذا يا أبا سعيد لعلم فقال إن الذي تعرض به يرغب عنك و كفه معاوية فسكتوا . و أخبرت عائشة بمقاتلهم و مر أبو سعيد بفنانها فناداته يا أبا سعيد أنت القائل لابن أختي كذا فالتفت أبو سعيد فلم ير شيئا فقال إن الشيطان يرانا و لا نراه فضحكت عائشة و قالت لله أبوك ما أذلق لسانك

[21]

199 و من كلام له ع و قد سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم

بصفين

إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ وَ لَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ ذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصُوبَ فِي الْقَوْلِ وَ أْبْلَغَ فِي الْعُذْرِ وَ قُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ اللَّهُمَّ احْفَظْ دِمَاءَنَا وَ دِمَاءَهُمْ وَ أَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَ بَيْنَهُمْ وَ اهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جِهَلِهِ وَ يَرْعَوْيَ عَنِ الْعَيِّ وَ الْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ السَّبُّ الشَّتْمَ سَبَّهُ يَسْبُهُ بِالضَّمِّ وَ التَّسَابُ التَّشَاتَمَ وَ رَجُلٌ مَسْبٌ بِكَسْرِ الْمِيمِ كَثِيرُ السَّبَابِ وَ رَجُلٌ سَبَّهُ أَيَّ يَسْبُهُ النَّاسُ وَ رَجُلٌ سَبَّهُ أَيَّ يَسْبُ النَّاسُ وَ رَجُلٌ سَبَّ كَثِيرُ السَّبَابِ وَ سَبَّكَ الَّذِي يَسَابُكَ قَالَ

لا تسببني فليست بسببي

إن سبني من الرجال الكريم

و الذي كرهه ع منهم أنهم كانوا يشتمون أهل الشام و لم يكن يكره منهم لعنهم إياهم و البذاءة منهم لا كما يتوهمه قوم من الحشوية فيقولون لا يجوز

[22]

لعن أحد ممن عليه اسم الإسلام و ينكرون على من يلعن و منهم من يغالي في ذلك فيقول لا ألعن الكافر و ألعن إبليس و إن الله تعالى لا يقول لأحد يوم القيامة لم لم تلعن و إنما يقول لم لعنت . و اعلم أن هذا خلاف نص الكتاب لأنه تعالى قال **إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا . وَ قَالَ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ .** و قال في إبليس **وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .** و قال **مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا .** و في الكتاب العزيز من ذلك الكثير الواسع . و كيف يجوز للمسلم أن ينكر التبرؤ ممن يجب التبرؤ منه أ لم يسمع هؤلاء قول الله تعالى **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَ بَدَا بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَ الْبَغْضَاءُ أَبَدًا** و إنما يجب النظر فيمن قد اشتبهت حاله فإن كان قد قارف كبيرة من الذنوب يستحق بها اللعن و البراءة فلاضير على من يلعنه و يبرأ منه و إن لم يكن قد قارف كبيرة لم يجز لعنه و لا البراءة منه . و مما يدل على أن من عليه اسم الإسلام إذا ارتكب الكبيرة يجوز لعنه بل يجب في وقت قول الله تعالى في قصة اللعان **فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ**

[23]

مِنَ الصَّادِقِينَ وَ الْخَامِسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . و قال تعالى في القاذف **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .** فهاتان الآيتان في المكلفين من أهل القبلة و الآيات قبلهما في الكافرين و المنافقين و لهذا قنت أمير المؤمنين ع على معاوية و جماعة من أصحابه و لعنهم في أدبار الصلوات . فإن قلت فما صور السب الذي نهى أمير المؤمنين ع عنه . قلت كانوا يشتمونهم بالأباء و الأمهات و منهم من يطعن في نسب قوم منهم و منهم من يذكرهم باللؤم و منهم من يعيرهم بالجبن و البخل و بأنواع الأهاجي التي يتهاجى بها الشعراء و أساليبها معلومة فنهاهم ع عن ذلك و قال **إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ وَ لَكِنِ الْأَصُوبُ أَنْ تَصْفُوا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ تَذَكَّرُوا**

حالهم أي أن تقولوا إنهم فساق و إنهم أهل ضلال و باطل . ثم قال اجعلوا عوض سبهم أن تقولوا اللهم احقن دماءنا و دماءهم . حققت الدم أحقته بالضم منعت أن يسفك أي ألهمهم الإنابة إلى الحق و العدول عن الباطل فإن ذلك إذا تم حققت دماء الفريقين . فإن قلت كيف يجوز أن يدعو الله تعالى بما لا يفعله أ ليس من أصولكم أن الله تعالى لا يضطر المكلف إلى اعتقاد الحق و إنما يكله إلى نظره . قلت الأمر و إن كان كذلك إلا أن المكلفين قد تعبدوا بأن يدعو الله تعالى

[24]

بذلك لأن في دعائهم إياه بذلك لطفاً لهم و مصالح في أدياتهم كالدعاء بزيادة الرزق و تأخير الأجل . قوله و أصلح ذات بيننا و بينهم يعني أحوالنا و أحوالهم و لما كانت الأحوال ملابسة للبين قيل لها ذات البين كما أنه لما كانت الضمانر ملابسة للصدور قيل ذات الصدور و كذلك قولهم اسقني ذا إنائك لما كان ما فيه من الشراب ملابسا له و يقولون للمتبرز قد وضع ذا بطنه و للحبلى تضع ألقنت ذا بطنها . و ارعوى عن الغي رجع و كف . لهج به بالكسر يلهج أغرى به و ثابر عليه

[25]

200 و من كلام له ع في بعض أيام صفين و قد رأى الحسن ابنه ع يتسرع إلى

الحرب

إمْلِكُوا عَنِّي هَذَا الْغُلَامَ لَا يَهْدِينِي فَإِنِّي أَنفَسُ بِهِدَّيْنِ يَعْنِي الْحَسَنَ وَ الْحُسَيْنَ ع عَلَى الْمَوْتِ لِنَلَأَ يَنْقَطِعَ بِهِمَا نَسْلُ رَسُولِ اللَّهِ ص قَالَ الرضی أبو الحسن رحمه الله قوله ع املكوا عني هذا الغلام من أعلى الكلام و أفصحه الألف في املكوا ألف وصل لأن الماضي ثلاثي من ملكت الفرس و العبد و الدار أملك بالكسر أي احجروا عليه كما يحجر المالك على مملوكه . و عن متعلقة بمحذوف تقديره استولوا عليه و أبعده عني و لما كان الملك سبب الحجر على المملوك عبر بالسبب عن المسبب كما عبر بالنكاح عن العقد و هو في الحقيقة اسم الوطء لما كان العقد طريقاً إلى الوطء و سبباً له . و وجه علو هذا الكلام و فصاحته أنه لما كان في املكوا معنى البعد أعقبه

[26]

بعن و ذلك أنهم لا يملكونه دون أمير المؤمنين ع إلا و قد أبعده عنه أ لا ترى أنك إذا حجرت على زيد دون عمرو فقد باعدت زيدا عن عمرو فلذلك قال املكوا عني هذا الغلام و استفصح الشارحون قول أبي الطيب

إذا كان شم الروح أدنى إليكم

فلا برحتني روضة و قبول

قالوا و لما كان في فلا برحتني معنى فارقتني عدي اللفظة و إن كانت لازمة نظراً إلى المعنى . قوله لا يهديني أي لنلا يهديني فحذف كما حذف طرفه في قوله

ألا أي هذا الزاجري أحضر الوغى

أي لأن أحضر . و أنفس أبخل نفست عليه بكذا بالكسر . فإن قلت أ يجوز أن يقال للحسن و الحسين و ولدهما أبناء رسول الله و ولد رسول الله و ذرية رسول الله و نسل رسول الله . قلت نعم لأن الله تعالى سماهم أبناءه في قوله تعالى **نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَ أَبْنَاءَكُمْ** و إنما عنى الحسن و الحسين و لو أوصى لولد فلان بمال دخل فيه أولاد البنات و سمى الله تعالى عيسى ذرية إبراهيم في قوله **وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ** إلى أن قال **وَ يَحْيَى وَ عِيسَى** و لم يختلف أهل اللغة في أن ولد البنات من نسل الرجل .

[27]

فإن قلت فما تصنع بقوله تعالى **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ** قلت أسألك عن أبوته لإبراهيم بن مارية فكما تجيب به عن ذلك فهو جوابي عن الحسن و الحسين ع . و الجواب الشامل للجميع أنه عنى زيد بن حارثة لأن العرب كانت تقول زيد بن محمد على عادتهم في تبني العبيد فأبطل الله تعالى ذلك و نهى عن سنة الجاهلية و قال إن محمداً ع ليس أباً لواحد من الرجال البالغين المعروفين بينكم ليعتزي إليه بالنبوة و ذلك لا ينفي كونه أباً للأطفال لم تطلق عليهم لفظة الرجال كإبراهيم

و حسن و حسين ع . فإن قلت أ تقول إن ابن البنت ابن على الحقيقة الأصلية أم على سبيل المجاز . قلت لذهاب أن يذهب إلى أنه حقيقة أصلية لأن أصل الإطلاق الحقيقة و قد يكون اللفظ مشتركاً بين مفهومين و هو في أحدهما أشهر و لا يلزم من كونه أشهر في أحدهما ألا يكون حقيقة في الآخر . و لذهاب أن يذهب إلى أنه حقيقة عرفية و هي التي كثر استعمالها و هي في الأكثر مجاز حتى صارت حقيقة في العرف كالراوية للمزادة و السماء للمطر . و لذهاب أن يذهب إلى كونه مجازاً قد استعمله الشارع فجاز إطلاقه في كل حال و استعماله كسائر المجازات المستعملة . و مما يدل على اختصاص ولد فاطمة دون بني هاشم كافة بالنبي ع أنه ما كان يحل له ع أن ينكح بنات الحسن و الحسين ع و لا بنات ذريتهما و إن بعدن و طال الزمان و يحل له نكاح بنات غيرهم من بني هاشم من الطالبين و غيرهم و هذا يدل على مزيد الأقرابية و هي كونهم أولاده لأنه ليس هناك من القربى غير

[28]

هذا الوجه لأنهم ليسوا أولاد أخيه و لا أولاد أخته و لا هناك وجه يقتضي حرمتهم عليه إلا كونه والداهم و كونهم أولاداً له فإن قلت قد قال الشاعر

بنونا بنو أبنائنا و بناتنا
بنوهن أبناء الرجال الأبعد

و قال حكيم العرب أكرم بن صيفي في البنات يذمهن إنهن يلدن الأعداء و يورثن البعداء . قلت إنما قال الشاعر ما قاله على المفهوم الأشهر و ليس في قول أكرم ما يدل على نفي بنوتهم و إنما ذكر أنهن يلدن الأعداء و قد يكون ولد الرجل لصلبه عدواً قال الله تعالى **إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ** و لا ينفي كونه عدواً كونه ابناً . قيل لمحمد بن الحنفية ع لم يغرر بك أبوك في الحرب و لم لا يغرر بالحسن و الحسين فقال لأنهما عيناه و أنا يمينه فهو يذب عن عينيه بيمينه

[29]

201 و من كلام له ع قاله لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحْبَبْتُ حَتَّى نَهَيْتُكُمْ الْحَرْبَ وَقَدْ وَ اللَّهُ أَخَذَتْ مِنْكُمْ وَ تَرَكْتُ وَ هِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنَّهُكَ .
لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا وَ كُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مِنْهِيًا وَ قَدْ أَحْبَبْتُمْ الْبَقَاءَ وَ لَيْسَ لِي أَنْ
أَحْمِلْكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ نَهَيْتُكُمْ بِكسر الهاء أدنفتكم و أذابتكم و يجوز فتح الهاء و قد نهك الرجل أي دنف و ضني فهو
منهوك و عليه نهكه المرض أي أثرة الحرب مؤنثة . و قد أخذت منكم و تركت أي لم تستأصلكم بل فيكم بعد بقية و هي
لعدوكم أنهك لأن القتل في أهل الشام كان أشد استحرارا و الوهن فيهم أظهر و لو لا فساد أهل العراق برفع المصاحف
لاستوصل الشام و خلص الأشر إلى معاوية فأخذه بعنقه و لم يكن قد بقي من قوة الشام إلا كحركة ذنب الوزغة عند قتلها
يضطرب يمينا و شمالا و لكن الأمور السماوية لا تغالب . فأما قوله كنت أمس أميرا فأصبحت اليوم مأمورا فقد قدمنا شرح
حالمهم من قبل و أن أهل العراق لما رفع عمرو بن العاص و من معه المصاحف على وجه المكيدة

[30]

حين أحس بالعطب و علو كلمة أهل الحق ألزموا أمير المؤمنين ع بوضع أوزار الحرب و كف الأيدي عن القتال و كانوا
في ذلك على أقسام فمنهم من دخلت عليه الشبهة برفع المصاحف و غلب على ظنه أن أهل الشام لم يفعلوا ذلك خدعة و
حيلة بل حقا و دعاء إلى الدين و موجب الكتاب فرأى أن الاستسلام للحجة أولى من الإصرار على الحرب . و منهم من
كان قد مل الحرب و آثر السلم فلما رأى شبهة ما يسوغ التعلق بها في رفض المحاربة و حب العافية أخذ إليهم . و منهم
من كان يبغض عليا ع بباطنه و يطيعه بظاهره كما يطيع كثير من الناس السلطان في الظاهر و يبغضه بقلبه فلما وجدوا
طريقا إلى خذلانه و ترك نصرته أسرعوا نحوها فاجتمع جمهور عسكره عليه و طالبوه بالكف و ترك القتال فامتنع امتناع
عالم بالمكيدة و قال لهم إنها حيلة و خديعة و إنني أعرف بالقوم منكم إنهم ليسوا بأصحاب قرآن و لا دين قد صحبتهم و
عرفتهم صغيرا و كبيرا فعرفت منهم الإعراض عن الدين و الركون إلى الدنيا فلا تراعوا برفع المصاحف و صمموا على
الحرب و قد ملكتموهم فلم يبق منهم إلا حشاشة ضعيفة و ذماء قليل فأبوا عليه و ألحوا و أصروا على القعود و الخذلان و
أمروه بالإتخاذ إلى المحاربين من أصحابه و عليهم الأشر أن يأمرهم بالرجوع و تهددوه إن لم يفعل بإسلامه إلى معاوية
فأرسل إلى الأشر يأمره بالرجوع و ترك الحرب فأبى عليه فقال كيف أرجع و قد لاحت أمارات الظفر فقولوا له ليمهني
ساعة واحدة و لم يكن علم صورة الحال كيف قد وقعت فلما عاد إليه الرسول بذلك غضبوا و نفروا و شغبوا و قالوا أنفذت
إلى الأشر سرا و باطنا تأمره بالتصميم و تنهاه عن الكف و إن لم تعد الساعة و إلا قتلناك كما قتلنا عثمان فرجعت
الرسل إلى الأشر فقالوا له أ تحب أن تظفر بمكانك و أمير المؤمنين قد سل عليه

[31]

خمسون ألف سيف فقال ما الخبر قال إن الجيش بأسره قد أحرق به و هو قاعد بينهم على الأرض تحته نطع و هو مطرق
و البارقة تلمع على رأسه يقولون لنن لم تعد الأشر قتلناك قال ويحكم فما سبب ذلك قالوا رفع المصاحف قال و الله لقد
ظننت حين رأيتهما رفعت أنها ستوقع فرقة و فتنة . ثم كر راجعا على عقبه فوجد أمير المؤمنين ع تحت الخطر قد رده
أصحابه بين أمرين إما أن يسلموه إلى معاوية أو يقتلوه و لا ناصر له منهم إلا ولداه و ابن عمه و نفر قليل لا يبلغون

عشرة فلما رأهم الأشتر سبهم و شتمهم و قال ويحكم أ بعد الظفر و النصر صب عليكم الخذلان و الفرقة يا ضعاف الأحلام
يا أشباه النساء يا سفهاء العقول فشتموه و سبوه و قهروه و قالوا المصاحف المصاحف و الرجوع إليها لا نرى غير ذلك
فأجاب أمير المؤمنين ع إلى التحكيم دفعا للمحذور الأعظم بارتكاب المحذور الأضعف فلذلك قال كنت أميرا فأصبحت
مأمورا و كنت ناهيا فصرت منهيها و قد سبق من شرح حال التحكيم و ما جرى فيه ما يغني عن إعادته

202 و من كلام له ع بالبصرة و قد دخل على العلاء بن زياد الحارثي

و هو من أصحابه يعودده فلما رأى سعة داره قال : مَا كُنْتُ تَصْنَعُ بِسَعَةِ سِيعَةِ هَذِهِ الدَّارِ فِي الدُّنْيَا أَمَا وَ أَنْتَ إِلَيْهَا فِي
الْآخِرَةِ كُنْتُ أَحْوَجَ وَ بَلَى إِنْ شِئْتَ بَلَّغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ تَقْرِي فِيهَا الضَّيْفَ وَ تَصِلُ فِيهَا الرَّحِمَ وَ تَطْلُعُ مِنْهَا الْحُقُوقَ مَطْلِعَهَا
فَإِذَا أَنْتَ قَدْ بَلَّغْتَ بِهَا الْآخِرَةَ فَقَالَ لَهُ الْعَلَاءُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَشْكُو إِلَيْكَ أَخِي عَاصِمَ بْنَ زِيَادٍ قَالَ وَ مَا لَهُ قَالَ لَيْسَ الْعِبَادَةُ
الْعِبَاءَ وَ تَخْلَى مِنْ عَنِ الدُّنْيَا قَالَ عَلِيٌّ بِهِ فَلَمَّا جَاءَ قَالَ يَا عَدِيَّ نَفْسِهِ لَقَدْ اسْتَهَامَ بِكَ الْخَبِيثُ أَمَا رَحِمْتَ أَهْلَكَ وَ لَدَكَ أَ تَرَى
اللَّهَ أَحَلَ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وَ هُوَ يَكْرَهُ أَنْ تَأْخُذَهَا أَنْتَ أَهْوُونَ عَلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ قَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا أَنْتَ فِي خُشُونَةِ مَلْبَسِكَ وَ
جُشُونَةِ مَأْكَلِكَ قَالَ وَيْحَكَ إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ إِنْ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أُمَّةٍ الْحَقَّ الْعَدْلَ أَنْ يَقْدِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفَةِ النَّاسِ كَيْلًا
يَتَّبِعُ بِالْفَقِيرِ فُقْرَهُ

[33]

كنت هاهنا زائدة مثل قوله تعالى **كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا** . و قوله و بلى إن شئت بلغت بها الآخرة لفظ فصيح
كأنه استدرك و قال و بلى على أنك قد تحتاج إليها في الدنيا لتجعلها وصلة إلى نيل الآخرة بأن تقري فيها الضيف و
الضيف لفظ يقع على الواحد و الجمع و قد يجمع فيقال ضيوف و أضياف و الرحم القرابة . و تطلع منها الحقوق مطالعها
توقعها في مظان استحقاقها . و العباء جمع عباءة و هي الكساء و قد تلين كما قالوا عطاءة و عطاية و صلاةة و صلاية .
و تقول علي بفلان أي أحضره و الأصل أعجل به علي فحذف فعل الأمر و دل الباقي عليه . و يا عدي نفسه تصغير عدو و
قد يمكن أن يراد به التحقير المحض هاهنا . و يمكن أن يراد به الاستعظام لعداوته لها و يمكن أن يخرج مخرج التحنن و
الشفقة كقولك يا بني . و استهام بك الخبيث يعني الشيطان أي جعلك هائما ضالا و الباء زائدة . فإن قيل ما معنى قوله ع
أنت أهون على الله من ذلك . قلت لأن في المشاهد قد يحل الواحد منا لصاحبه فعلا مخصوصا محاباة و مراقبة له

[34]

و هو يكره أن يفعله و البشر أهون على الله تعالى من أن يحل لهم أمرا مجاملة و استصلاحا للحال معهم و هو يكره منهم
فعله . و قوله هذا أنت أي فما بالنار نراك خشن الملبس و التقدير فما أنت تفعل كذا فكيف تنهى عنه . و طعام جشب أي
غليظ و كذلك مجشوب و قيل إنه الذي لا أدم معه . قوله ع أن يقدرُوا أنفسهم بضعة الناس أي يشبهوا و يمثلوا . و يتبع
الدم بصاحبه و تبوغ به أي هاج به و

في الحديث عليكم بالحجامة لا يتبيغ بأحدكم الدم فيقتله و قيل أصل يتبيغ يتبغى فقلب جذب و جذب أي يجب على الإمام
العادل أن يشبه نفسه في لباسه و طعامه بضعة الناس جمع ضعيف لكيلا يهلك الفقراء من الناس فإنهم إذا رأوا إمامهم
بتلك الهيئة و بذلك المطعم كان أدعى لهم إلى سلوان لذات الدنيا و الصبر عن شهوات النفوس

ذكر بعض مقامات العارفين و الزهاد

و روي أن قوما من المتصوفة دخلوا خراسان على علي بن موسى الرضا فقالوا له إن أمير المؤمنين فكر فيما ولاه الله من الأمور فأكرم أهل البيت أولى الناس أن تؤموا الناس و نظر فيك من أهل البيت فأرك أولى الناس بالناس فأرى أن يرد هذا الأمر إليك و الإمامة تحتاج إلى من يأكل الجشب و يلبس الخشن و يركب الحمار و يعود المريض فقال لهم إن يوسف كان نبيا يلبس أقبية الديباج المزررة بالذهب و يجلس على متكآت آل فرعون و يحكم إنما يراد من الإمام قسطه و عدله إذا قال صدق

[35]

و إذا حكم عدل و إذا وعد أنجز إن الله لم يحرم لبوسا و لا مطعما ثم قرأ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** الآية . و هذا القول مخالف للقانون الذي أشار أمير المؤمنين إليه و للفلاسفة في هذا الباب كلام لا بأس به و قد أشار إليه أبو علي بن سينا في كتاب الإشارات و عليه يتخرج قولاً أمير المؤمنين و علي بن موسى الرضا ع قال أبو علي في مقامات العارفين العارفون قد يختلفون في الهمم بحسب ما يختلف فيهم من الخواطر على حسب ما يختلف عندهم من دواعي العبر فربما استوى عند العارف القشف و الترف بل ربما أثر القشف و كذلك ربما سوى عنده النفل و العطر بل ربما أثر النفل و ذلك عند ما يكون الهاجس بباله استحقار ما عدا الحق و ربما صغا إلى الزينة و أحب من كل شيء عقيلته و كره الخداج و السقط و ذلك عند ما يعتبر عادته من صحبته الأحوال الظاهرة فهو يرتاد إليها في كل شيء لأنه مزية خطوة من العناية الأولى و أقرب أن يكون من قبيل ما عكف عليه بهواه و قد يختلف هذا في عارفين و قد يختلف في عارف بحسب وقتين . و اعلم أن الذي رويته عن الشيوخ و رأيت به بخط عبد الله بن أحمد بن الخشاب رحمه الله أن الربيع بن زياد الحارثي أصابته نشابة في جبينه فكانت تنتفض عليه في كل عام فأتاه علي ع عاندا فقال كيف تجدك أبا عبد الرحمن قال أجدني يا أمير المؤمنين لو كان لا يذهب ما بي إلا بذهاب بصري لتمنيت ذهابه قال و ما قيمة بصرك عندك قال لو كانت لي الدنيا لفيديته بها قال لا جرم ليعطينك الله على قدر ذلك إن الله تعالى يعطي على قدر الألم و المصيبة و عنده تضعيف كثير قال الربيع

[36]

يا أمير المؤمنين أ لا أشكو إليك عاصم بن زياد أخي قال ما له قال لبس العباء و ترك الملاء و غم أهله و حزن ولده فقال علي ادعوا لي عاصما فلما أتاه عبس في وجهه و قال ويحك يا عاصم أ ترى الله أباح لك اللذات و هو يكره ما أخذت منها لأنت أهون على الله من ذلك أ و ما سمعته يقول **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ** ثم يقول **يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجَانُ** و قال **وَ مَنْ كَلَّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا** أما و الله إن ابتدال نعم الله بالفعال أحب إليه من ابتدالها بالمقال و قد سمعتم الله يقول **وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** و قوله **مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** إن الله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** و قال **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اِعْمَلُوا صَالِحًا** و

قال رسول الله ص لبعض نسانه ما لي أراك شعثاء مرهءاء سلتاء . قال عاصم فلم اقتصرت يا أمير المؤمنين على لبس الخشن و أكل الجشب قال إن الله تعالى افترض على أنمة العدل أن يقدروا لأنفسهم بالقوام كيلا يتببغ بالفقير فقره فما قام علي ع حتى نزع عاصم العباء و لبس ملاءة . و الربيع بن زياد هو الذي افتتح بعض خراسان و فيه قال عمر دلوني على رجل إذا كان

[37]

في القوم أميرا فكأنه ليس بأمير و إذا كان في القوم ليس بأمير فكأنه الأمير بعينه و كان خيرا متواضعا و هو صاحب الوقعة مع عمر لما أحضر العمال فتوحش له الربيع و تقشف و أكل معه الجشب من الطعام فأقره على عمله و صرف الباقين و قد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم . و كتب زياد ابن أبيه إلى الربيع بن زياد و هو على قطعة من خراسان أن أمير المؤمنين معاوية كتب إلي يأمرك أن تحرز الصفراء و البيضاء و تقسم الخرثي و ما أشبهه على أهل الحرب فقال له الربيع إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ثم نادى في الناس أن اغدوا علي غنائمكم فأخذ الخمس و قسم الباقي على المسلمين ثم دعا الله أن يميته فما جمع حتى مات . و هو الربيع بن زياد بن أنس بن ديان بن قطر بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن مالك بن كعب بن الحارث بن عمرو بن ولة بن خالد بن مالك بن أدد . و أما العلاء بن زياد الذي ذكره الرضي رحمه الله فلا أعرفه لعل غيري يعرفه

[38]

203 و من كلام له ع و قد سأله سائل عن أحاديث البدع و عما في أيدي الناس

من اختلاف الخبر

فقال ع : إن في أيدي الناس حقاً و باطلاً و صدقاً و كذباً و ناسخاً و منسوخاً و عاماً و خاصاً و مُحكماً و مُتشابهاً و حِفْظاً و وهماً و هماً و قد لَقَدْ كُذِبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ص عَلَى عَهْدِهِ حَتَّى قَامَ خَطِيباً فَقَالَ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَّبِعُوا مَفْعَدَهُ مِنَ النَّارِ وَ إِنَّمَا أَتَاكَ بِالْحَدِيثِ أَرْبَعَةٌ رِجَالٍ لَيْسَ لَهُمْ خَامِسٌ رَجُلٌ مُنَافِقٌ مُظْهَرٌ لِلإِيمَانِ مُتَّصِعٌ بِالإِسْلَامِ لَا يَتَأْتَمُّ وَلَا يَنْحَرِجُ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ص مُتَعَمِّداً فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ مُنَافِقٌ كَاذِبٌ لَمْ يَقْبَلُوا مِنْهُ وَ لَمْ يُصَدِّقُوا قَوْلَهُ وَ لَكِنَّهُمْ قَالُوا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ص رَأَهُ وَ سَمِعَ مِنْهُ وَ لَفَفَ عَنْهُ فَيَأْخُذُونَ بِقَوْلِهِ وَ قَدْ أَخْبَرَكَ اللَّهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَخْبَرَكَ وَ وَصَفَهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ لَكَ ثُمَّ بَغُوا بَعْدَهُ فَتَقَرَّبُوا إِلَى أُنَمَّةِ الضَّلَالَةِ وَ الدَّعَاةِ إِلَى النَّارِ بِالزُّورِ وَ الْبُهْتَانِ فَوَلَّوهُمْ الْأَعْمَالَ وَ جَعَلُوهُمْ حُكَّاماً عَلَى رِقَابِ النَّاسِ فَأَكَلُوا بِهِمُ الدُّنْيَا وَ إِنَّمَا النَّاسُ مَعَ الْمُلُوكِ وَ الدُّنْيَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ فَهَذَا أَحَدُ الْأَرْبَعَةِ وَ رَجُلٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ شَيْئاً لَمْ يَحْفَظْهُ عَلَى وَجْهِهِ فَوَهِمَ فِيهِ وَ لَمْ يَتَعَمَّدْ

[39]

كُذِباً فَهُوَ فِي يَدَيْهِ وَ يَرُوبِهِ وَ يَعْمَلُ بِهِ وَ يَقُولُ أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ص فَلَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّهُ وَ هِمَ فِيهِ لَمْ يَقْبَلُوهُ مِنْهُ وَ لَوْ عَلِمَ هُوَ أَنَّهُ كَذَلِكَ لَرَفَضَهُ وَ رَجُلٌ ثَالِثٌ سَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ص شَيْئاً يَأْمُرُ بِهِ ثُمَّ إِنَّهُ نَهَى عَنْهُ وَ هُوَ لَا يَعْلَمُ أَوْ سَمِعَهُ يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ وَ هُوَ لَا يَعْلَمُ فَحَفِظَ الْمُنْسُوخَ وَ لَمْ يَحْفَظِ النَّاسِخَ فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضَهُ وَ لَوْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ إِذْ سَمِعُوهُ مِنْهُ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ لَرَفَضُوهُ وَ آخِرُ رَابِعٍ لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ وَ لَا عَلَى رَسُولِهِ مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللَّهِ وَ تَعْظِيماً لِرَسُولِ اللَّهِ ص وَ لَمْ يَهَمْ بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ سَمِعَهُ لَمْ يَزِدْ فِيهِ وَ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ وَ حَفِظَ الْمُنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ وَ عَرَفَ الْخَاصَّ وَ الْعَامَّ وَ الْمُحَكَّمَ وَ الْمُتَشَابِهَ فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ وَ قَدْ كَانَ يَكُونُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ص الْكَلَامُ لَهُ وَجْهَانِ فَكَلَامٌ خَاصٌّ وَ كَلَامٌ عَامٌّ فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَا عَنِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِهِ وَ لَا مَا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ص فَيَحْمِلُهُ السَّمَاعُ وَ يُوجِّهُهُ عَلَى غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِمَعْنَاهُ وَ مَا قَصَدَ قَصْدَ بِهِ وَ مَا خَرَجَ مِنْ أَجْلِهِ وَ لَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ص مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَ يَسْتَفْهَمُهُ حَتَّى إِنْ كَانُوا لِيُحِبُّونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَ الطَّارِئُ فَيَسْأَلُهُ عَ حَتَّى يَسْمَعُوا وَ كَانَ لَا يَمُرُّ بِمَنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا سَأَلَتْهُ عَنْهُ وَ حَفِظَتْهُ فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيْهَا النَّاسُ فِي إِخْتِلَافِهِمْ وَ عَلَيْهِمْ فِي رِوَايَاتِهِمْ

[40]

الكلام في تفسير الألفاظ الأصولية و هي العام و الخاص و الناسخ و المنسوخ و الصدق و الكذب و المحكم و المتشابهة و موكول إلى فن أصول الفقه و قد ذكرناه فيما أُمليناه من الكتب الأصولية و الإطالة بشرح ذلك في هذا الموضوع مستهجنة . قوله ع و حفظا و وهما الهاء مفتوحة و هي مصدر و همت بالكسر أو هم أي غلظت و سهوت و قد روي وهما بالتسكين و هو مصدر و همت بالفتح أو هم إذا ذهب وهمك إلى شيء و أنت تريد غيره و المعنى متقارب . و

قول النبي ص فليتبوا مقعده من النار كلام صيغته الأمر و معناه الخبر كقوله تعالى **قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ**
الرَّحْمَنُ مَدًّا و تبوات المنزل نزلته و بوأته منزلا أنزلته فيه . و التأثم الكف عن موجب الإثم و التحرج مثله و أصله الضيق
كأنه يضيق على نفسه . و لقف عنه تناول عنه . و جنب عنه أخذ عنه جانبا . و إن في قوله حتى إن كانوا ليحبون مخففة
من الثقيلة و لذلك جاءت اللام في الخبر . و الطارئ بالهمز الطالع عليهم طراً أي طلع و قد روي عليهم بالرفع عطفاً على
وجوه و روي بالجر عطفاً على اختلافهم

ذكر بعض أحوال المنافقين بعد وفاة محمد ع

واعلم أن هذا التقسيم صحيح و قد كان في أيام الرسول ص منافقون و بقوا بعده و ليس يمكن أن يقال إن النفاق مات بموته و السبب في استتار حالهم بعده أنه ص كان لا يزال بذكرهم بما ينزل عليه من القرآن فإنه مشحون بذكرهم أ لا ترى أن أكثر ما نزل بالمدينة من القرآن مملوء بذكر المنافقين فكان السبب في انتشار ذكرهم و أحوالهم و حركاتهم هو القرآن فلما انقطع الوحي بموته ص لم يبق من ينعى عليهم سقطاتهم و يوبخهم على أعمالهم و يأمر بالحدز منهم و يجاهرهم تارة و يجاملهم تارة و صار المتولي للأمر بعده يحمل الناس كلهم على كاهل المجاملة و يعاملهم بالظاهر و هو الواجب في حكم الشرع و السياسة الدنيوية بخلاف حال الرسول ص فإنه كان تكليفه معهم غير هذا التكليف أ لا ترى أنه قيل له **وَ لَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا** فهذا يدل على أنه كان يعرفهم بأعيانهم و إلا كان النهي له عن الصلاة عليهم تكليف ما لا يطاق و الوالي بعده لا يعرفهم بأعيانهم فليس مخاطبا بما خوطب به ص في أمرهم و لسكوت الخلفاء عنهم بعده حمل ذكرهم فكان قصارى أمر المنافق أن يسر ما في قلبه و يعامل المسلمين بظاهره و يعاملونه بحسب ذلك ثم فتحت عليهم البلاد و كثرت الغنائم فاشتغلوا بها عن الحركات التي كانوا يعتمدونها أيام رسول الله و بعثهم الخلفاء مع الأمرء إلى بلاد فارس و الروم فألهتهم الدنيا عن الأمور التي كانت تنقم منهم في حياة رسول الله ص و منهم من استقام اعتقاده و خلصت نيته لما رأوا الفتوح و إلقاء الدنيا أفلاذ كبدها من الأموال العظيمة و الكنوز الجليلة إليهم فقالوا لو لم يكن هذا الدين

[42]

حقا لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه و بالجملة لما تركوا تركوا و حيث سكت عنهم سكتوا عن الإسلام و أهله إلا في دسياسة خفية يعملونها نحو الكذب الذي أشار إليه أمير المؤمنين ع فإنه خالط الحديث كذب كثير صدر عن قوم غير صحيحي العقيدة قصدوا به الإضلال و تخبيط القلوب و العقائد و قصد به بعضهم التنويه بذكر قوم كان لهم في التنويه بذكرهم غرض دنيوي و قد قيل إنه افتعل في أيام معاوية خاصة حديث كثير على هذا الوجه و لم يسكت المحدثون الراسخون في علم الحديث عن هذا بل ذكروا كثيرا من هذه الأحاديث الموضوعية و بينوا وضعها و أن رواها غير موثوق بهم إلا أن المحدثين إنما يطعنون فيما دون طبقة الصحابة و لا يتجاسرون في الطعن على أحد من الصحابة لأن عليه لفظ الصحبة على أنهم قد طعنوا في قوم لهم صحبة كبسر بن أرطاة و غيره . فإن قلت من هم أئمة الضلالة الذين يتقرب إليهم المنافقون الذين رأوا رسول الله ص و صحبوه للزور و البهتان و هل هذا إلا تصريح بما تذكره الإمامية و تعتقده . قلت ليس الأمر كما ظننت و ظنوا و إنما يعني معاوية و عمرو بن العاص و من شايعهما على الضلال كالخبر الذي رواه من في حق معاوية اللهم قه العذاب و الحساب و علمه الكتاب و كرواية عمرو بن العاص تقربا إلى قلب معاوية إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله و صالح المؤمنين و كرواية قوم في أيام معاوية أخبارا كثيرة من فضائل عثمان تقربا إلى معاوية بها و لسنا نجد فضل عثمان و سابقته و لكننا نعلم أن بعض الأخبار الواردة فيه موضوع كخبر عمرو بن مرة فيه و هو مشهور و عمرو بن مرة ممن له صحبة و هو شامي

[43]

ذكر بعض ما مني به آل البيت من الأذى و الاضطهاد

و ليس يجب من قولنا إن بعض الأخبار الواردة في حق شخص فاضل مفتعلة أن تكون قاذحة في فضل ذلك الفاضل فإننا مع اعتقادنا أن عليا أفضل الناس نعتقد أن بعض الأخبار الواردة في فضائله مفتعل و مختلق . و قد روي

أن أبا جعفر محمد بن علي الباقر ع قال لبعض أصحابه يا فلان ما لقينا من ظلم قريش إيانا و تظاهروا بهم علينا و ما لقي شيعتنا و محبوبنا من الناس إن رسول الله ص قبض و قد أخبرنا أولى الناس بالناس فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه و احتجت على الأنصار بحقنا و حجتنا ثم تداولتها قريش واحد بعد واحد حتى رجعت إلينا فنكثت بيعتنا و نصبت الحرب لنا و لم يزل صاحب الأمر في صعود كنود حتى قتل فبويح الحسن ابنه و عوهد ثم غدر به و أسلم و وثب عليه أهل العراق حتى طعن بخنجر في جنبه و نهبت عسكره و عولجت خلاليل أمهات أولاده فوادع معاوية و حقن دمه و دماء أهل بيته و هم قليل حق قليل ثم بايع الحسين ع من أهل العراق عشرون ألفا ثم غدروا به و خرجوا عليه و بيعته في أعناقهم و قتلوه ثم لم نزل أهل البيت نستذل و نستضام و نقصى و نمتهن و نحرمت و نقتل و نخاف و لا نأمن على دماننا و دماء أولياننا و وجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم و جحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليانهم و قضاة السوء و عمال السوء في كل بلدة فحدثوهم بالأحاديث الموضوعية المكذوبة و روي عنا ما لم نقله و ما لم نفعله ليبيغضونا إلى الناس و كان عظم ذلك و كبره زمن معاوية بعد موت الحسن ع فقتلت شيعتنا بكل بلدة و قطعت الأيدي و الأرجل على الظنة و كان من يذكر بحبنا و الانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره ثم لم يزل البلاء يشتد و يزداد

[44]

إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين ع ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة و أخذهم بكل ظنة و تهمة حتى أن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال شيعة علي و حتى صار الرجل الذي يذكر بالخير و لعله يكون ورعا صدوقا يحدث بأحاديث عظيمة عجيبة من تفضيل بعض من قد سلف من الولاة و لم يخلق الله تعالى شيئا منها و لا كانت و لا وقعت و هو يحسب أنها حق لكثرة من قد رواها ممن لم يعرف بكذب و لا بقلة و رع . و روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب الأحداث قال كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبي تراب و أهل بيته فقامت الخطباء في كل كورة و على كل منبر يلعنون عليا و بيرعون منه و يقعون فيه و في أهل بيته و كان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي ع فاستعمل عليهم زياد ابن سمية و ضم إليه البصرة فكان يتتبع الشيعة و هو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي ع فقتلهم تحت كل حجر و مدر و أخافهم و قطع الأيدي و الأرجل و سمل العيون و صلبهم على جذوع النخل و طرفهم و شردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم و كتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي و أهل بيته شهادة و كتب إليهم أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان و محبيه و أهل ولايته و الذين يروون فضائله و مناقبه فادنوا مجالسهم و قريوهم و أكرمواهم و اكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم و اسمه و اسم أبيه و عشيرته . ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان و مناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات و الكساء و الحباء و القطن و يفيضه في العرب منهم و الموالى فكثر ذلك في كل مصر و تنافسوا في المنازل و الدنيا فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملا من

عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه و قربه و شفعه فلبثوا بذلك حيناً . ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثُر و فشا في كل مصر و في كل وجه و ناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة و الخلفاء الأولين و لا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا و تأتوني بمناقض له في الصحابة فإن هذا أحب إلى و أقر لعيني و أدحض لحجة أبي تراب و شيعته و أشد عليهم من مناقب عثمان و فضله .

فقرنت كتبه على الناس فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها وجد الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر و ألقى إلى معلمي الكتابيب فعملوا صبيانهم و غلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى روه و تعلموه كما يتعلمون القرآن و حتى علموه بناتهم و نساءهم و خدمهم و حشمهم فلبثوا بذلك ما شاء الله . ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً و أهل بيته فامحوه من الديوان و أسقطوا عطاءه و رزقه و شفغ ذلك بنسخة أخرى من اتهمتموه بمولاه هؤلاء القوم فنكلوا به و أهدموا داره فلم يكن البلاء أشد و لا أكثر منه بالعراق و لا سيما بالكوفة حتى أن الرجل من شيعة علي ع ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سره و يخاف من خادمه و مملوكه و لا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه فظهر حديث كثير موضوع و بهتان منتشر و مضى على ذلك الفقهاء و القضاة و الولاة و كان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المرءون و المستضعفون الذين يظهرون الخشوع و النسك فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولاتهم و يقربوا مجالسهم و يصيبوا به الأموال و الضياع

و المنازل حتى انتقلت تلك الأخبار و الأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب و البهتان فقبلوها و روهها و هم يظنون أنها حق و لو علموا أنها باطلة لما روهها و لا تدينوا بها . فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي ع فازداد البلاء و الفتنة فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا و هو خائف على دمه أو طريد في الأرض . ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين ع و ولي عبد الملك بن مروان فاشتد على الشيعة و ولي عليهم الحجاج بن يوسف فتقرب إليه أهل النسك و الصلاح و الدين ببغض علي و موالاته أعدائه و موالاته من يدعي من الناس أنهم أيضاً أعداؤه فأكثروا في الرواية في فضلهم و سوابقهم و مناقبهم و أكثروا من الغضب من علي ع و عيبه و الطعن فيه و الشنن له حتى أن إنساناً وقف للحجاج و يقال إنه جد الأصمعي عبد الملك بن قريش فصاح به أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني علياً و إنني فقير بانس و أنا إلى صلة الأمير محتاج فتضاحك له الحجاج و قال للطف ما توسلت به قد وليتك موضع كذا . و قد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه و هو من أكابر المحدثين و أعلامهم في تاريخه ما يناسب هذا الخبر و قال إن أكثر الأحاديث الموضوععة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم . قلت و لا يلزم من هذا أن يكون علي ع يسوءه أن يذكر الصحابة و المتقدمون عليه بالخير و الفضل إلا أن معاوية و بني أمية كانوا يبنون الأمر من هذا على ما يظنون في علي ع من أنه عدو من تقدم عليه و لم يكن الأمر في الحقيقة كما

يظنونه ولكنه كان يرى أنه أفضل منهم و أنهم استأثروا عليه بالخلافة من غير تفسيق منه لهم و لا براءة منهم . فأما قوله ع و رجل سمع من رسول الله شيئا و لم يحفظه على وجهه فوهم فيه فقد وقع ذلك و قال أصحابنا في الخبر الذي رواه عبد الله بن عمر أن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه إن ابن عباس لما روي له هذا الخبر قال ذهل ابن عمر إنما مر رسول الله ص على قبر يهودي فقال إن أهله ليبكون عليه و إنه ليعذب . و قالوا أيضا إن عائشة أنكرت ذلك و قالت ذهل أبو عبد الرحمن كما ذهل في خبر قليب بدر

إنما قال ع إنهم ليبكون عليه و إنه ليعذب بجرمه . قالوا و موضع غلظه في خبر القليب أنه

روى أن النبي ص وقف على قليب بدر فقال هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ثم قال إنهم يسمعون ما أقول لهم فأنكرت عائشة ذلك و قالت إنما

قال إنهم يعلمون أن الذي كنت أقوله لهم هو الحق و استشهد بقوله تعالى **إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى** . فأما الرجل الثالث و هو الذي يسمع المنسوخ و لم يسمع الناسخ فقد وقع كثيرا و كتب الحديث و الفقه مشحونة بذلك كالذين أباحوا لحوم الحمر الأهلية لخبر رووه في ذلك و لم يرووا الخبر الناسخ . و أما الرجل الرابع فهم العلماء الراسخون في العلم . و أما قوله ع و قد كان يكون من رسول الله ص الكلام له

[48]

وجهان فهذا داخل في القسم الثاني و غير خارج عنه و لكنه كالنوع من الجنس لأن الوهم و الغلط جنس تحته أنواع . و اعلم أن أمير المؤمنين ع كان مخصوصا من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله ص لا يطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما و كان كثير السؤال للنبي ص عن معاني القرآن و عن معاني كلامه ص و إذا لم يسأل ابتدأه النبي ص بالتعليم و التثقيف و لم يكن أحد من أصحاب النبي ص كذلك بل كانوا أقساما فمنهم من يهابه أن يسأله و هم الذين يحبون أن يجيء الأعرابي أو الطائر فيسأله و هم يسمعون و منهم من كان بليدا بعيد الفهم قليل الهمة في النظر و البحث و منهم من كان مشغولا عن طلب العلم و فهم المعاني إما بعبادة أو دنيا و منهم المقلد يرى أن فرضه السكوت و ترك السؤال و منهم المبغض الشائى الذي ليس للدين عنده من الموقع ما يضيع وقته و زمانه بالسؤال عن دقائقه و غوامضه و انضاف إلى الأمر الخاص بعلي ع نكاؤه و فطنته و طهارة طينته و إشراق نفسه و ضوعها و إذا كان المحل قابلا متهيئا كان الفاعل المؤثر موجودا و الموانع مرتفعة حصل الأثر على أتم ما يمكن فلذلك كان علي ع كما قال الحسن البصري رباني هذه الأمة و ذا فضلها و لذا تسميه الفلاسفة إمام الأئمة و حكيم العرب

فصل فيما وضع الشيعة و البكرية من الأحاديث

و اعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة فإنهم وضعوا

[49]

في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم حملهم على وضعها عداوة خصومهم نحو حديث السطل و حديث الرمانة و حديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين و تعرف كما زعموا بذات العلم و حديث غسل سلمان الفارسي و طي الأرض و حديث الجمجمة و نحو ذلك فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث نحو لو كنت متخذاً خليلاً فإنهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء و نحو سد الأبواب فإنه كان لعلي ع فقلبتة البكرية إلى أبي بكر و نحو ايتوني بدواة و بياض أكتب فيه لأبي بكر كتابا لا يختلف عليه اثنان ثم قال يأبى الله تعالى و المسلمون إلا أبا بكر فإنهم وضعوه في مقابلة

الحديث المروي عنه في مرضه ايتوني بدواة و بياض أكتب لكم ما لا تضلون بعده أبدا فاختلفوا عنده و قال قوم منهم لقد غلبه الوجع حسبنا كتاب الله و نحو حديث أنا راض عنك فهل أنت عني راض و نحو ذلك فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث فوضعوا حديث الطوق الحديد الذي زعموا أنه قتله في عنق خالد و حديث اللوح الذي زعموا أنه كان في غداير الحنفية أم محمد و حديث لا يفعلن خالد ما أمر به و حديث الصحيفة التي علقت عام الفتح بالكعبة و حديث الشيخ الذي صعد المنبر يوم بويج أبو بكر فسبق الناس إلى بيعته و أحاديث مكذوبة كثيرة تقتضي نفاق قوم من أكابر الصحابة و التابعين الأولين و كفرهم و علي أدون الطبقات فيهم فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة في علي و في ولديه و نسبوه تارة إلى ضعف العقل و تارة إلى ضعف السياسة و تارة إلى حب الدنيا و الحرص عليها و لقد كان الفريقان في غنية عما اكتسباه و اجترحاه و لقد كان في فضائل علي ع الثابتة الصحيحة و فضائل أبي بكر المحققة

[50]

المعلومة ما يغني عن تكلف العصبية لهما فإن العصبية لهما أخرجت الفريقين من ذكر الفضائل إلى ذكر الرذائل و من تعديد المحاسن إلى تعديد المساوئ و المقابح و نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الميل إلى الهوى و حب العصبية و أن يجرينا على ما عودنا من حب الحق أين وجد و حيث كان سخط ذلك من سخط و رضي به من رضي بمنه و لطفه

[51]

204 و من خطبة له ع

وَ كَانَ مِنْ اِقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ وَ بَدِيعِ لَطَائِفِ صَنَعْتِهِ اَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُتْرَاكِمِ الْمُتَقَاصِفِ بَيْسًا جَامِدًا ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ اَطْبَاقًا فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ بَعْدَ اِرْتِنَاقِهَا فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ وَ قَامَتْ عَلَى حِدِّهِ وَ أَرَسَى أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُتَعَجِّرُ وَ الْأَقْمَقَامُ الْمُسَخَّرُ قَدْ ذَلَّ لِأَمْرِهِ وَ أَدْعَنَ لِهَيْبَتِهِ وَ وَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ وَ جَبَلَ جَلَامِيدَهَا وَ نُشُورَ مُتُونِهَا وَ أَطْوَادَهَا أَطْوَادَهَا فَأَرَسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا وَ الزَّمَمَهَا قَرَارَاتِهَا قَرَارَتِهَا فَمَضَتْ رُغُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ وَ رَسَتْ أُسُولُهَا فِي الْمَاءِ فَأَتَهَدَّ جِبَالُهَا عَنْ سُهُولِهَا وَ أَسَاحَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَ مَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا وَ أَطَالَ أَنْشَارَهَا وَ جَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَادًا وَ أَرَزَهَا فِيهَا أَوْتَادًا فَسَكَنْتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مَنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا أَوْ تَسِيخَ بِحَمْلِهَا أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا وَ أَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا فَجَعَلَهَا لِخَلْفِهِ مَهَادًا وَ بَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشًا فَوْقَ بَحْرِ لَجِي رَاكِدٍ لَا يَجْرِي وَ قَائِمٍ لَا يَسْرِي تُكْرِكِرُهُ الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ وَ تَمُخَّضُهُ الْعَمَامُ الدَّوَارِفُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى

[52]

أراد أن يقول و كان من اقتداره فقال و كان من اقتدار جبروته تعظيما و تفخيما كما يقال للملك أمرت الحضرة الشريفة بكذا و البحر الزاخر الذي قد امتد جدا و ارتفع و المترامك المجتمع بعضه على بعض و المتقاصف الشديد الصوت قصف الرعد و غيره قصيفا . و اليبس بالتحريك المكان يكون رطبا ثم ييبس و منه قوله تعالى **فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ بَيْسًا** و اليبس بالسكون اليابس خلقة حطب ييبس هكذا يقوله أهل اللغة و فيه كلام لأن الحطب ليس يابسا خلقة بل كان رطبا من قبل فالأصوب أن يقال لا تكون هذه اللفظة محركة إلا في المكان خاصة و فطر خلق و المضارع يفطر بالضم فطرا . و الأطباق جمع طبق و هو أجزاء مجتمعة من جراد أو غيم أو ناس أو غير ذلك من حيوان أو جماد يقول خلق منه أجساما مجتمعة مرتتقة ثم فتقها سبع سموات و روي ثم فطر منه طباقا أي أجساما منفصلة في الحقيقة متصلة في الصورة بعضها فوق بعض و هي من ألفاظ القرآن المجيد و الضمير في منه يرجع إلى ماء البحر في أظهر النظر و قد يمكن أن يرجع إلى اليبس . و اعلم أنه قد تكرر في كلام أمير المؤمنين ما يماثل هذا القول و يناسبه و هو مذهب

[53]

كثير من الحكماء الذين قالوا بحدوث السماء منهم ثاليس الملطي قالوا أصل الأجسام الماء و خلقت الأرض من زبده و السماء من بخاره و قد جاء القرآن العزيز بنحو هذا قال سبحانه **الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** . قال شيخنا أبو علي و أبو القاسم رحمهما الله في تفسيريهما هذه الآية دالة على أن الماء و العرش كانا قبل خلق السموات و الأرض قالوا و كان الماء على الهواء قالوا و هذا يدل أيضا على أن الملائكة كانوا موجودين قبل خلق السموات و الأرض لأن الحكيم سبحانه لا يجوز أن يقدم خلق الجماد على خلق المكلفين لأنه يكون عبثا . و قال علي بن عيسى الرماني من مشايخنا أنه غير ممتنع أن يخلق الجماد قبل الحيوان إذا علم أن في إخبار المكلفين بذلك لطفًا لهم و لا يصح أن يخبرهم إلا و هو صادق فيما أخبر به و إنما يكون صادقا إذا كان المخبر خبره على ما أخبر عنه و في ذلك حسن تقديم خلق الجماد على خلق الحيوان و كلام أمير المؤمنين ع يدل على أنه كان يذهب إلى أن الأرض موضوعة على ماء البحر و أن البحر حامل لها بقدرة الله تعالى و هو معنى قوله يحملها الأخضر المثعجر و القمقام المسخر و أن البحر

الحامل لها قد كان جاريا فوقف تحتها و أنه تعالى خلق الجبال في الأرض فجعل أصولها راسخة في ماء البحر الحامل للأرض و أعاليها شامخة في الهواء و أنه سبحانه جعل هذه الجبال عمادا للأرض و أوتادا تمنعها من الحركة و الاضطراب و لولاها لماجت و اضطربت و أن هذا البحر الحامل للأرض تصعد فيه الرياح الشديدة فتحركه حركة عنيفة و تموج السحب التي تغترف الماء منه لتمطر الأرض به و هذا كله مطابق لما في الكتاب العزيز و السنة النبوية و النظر الحكمي أ لا ترى إلى قوله تعالى **أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ**

[54]

كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا و هذا هو صريح قوله ع ففتقها سبع سموات بعد ارتقاها و إلى قوله تعالى **وَ جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ** و إلى ما ورد في الخبر من أن الأرض مدحوة على الماء و أن الرياح تسوق السحب إلى الماء نازلة ثم تسوقها عنه صاعدة بعد امتلائها ثم تمطر . و أما النظر الحكمي فمطابق لكلامه إذا تأمله المتأمل و حملة على المحمل العقلي و ذلك لأن الأرض هي آخر طبقات العناصر و قبلها عنصر الماء و هو محيط بالأرض كلها إلا ما برز منها و هو مقدار الربع من كرة الأرض على ما ذكره علماء هذا الفن و برهنوا عليه فهذا تفسير قوله ع يحملها الأخضر المتعرج . و أما قوله و وقف الجاري منه لخشيته فلا يدل دلالة قاطعة على أنه كان جاريا و وقف و لكن ذلك كلام مخرج التعظيم و التبجيل و معناه أن الماء طبعه الجريان و السيلان فهو جار بالقوة و إن لم يكن جاريا بالفعل و إنما وقف و لم يجر بالفعل بقدرة الله تعالى المانعة له من السيلان و ليس قوله و رست أصولها في الماء مما ينافي النظر العقلي لأنه لم يقل و رست أصولها في ماء البحر و لكنه قال في الماء و لا شبهة في أن أصول الجبال راسية في الماء المتخلخل بين أجزاء الأرض فإن الأرض كلها يتخلخل الماء بين أجزائها على طريق استحالة البخار من الصورة الهوائية إلى الصورة المائية . و ليس ذكره للجبال و كونها مانعة للأرض من الحركة بمناف أيضا للنظر الحكمي لأن الجبال في الحقيقة قد تمنع من الزلزلة إذا وجدت أسبابها الفاعلة فيكون ثقلها مانعا من الهدة و الرجفة .

[55]

ليس قوله تكرر الرياح منافيا للنظر الحكمي أيضا لأن كرة الهواء محيطية بكرة و قد تعصف الرياح في كرة الهواء للأسباب المذكورة في موضعها من هذا العلم فيتموج كثير من الكرة المائية لعصف الرياح . و ليس قوله ع و تمخضه الغمام الذوارف صريحا في أن السحب تنزل في البحر فتعترف منه كما قد يعتقد في المشهور العامي نحو قول الشاعر

كالبحر تمطره السحاب و ما لها

فضل عليه لأنها من مائه

بل يجوز أن تكون الغمام الذراف تمخضه و تحركه بما ترسل عليه من الأمطار السائلة منها فقد ثبت أن كلام أمير المؤمنين ع موجه إن شئت فسرته بما يقوله أهل الظاهر و إن شئت فسرته بما يعتقده الحكماء . فإن قلت فكيف قال الله تعالى **أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا** و هل كان الذين كفروا راعين لذلك حتى يقول لهم **أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا** . قلت هذا في قوله اعلموا أن السموات و الأرض كانتا رتقا ففتقناهما كما يقول الإنسان لصاحبه أ لم تعلم أن الأمير صرف حاجبه الليلة عن بابه أي اعلم ذلك إن كنت غير عالم و الروية هنا بمعنى العلم . و اعلم أنه قد ذهب

قوم من قدماء الحكماء و يقال أنه مذهب سقراط إلى تفسير القيامة و جهنم بما يبتني على وضع الأرض على الماء فقالوا الأرض موضوعة على الماء و الماء على الهواء و الهواء على النار و النار في حشو الأفلاك و لما كان العنصران الخفيفان و هما الهواء و النار يقتضيان صعود ما يحيطان به و العنصران الثقيلان اللذان في وسطهما و هما

[56]

الماء و الأرض يقتضيان النزول و الهبوط وقعت الممانعة و المدافعة فلزم من ذلك وقوف الماء و الأرض في الوسط . قالوا ثم إن النار لا تزال يترديد تأثيرها في إسخان الماء و يضاف إلى ذلك حر الشمس و الكواكب إلى أن تبلغ البحار و العنصر المائي غايتها في الغليان و الفوران فيتصاعد بخار عظيم إلى الأفلاك شديد السخونة و يضاف إلى ذلك حر فلك الأثير الملاصق للأفلاك فتذوب الرصاص و تتهافت و تتساقط و تصير كالمهل الشديد الحرارة و نفوس البشر على قسمين أحدهما ما تجوهر و صار مجردا بطريق العلوم و المعارف و قطع العلائق الجسمانية حيث كان مدبرا للبدن و الآخر ما بقي على جسمانيته بطريق خلوه من العلوم و المعارف و انغماسه في اللذات و الشهوات الجسمانية فأما الأول فإنه يلتحق بالنفس الكلية المجردة و يخلص من دائرة هذا العالم بالكلية و أما الثاني فإنه تنصب عليه تلك الأجسام الفلكية الذائبة فيحترق بالكلية و يتعذب و يلقي آلاما شديدة . قالوا هذا هو باطن ما وردت به الرواية من العذاب عليها و خراب العالم و الأفلاك و انهدامها . ثم نعود إلى شرح الألفاظ قوله ع فاستمسكت أي وقفت و ثبتت . و الهاء في حده تعود إلى أمره أي قامت على حد ما أمرت به أي لم تتجاوزته و لا تعدته . و الأخضر البحر و يسمى أيضا خضارة معرفة غير مصروف و العرب تسميه بذلك إما لأنه يصف لون السماء فيرى أخضر أو لأنه يرى أسود لصفائه فيطلقون عليه لفظ

[57]

الأخضر كما سموا الأخضر أسود نحو قوله **مُدَاهَمَتَانِ** و نحو تسميتهم قرى العراق سوادا لخضرتها و كثرة شجرها و نحو قولهم للديزج من الدواب أخضر . المتعجر السائل تعجرت الدم و غيره فاتعجر أي صببته فانصب و تصغير المتعجر مثيرعج و مثيرعج . و القمقام بالفتح من أسماء البحر و يقال لمن وقع في أمر عظيم وقع في قمقام من الأمر تشبيها بالبحر . قوله ع و جبل جلاميدها أي و خلق صخورها جمع جلمود . و النشوز جمع نشز و هو المرتفع من الأرض و يجوز فتح الشين . و متونها جوانبها و أطواها جبالها و يروى و أطواها بالجر عطفًا على متونها . فأرساها في مراسيها أثبتها في مواضعها رسا الشيء يرسو ثبت و رست أقدامهم في الحرب ثبتت و رست السفينة ترسو رسوا و رسوا أي وقفت في البحر و قوله تعالى **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَ مُرْسَاهَا** بالضم من أجريت و أرسيت و من قرأ بالفتح فهو من رست هي و جرت هي . و ألزمها قرارتها أمسكها حيث استقرت . قوله فأنهد جبالها أي أعلاها نهد ثدي الجارية ينهد بالضم إذا أشرف و كعب فهي ناهد و ناهدة . و سهولها ما تظامن منها عن الجبال . و أساخ قواعدها أي غيب قواعد الجبال في جوانب أقطار الأرض ساخت قوائم

[58]

الفرس في الأرض تسوخ و تسيخ أي دخلت فيها و غابت مثل ثاخذت و أسختها أنا مثل أئختها و الأنصاب الأجسام المنصوبة الواحد نصب بضم النون و الصاد و منه سميت الأصنام نصبا في قوله تعالى **وَ مَا دُبْحَ عَلَى النَّصْبِ** لأنها نصبت

و ذا المنصوب لا تنسكنه

لعاقبة و الله ربك فاعبدا

أي و أساخ قواعد الجبال في متون أقطار الأرض و في المواضع الصالحة لأن تكون فيها الأنصاب المماثلة و هي الجبال أنفسها . قوله فأشهى قلالها جمع قلة و هي ما علا من رأس الجبل أشهقها جعلها شاهقة أي عالية . و أرزها أثبتها فيها رزت الجرادة ترز رزا و هو أن تدخل ذنبها في الأرض فتلقى بيضها و أرزها الله أثبت ذلك منها في الأرض و يجوز أرزت لازما غير متعد مثل رزت و ارتز السهم في القرطاس ثبت فيه و روي و أرزها بالمد من قولهم شجرة أرزة أي ثابتة في الأرض أرزت بالفتح تأرز بالكسر أي ثبتت و أرزها بالمد غيرها أي أثبتها . و تميد تتحرك و تسيخ تنزل و تهوي . فإن قلت ما الفرق بين الثلاثة تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها . قلت لأنها لو تحركت لكانت إما أن تتحرك على مركزها أو لا على مركزها

[59]

و الأول هو المراد بقوله تميد بأهلها و الثاني تنقسم إلى أن تنزل إلى تحت أو لا تنزل إلى تحت فالنزول إلى تحت هو المراد بقوله أو تسيخ بحملها و القسم الثاني هو المراد بقوله أو تزول عن مواضعها . فإن قلت ما المراد ب على في قوله فسكنت على حركتها . قلت هي لهينة الحال كما تقول عفوت عنه على سوء أدبه و دخلت إليه على شربه أي سكنت على أن من شأنها الحركة لأنها محمولة على سائل متموج . قوله موجان مياهاها بناء فعلان لما فيه اضطراب و حركة كالغليان و النزوان و الخفقان و نحو ذلك . و أجمدها أي أجعلها جامدة و أكنافها جوانبها و المهاد الفراش . فوق بحر لجي كثير الماء منسوب إلى اللجة و هي معظم البحر . قوله يكرره الرياح الكركرة تصريف الرياح السحاب إذا جمعته بعد تفريق و أصله يكرر من التكرير فأعادوا الكاف كركرت الفارس عني أي دفعته و رددته . و الرياح العواصف الشديدة الهبوب و تمخضه يجوز فتح الخاء و ضمها و كسرهما و الفتح أفصح لمكان حرف الحلق من مخضت اللبن إذا حركته لتأخذ زبده . و الغمام جمع و الواحدة غمامة و لذلك قال الذوارف لأن فواعل أكثر ما يكون لجمع المونث ذرفت عينه أي دمعت أي السحب المواطر و المضارع من ذرفت عينه تذرف بالكسر ذرفا و ذرفا و المذارف المدامع

[60]

205 و من خطبة له ع

اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةِ وَالْمُصَلِّحَةَ غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَةِ فَأَبَى
بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا الْتَكْوَصَ عَنْ نُصْرَتِكَ وَالْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ يَا أَكْبَرَ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً وَنَسْتَشْهَدُ
عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَسْكَنْتَهُ أَرْضَكَ وَسَمَاوَاتِكَ ثُمَّ أَنْتَ بَعْدَهُ بَعْدَ الْمَغْنِيِّ عَنْ نَصْرِهِ وَالْأَخْذُ لَهُ بِذَنْبِهِ مَا فِي أَيُّمَا زَانِدَةٍ مُؤَكَّدَةٌ وَ
مَعْنَى الْفَصْلِ وَعِيدٍ مِنْ اسْتِنصَرِهِ فَقَعِدَ عَنْ نَصْرِهِ . وَوَصَفَ الْمَقَالَةَ بِأَنَّهَا عَادِلَةٌ إِمَّا تَأْكِيدُ كَمَا قَالُوا شِعْرَ شَاعِرٍ وَإِمَّا ذَاتُ
عَدْلٍ كَمَا قَالُوا رَجُلٌ تَامِرٌ وَلا بَيْنَ أَيِّ ذُو تَمَرٍ وَلا بَيْنَ وَجْهِهِ وَلا يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَرِيدَ بِالْعَادِلَةِ الْمُسْتَقِيمَةَ الَّتِي لَيْسَتْ كَاذِبَةً وَلا مَحْرُفَةً
عَنْ جِهَتِهَا وَالجَائِرَةُ نَقِيضُهَا وَهِيَ الْمَحْرُفَةُ جَارُ فُلَانٍ عَنِ الطَّرِيقِ أَيِ انْحِرَافٌ وَعَدْلٌ . وَالنَّكْوَصُ التَّأَخُّرُ . قَوْلُهُ ع
نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ أَيِ نَسْأَلُكَ أَنْ تَشْهَدَ عَلَيْهِ وَوَصَفَهُ تَعَالَى

[61]

بأنه أكبر الشاهدين شهادة لقوله تعالى **قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ** يقول اللهم إنا نستشهدك على خذلان من
استنصرناه و استنفرناه إلى نصرتك و الجهاد عن دينك فأبى النهوض و نكث عن القيام بواجب الجهاد و نستشهد عبادك
من البشر في أرضك و عبادك من الملائكة في سمواتك عليه أيضا ثم أنت بعد ذلك المغني لنا عن نصرتك و نهضته بما
تتيحه لنا من النصر و تؤيدنا به من الإعزاز و القوة و الأخذ له بذنبه في القعود و التخلف . و هذا قريب من قوله تعالى **وَ
إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**

[62]

206 و من خطبة له ع

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنِ شَبِّهِ الْمَخْلُوقِينَ الْعَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ الظَّاهِرِ بَعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ وَ الْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنِ فِكْرِ الْمَتَوَهِّمِينَ الْعَالِمِ بِأَلَا كُنْتَسَابِ وَ لَا إِزْدِيَادِ وَ لَا عِلْمِ مُسْتَفَادِ الْمَقْدَرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِأَلَا رَوِيَّةٍ وَ لَا ضَمِيرِ الَّذِي لَا تُغْشَاهُ الظُّلْمُ وَ لَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ وَ لَا يَرَهْقُهُ لَيْلٌ وَ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالإِبْصَارِ وَ لَا عِلْمُهُ بِالإِخْبَارِ يجوز شبهه و شبهه و الرواية هاهنا بالفتح و تعاليه سبحانه عن شبه المخلوقين كونه قديما واجب الوجود و كل مخلوق محدث ممكن الوجود . قوله الغالب لمقال الواصفين أي إن كنه جلاله و عظمته لا يستطيع الواصفون وصفه و إن أطنبوا و أسهبوا فهو كالمغالب لأقوالهم لعجزها عن إيضاحه و بلوغ منتهاه و الظاهر بأفعاله و الباطن بذاته لأنه إنما يعلم منه أفعاله و أما ذاته فغير معلومة . ثم وصف علمه تعالى فقال إنه غير مكتسب كما يكتسب الواحد منا علومه بالاستدلال و النظر و لا هو علم يزداد إلى علومه الأولى كما تزيد علوم الواحد منا و معارفه و تكثر لكثرة الطرق التي يتطرق بها إليها .

[63]

ثم قال و لا علم مستفاد أي ليس يعلم الأشياء بعلم محدث مجددا كما يذهب إليه جهم و أتباعه و هشام بن الحكم و من قال بقوله . ثم ذكر أنه تعالى قدر الأمور كلها بغير روية أي بغير فكر و لا ضمير و هو ما يطويه الإنسان من الرأي و الاعتقاد و العزم في قلبه . ثم وصفه تعالى بأنه لا يغشاه ظلام لأنه ليس بجسم و لا يستضيء بالأنوار كالأجسام ذوات البصر و لا يرهقه ليل أي لا يغشاه و لا يجري عليه نهار لأنه ليس بزمني و لا قابل للحركة ليس إدراكه بالأبصار لأن ذلك يستدعي المقابلة و لا علمه بالإخبار مصدر أخير أي ليس علمه مقصورا على أن تخبره الملائكة بأحوال المكلفين بل هو يعلم كل شيء لأن ذاته ذات واجب لها أن تعلم كل شيء لمجرد ذاتها المخصوصة من غير زيادة أمر على ذاتها : وَ مِنْهَا فِي ذِكْرِ النَّبِيِّ ص أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ وَ قَدَّمَهُ فِي الإِصْطِفَاءِ فَرْتَقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ وَ سَاوَرَ بِهِ الْمَغَالِبَ وَ دَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ وَ سَهَّلَ بِهِ الْحَزُونََةَ حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمَالٍ أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ أَي بِالْحَقِّ وَ سَمَى الْحَقَّ ضِيَاءً لِأَنَّهُ يَهْتَدَى بِهِ أَوْ أَرْسَلَهُ بِالضِّيَاءِ أَي بِالْقُرْآنِ .

[64]

و قدمه في الاصطفاء أي قدمه في الاصطفاء على غيره من العرب و العجم قالت قريش **لَوْ لَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ** أي على رجل من رجلين من القريتين **عَظِيمٍ** أي إما على الوليد بن المغيرة من مكة أو على عروة بن مسعود الثقفي من الطائف . ثم قال تعالى **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ** أي هو سبحانه العالم بالمصلحة في إرسال الرسل و تقديم من يرى في الاصطفاء على غيره . فرتق به المفاتيح أي أصلح به المفاصد و الرتق ضد الفتق و المفاتيح جمع مفتق و هو مصدر كالمضرب و المقتل . و ساور به المغالب ساورت زيدا أي واثبته و رجل سوار أي وثاب و سورة الخمر و ثوبها في الرأس . و الحزونة ضد السهولة و الحزن ما غلظ من الأرض و السهل ما لان منها و استعير لغير الأرض كالأخلاق و نحوها . قوله حتى سرح الضلال أي طرده و أسرع به ذهابا . عن يمين و شمال من قولهم ناقة سرح و منسرحة أي سريعة و منه تسريح المرأة أي تطليقها

207 و من خطبة له ع

وَ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ وَ عَدَلٌ وَ حَكَمٌ فَصَلِّ وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ وَ سَيِّدُ عِبَادِهِ كُلَّمَا نَسَخَ اللَّهُ الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَهُ فِي خَيْرِهِمَا لَمْ يُسْهِمْ فِيهِ عَاهِرٌ وَ لَا ضَرْبٌ فِيهِ فَاجِرٌ أَلَا وَ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلًا وَ لِلْحَقِّ دَعَائِمٌ وَ لِلطَّاعَةِ عِصْمًا وَ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ كُلِّ طَاعَةٍ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ وَ يُثَبِّتُ بِهِ الْأَفْئِدَةَ فِيهِ كِفَاءٌ لِمُكْتَفٍ وَ شِفَاءٌ لِمُشْتَفٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُسْتَحْفَظِينَ عِلْمُهُ يَصُونُونَ مَصُونَهُ وَ يَفْجَرُونَ عِيُونَهُ يَتَوَاصِلُونَ بِالْوِلَايَةِ وَ يَتَلَفَّقُونَ بِالْمَحَبَّةِ وَ يَسَاقِفُونَ بِكَأْسِ رَوْيَةٍ وَ يَصْدُرُونَ بِرِيَّةٍ لَا تَشْوِبُهُمُ الرِّبِيَّةُ وَ لَا تُسْرِعُ فِيهِمُ الْعُيْبَةُ عَلَى ذَلِكَ عَقْدَ خَلْقِهِمْ وَ أَخْلَاقَهُمْ فَعَلَيْهِ يَتَحَابُّونَ وَ بِهِ يَتَوَاصِلُونَ فَكَانُوا كَتَفَاضِلِ الْبُذْرِ يَنْتَقِي فَيُؤَخِّدُ مِنْهُ وَ يَلْقَى قَدْ مَيَّرَهُ التَّخْلِيصُ وَ هَدَّبَهُ التَّمْحِيصُ فَلْيُقْبَلِ امْرُؤٌ كَرَامَةً بِقُبُولِهَا وَ لِيَحْذَرُ قَارِعَةً قَبْلَ حُلُولِهَا وَ لِيَنْظُرَ امْرُؤٌ فِي قَصِيرِ أَيَّامِهِ وَ قَلِيلِ مُقَامِهِ فِي مَنْزِلٍ حَتَّى يَسْتَبَدِّلَ بِهِ مَنْزِلًا فَلْيَصْنَعْ لِمُتَحَوِّلِهِ وَ مَعَارِفِ مُنْتَقَلِهِ فَطُوبَى لِمَنْ لَدِي قَلْبٍ سَلِيمٍ أَطَاعَ مَنْ يَهْدِيهِ وَ تَجَنَّبَ مَنْ يُرْدِيهِ وَ أَصَابَ سَبِيلَ السَّلَامَةِ بِبَصَرٍ مِنْ بَصَرِهِ وَ طَاعَةَ هَادٍ أَمْرَهُ وَ بَادَرَ الْهُدَى قَبْلَ أَنْ تُغْلَقَ أَبْوَابُهُ

[66]

وَ تُفْطَعُ أَسْبَابُهُ وَ اسْتَفْتَحَ التَّوْبَةَ وَ أَمَاطَ الْحَوْبَةَ فَقَدْ أَقِيمَ عَلَى الطَّرِيقِ وَ هُدِيَ نَهْجَ السَّبِيلِ الضَّمِيرِ فِي أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى الْقَضَاءِ وَ الْقَدْرِ الْمَذْكُورِ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ وَ لَمْ يَذْكُرْهُ الرِّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّ قَضَاءَهُ تَعَالَى عَدْلٌ وَ حَكَمٌ بِالْحَقِّ فَإِنَّهُ حَكَمٌ فَصَلَ بَيْنَ الْعِبَادِ بِالْإِنصَافِ وَ نَسَبَ الْعَدْلَ وَ الْفَصَلَ إِلَى الْقَضَاءِ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ وَ هُوَ بِالْحَقِيقَةِ مَنْسُوبٌ إِلَى ذِي الْقَضَاءِ وَ الْقَاضِي بِهِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى . قَوْلُهُ وَ سَيِّدُ عِبَادِهِ هَذَا كَالْمَجْمَعِ عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَ إِنْ كَانَ قَدْ خَالَفَ فِيهِ شَذُوزٌ مِنْهُمْ وَ احْتِجَّ الْجُمْهُورُ

بقوله أنا سيد ولد آدم و لا فخر و

بقوله ادعوا لي سيد العرب عليا فقالت عائشة أ لست سيد العرب فقال أنا سيد البشر و علي سيد العرب و

بقوله آدم و من دونه تحت لوائي و احتج المخالف

بقوله ع لا تفضلوني على أخي يونس بن متى . و أجاب الأولون تارة بالطعن في إسناد الخبر و تارة بأنه حكاية كلام حكاة ص عن عيسى ابن مريم و تارة بأن النهي إنما كان عن الغلو فيه كما غلت الأمم في أنبيائها فهو كما ينهى الطبيب المريض فيقول لا تأكل من الخبز و لا درهما و ليس مراده تحريم أكل الدرهم و الدرهمين بل تحريم ما يستضر بأكله منه . قوله ع كلما نسخ الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما النسخ النقل و منه نسخ الكتاب و منه نسخت الريح آثار القوم و نسخت الشمس الظل يقول

[67]

كلما قسم الله تعالى الأب الواحد إلى ابنين جعل خيرهما و أفضلهما لولادة محمد ع و سمي ذلك نسحا لأن البطن الأول يزول و يخلفه البطن الثاني و منه مسائل المناسخات في الفرائض . و هذا المعنى قد ورد مرفوعا في عدة أحاديث نحو

قوله ص ما افتقرت فرقتان منذ نسل آدم ولده إلا كنت في خيرهما و نحو

قوله إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل و اصطفى من ولد إسماعيل مضر و اصطفى من مضر كنانة و اصطفى من

كنانة قريشا و اصطفى من قريش هاشما و اصطفاني من بني هاشم

قوله لم يسهم فيه عاهر و لا ضرب فيه فاجر لم يسهم لم يضرب فيه عاهر بسهم أي بنصيب و جمعه سهمان و العاهر ذو

العهر بالتحريك و هو الفجور و الزناء و يجوز تسكين الهاء مثل نهر و نهر و هذا هو المصدر و الماضي عهر بالفتح و

الاسم العهر بكسر العين و سكون الهاء و المرأة عاهرة و معاهرة و عيهرة و تعيهر الرجل إذا زنى و الفاجر كالعاهر

هاهنا و أصل الفجور الميل قال لبيد

فإن تتقدم تغش منها مقدما

غليظا و إن أخرت فالكفل فاجر

يقول مقعد الرديف مائل

ذكر بعض المطاعن في النسب و كلام للجاحظ في ذلك

و في الكلام رمز إلى جماعة من الصحابة في أنسابهم طعن كما يقال إن آل سعد بن أبي وقاص ليسوا من بني زهرة بن كلاب و إنهم من بني عذرة من قحطان

[68]

و كما قالوا إن آل الزبير بن العوام من أرض مصر من القبط و ليسوا من بني أسد بن عبد العزى قال الهيثم بن عدي في كتاب مثالب العرب إن خويلد بن أسد بن عبد العزى كان أتى مصر ثم انصرف منها بالعوام فتنبأه فقال حسان بن ثابت يهجو آل العوام بن خويلد

بني أسد ما بال آل خويلد
يحنون شوقا كل يوم إلى القبط
متى يذكروا فهقى يحنوا لذكرها
و للرمث المقرن و السمك الرقط
عيون كأمثال الزجاج و ضيعة
تخالف كعبا في لحي كثة ثظ
يرى ذاك في الشبان و الشيب منهم
مبينا و في الأطفال و الجلة الشمط
لعمر أبي العوام إن خويلدا
غداة تنبأه ليوثق في الشرط

و كما يقال في قوم آخرين نرفع هذا الكتاب عن ذكر ما يطعن به في أنسابهم كي لا يظن بنا أنا نحب المقالة في الناس . قال شيخنا أبو عثمان في كتاب مفاخرات قريش لا خير في ذكر العيوب إلا من ضرورة و لا نجد كتاب مثالب قط إلا لدعي أو شعوبي و لست واجده لصحيح النسب و لا لقليل الحسد و ربما كانت حكاية الفحش أفحش من الفحش و نقل الكذب أقبح من الكذب و

قال النبي ص اعف عن ذي قبر و

قال لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات و قيل في المثل يكفيك من شر سماعه و قالوا أسمعك من أبلغك و قالوا من طلب عيبا و جدده و قال النابغة

و لست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث أي الرجال المهذب

[69]

قال أبو عثمان و بلغ عمر بن الخطاب أن أناسا من رواة الأشعار و حملة الآثار يعيبون الناس و يثلبونهم في أسلافهم فقام على المنبر و قال إياكم و ذكر العيوب و البحث عن الأصول فلو قلت لا يخرج اليوم من هذا الأبواب إلا من لا وصمة فيه لم يخرج منكم أحد فقام رجل من قريش نكره أن نذكره فقال إذا كنت أنا و أنت يا أمير المؤمنين نخرج فقال كذبت بل كان يقال لك يا قين بن قين اقعد . قلت الرجل الذي قام هو المهاجر بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي كان عمر يبغضه لبغضه أباه خالدًا و لأن المهاجر كان علوي الرأي جدا و كان أخوه عبد الرحمن بخلافه شهد المهاجر صفين مع علي ع و شهدها عبد الرحمن مع معاوية و كان المهاجر مع علي ع في يوم الجمل و فقتت ذلك اليوم عينه و لأن الكلام الذي بلغ عمر بلغه عن المهاجر و كان الوليد بن المغيرة مع جلالته في قريش و كونه يسمى ريحانة قريش و يسمى العدل و يسمى الوحيد حداد يصنع الدروع و غيرها بيده ذكر ذلك عنه عبد الله بن قتيبة في كتاب المعارف . و روى أبو الحسن المدائني هذا الخبر في كتاب أمهات الخلفاء و قال إنه روى عند جعفر بن محمد ع بالمدينة فقال لا تلمه يا ابن أخي إنه أشفق أن يحدث بقضية نفيل بن عبد العزى و صهاك أمة الزبير بن عبد المطلب ثم قال رحم الله عمر فإنه لم يعد السنة و تلاً **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** . أما قول ابن جرير الأملّي الطبرستاني في كتاب المسترشد إن عثمان والد

[70]

أبي بكر الصديق كان ناكحا أم الخير ابنة أخته فليس بصحيح و لكنها ابنة عمه لأنها ابنة صخر بن عامر و عثمان هو ابن عمرو بن عامر و العجب لمن اتبعه من فضلاء الإمامية على هذه المقالة من غير تحقيق لها من كتب الأنساب و كيف تتصور هذه الواقعة في قريش و لم يكن أحد منهم مجوسيا و لا يهوديا و لا كان من مذهبهم حل نكاح بنات الأخ و لا بنات الأخت . ثم نعود لإتمام حكاية كلام شيخنا أبي عثمان قال و متى يقدر الناس حفظك الله على رجل مسلم من كل ابنة و مبرأ من كل أفة في جميع آبائه و أمهاته و أسلافه و أصهاره حتى تسلم له أخواله و أعمامه و خالاته و عماته و أخواته و بناته و أمهات نسائه و جميع من يناسبه من قبل جداته و أجداده و أصهاره و أختانه و لو كان ذلك موجودا لما كان لنسب رسول الله ص فضيلة في النقاء و التهذيب و في التصفية و التنقيح

قال رسول الله ص ما مسني عرق سفاح قط و ما زلت أنقل من الأصلاب السليمة من الوصوم و الأرحام البرينة من العيوب فلسنا نقضي لأحد بالنقاء من جميع الوجوه إلا لنسب من صدقه القرآن و اختاره الله على جميع الأنام و إلا فلا بد من شيء يكون في نفس الرجل أو في طرفيه أو في بعض أسلافه أو في بعض أصهاره و لكنه يكون مغطى بالصلاح و محجوبا بالفضائل و مغمورا بالمناقب . و لو تأملت أحوال الناس لوجدت أكثرهم عيوباً أشدهم تعيباً قال الزبير بن جراح ما استب رجلان إلا غلب الأملهما و قال خصلتان كثيرتان في امرئ السوء

[71]

كثرة اللطام و شدة السباب و لو كان ما يقوله أصحاب المثالب حقا لما كان على ظهرها عربي كما قال عبد الملك بن صالح الهاشمي إن كان ما يقول بعض في بعض حقا فما فيهم صحيح و إن كان ما يقول بعض المتكلمين في بعض حقا فما فيهم مسلم . قوله ع ألا و إن الله قد جعل للخير أهلا و للحق دعائم و للطاعة عصما الدعائم ما يدعم بها البيت لنلا يسقط و العصم جمع عصمة و هو ما يحفظ به الشيء و يمنع فاهل الخير هم المتقون و دعائم الحق الأدلة الموصلة إليه المثبتة له

في القلوب و عصم الطاعة هي الإدمان على فعلها و التمرن على الإتيان بها لأن المرون على الفعل يكسب الفاعل ملكة تقتضي سهولته عليه و العون هاهنا هو اللطف المقرب من الطاعة المبعد من القبيح . ثم قال ع إنه يقول على الألسنة و يثبت الأفئدة و هذا من باب التوسع و المجاز لأنه لما كان مستهلا للقول أطلق عليه إنه يقول على الألسنة و لما كان الله تعالى هو الذي يثبت الأفئدة كما قال **يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ** نسب التثبيت إلى اللطف لأنه من فعل الله تعالى كما ينسب الإنبات إلى المطر و إنما المنبت للزرع هو الله تعالى و المطر فعله . ثم قال ع فيه كفاء لمكتف و شفاء لمشتف و الوجه فيه كفاية فإن الهمز لا وجه له هاهنا لأنه من باب آخر و لكنه أتى بالهمزة للازدواج بين كفاء

[72]

و شفاء كما قالوا الغدايا و العشايا و كما قال ع مأزورات غير مأجورات فأتى بالهمز و الوجه الواو للازدواج

ذكر بعض أحوال العارفين و الأولياء

ثم ذكر العارفين فقال و اعلموا أن عباد الله المستحفظين علمه إلى قوله و هذبه التمهيص . و اعلم أن الكلام في العرفان لم يأخذه أهل الملة الإسلامية إلا عن هذا الرجل و لعمرى لقد بلغ منه إلى أقصى الغايات و أبعد النهايات و العارفون هم القوم الذين اصطفاهم الله تعالى و انتخبهم لنفسه و اختصهم بأنسه أحبوه فأحبهم و قربوا منه فقرب منهم قد تكلم أرباب هذا الشأن في المعرفة و العرفان فكل نطق بما وقع له و أشار إلى ما وجده في وقته . و كان أبو علي الدقاق يقول من أمارات المعرفة حصول الهيبة من الله فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته . و كان يقول المعرفة توجب السكينة في القلب كما أن العلم يوجب السكون فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته . و سئل الشبلي عن علامات العارف فقال ليس لعارف علامة و لا لمحب سكون و لا لخائف قرار . و سئل مرة أخرى عن المعرفة فقال أولها الله و آخرها ما لا نهاية له . و قال أبو حفص الحداد منذ عرفت الله ما دخل قلبي حق و لا باطل و قد أشكل هذا الكلام على أرباب هذا الشأن و تأوله بعضهم فقال عند القوم إن المعرفة توجب

[73]

غيبية العبد عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق عليه فلا يشهد غير الله و لا يرجع إلا إليه و كما إن العاقل يرجع إلى قلبه و تفكره و تذكره فيما يسنح له من أمر أو يستقبله من حال فالعارف رجوعه إلى ربه لا إلى قلبه و كيف يدخل المعنى قلب من لا قلب له . و سئل أبو يزيد البسطامي عن العرفان فقال **إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أَدْلَةً** و هذا معنى ما أشار إليه أبو حفص الحداد . و قال أبو يزيد أيضا للخلق أحوال و لا حال للعارف لأنه محيت رسومه و فنى هو و صارت هويته هوية غيره و غيبت آثاره في آثار غيره . قلت و هذا هو القول بالاتحاد الذي يبحث فيه أهل النظر . و قال الواسطي لا تصح المعرفة و في العبد استغناء بالله أو افتقار إليه و فسر بعضهم هذا الكلام فقال إن الافتقار و الاستغناء من أمارات صحو العبد و بقاء رسومه على ما كانت عليه و العارف لا يصح ذلك عليه لأنه لاستهلاكه في وجوده أو لاستغراقه في شهوده إن لم يبلغ درجة الاستهلاك في الوجود مختطف عن إحساسه بالغنى و الفقر و غيرهما من الصفات و لهذا قال الواسطي من عرف الله انقطع و خرس و انقمع

قال ص لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . و قال الحسين بن منصور الحلاج علامة العارف أن يكون فارغا من الدنيا و الآخرة . و قال سهل بن عبد الله التستري غاية العرفان شينان الدهش و الحيرة . و قال ذو النون أعرف الناس بالله أشدهم تحيرا فيه . و قيل لأبي يزيد بما ذا وصلت إلى المعرفة قال ببدن عار و بطن جائع .

[74]

و قيل لأبي يعقوب السوسى هل يتأسف العارف على شيء غير الله فقال و هل يرى شيئا غيره ليتأسف عليه . و قال أبو يزيد العارف طيار و الزاهد سيار . و قال الجنيد لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤها البر و الفاجر و كالحساب يظل كل شيء و كالمطر يسقى ما ينبت و ما لا ينبت . و قال يحيى بن معاذ يخرج العارف من الدنيا و لا يقضى وطره من شينين بكائه على نفسه و حبه لربه . و كان ابن عطاء يقول أركان المعرفة ثلاثة الهيبة و الحياء و الأتس و قال

بعضهم العارف أنس بالله فأوحشه من خلقه و افتقر إلى الله فأغناه عن خلقه و ذل الله فأعزه في خلقه . و قال بعضهم العارف فوق ما يقول و العالم دون ما يقول . و قال أبو سليمان الداراني إن الله يفتح للعارف على فراشه ما لا يفتح للعابد و هو قائم يصلي . و كان رويم يقول رياء العارفين أفضل من إخلاص العابدين . و سنل أبو تراب النخشي عن العارف فقال هو الذي لا يكدره شيء و يصفو به كل شيء . و قال بعضهم المعرفة أمواج ترفع و تحط . و سنل يحيى بن معاذ عن العارف فقال الكائن البائن . و قيل ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة فكيف عند أبناء الدنيا . و قال محمد بن الفضل المعرفة حياة القلب مع الله . و سنل أبو سعيد الخراز هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء قال

[75]

نعم إنما البكاء في أوقات سيرهم إلى الله فإذا صاروا إلى حقائق القرب و ذاقوا طعم الوصول زال عنهم ذلك . و اعلم أن إطلاق أمير المؤمنين ع عليهم لفظة الولاية في قوله يتواصلون بالولاية و يتلاقون بالمحبة يستدعي الخوض في مقامين جليلين من مقامات العارفين المقام الأول الولاية و هو مقام جليل قال الله تعالى **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** و

جاء في الخبر الصحيح عن النبي ص يقول الله تعالى من أدى لي وليا فقد استحل محارمي و ما تقرب إلي العبد بمثل أداء ما فرضت عليه و لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه و لا تردت في شيء أنا فاعله كتردد في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت و أكره مساءته و لا بد له منه . و اعلم أن الولي له معنيان أحدهما فعيل بمعنى مفعول كقتيل و جريح و هو من يتولى الله أمره كما قال الله تعالى **إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** فلا يكله إلى نفسه لحظة عين بل يتولى رعايته . و ثانيهما فعيل بمعنى فاعل ككذير و عليم و هو الذي يتولى طاعة الله و عبادته فلا يعصيه . و من شرط كون الولي وليا ألا يعصي مولاه و سيده كما أن من شرط كون النبي

[76]

نبيا العصمة فمن ظن فيه أنه من الأولياء و يصدر عنه ما للشرع فيه اعتراض فليس بولي عند أصحاب هذا العلم بل هو مغرور مخادع . و يقال إن أبا يزيد البسطامي قصد بعض من يوصف بالولاية فلما وافى مسجده قعد ينتظر خروجه فخرج الرجل و تنخم في المسجد فانصرف أبو يزيد و لم يسلم عليه و قال هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة كيف يكون أمينا على أسرار الحق . و قال إبراهيم بن أدهم لرجل أ تحب أن تكون لله وليا قال نعم قال لا ترغب في شيء من الدنيا و لا من الآخرة و فرغ نفسك لله و أقبل بوجهك عليه ليقبل عليك و يواليك . و قال يحيى بن معاذ في صفة الأولياء هم عباد تسربلوا بالأنس بعد المكابدة و ادرعوا بالروح بعد المجاهدة بوصولهم إلى مقام الولاية . و كان أبو يزيد يقول أولياء الله عرائس الله و لا يرى العرائس إلا المحارم فهم مخدرون عنده في حجاب الأنس لا يراهم أحد في الدنيا و لا في الآخرة . و قال أبو بكر الصيدلاني كنت أصلح لقبر أبي بكر الطمستاني لوحا أنقر فيه اسمه فيسرق ذلك اللوح فأنقر له لوحا آخر و أنصبه على قبره فيسرق و تكرر ذلك كثيرا دون غيره من ألواح القبور فكنت أتعجب منه فسألت أبا علي الدقاق عن ذلك فقال إن ذلك الشيخ أثر الخفاء في الدنيا و أنت تريد أن تشهره باللوح الذي تنصبه على قبره فإله سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره كما هو ستر نفسه . و قال بعضهم إنما سمي الولي وليا لأنه توالى أفعاله على الموافقة .

و قال يحيى بن معاذ الولي لا يراني و لا ينافق و ما أقل صديق من يكون هذا خلقه . المقام الثاني المحبة قال الله سبحانه **مَنْ يَزِدْكَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ** و المحبة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة . قال أبو يزيد البسطامي المحبة استقلال الكثير من نفسك و استكثار القليل من حبيبك . و قال أبو عبد الله القرشي المحبة أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء و أكثرهم على نفي صفة العشق لأن العشق مجاوزة الحد في المحبة و البارئ سبحانه أجل من أن يوصف بأنه قد تجاوز أحد الحد في محبته . سئل الشبلي عن المحبة فقال هي أن تغار على المحبوب أن يحبه أحد غيرك . و قال سمعون ذهب المحبون بشرف الدنيا و الآخرة

لأن النبي ص قال المرء مع من أحب فهم مع الله تعالى . و قال يحيى بن معاذ حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء و لا يزيد بالبر . و قال ليس بصادق من ادعى محبته و لم يحفظ حدوده . و قال الجنيد إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب . و أنشد في معناه

إذا صفت المودة بين قوم
و دام ودادهم سمج الثناء

و كان أبو علي الدقاق يقول أ لست ترى الأب الشفيق لا يبجل ولده في الخطاب و الناس يتكفون في مخاطبته و الأب يقول له يا فلان باسمه .

و قال أبو يعقوب السوسي حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله و ينسى حوائجه إليه . قيل للنصرآبادي يقولون إنه ليس لك من المحبة شيء قال صدقوا و لكن لي حسراتهم فهو ذو احتراق فيه . و قال النصرآبادي أيضا المحبة مجانبة السلو على كل حال ثم أنشد

و من كان في طول الهوى ذاق سلوة
فإني من ليلى لها غير ذائق
و أكثر شيء نلته في وصالها
أماني لم تصدق كلمحة بارق

و كان يقال الحب أوله خيل و آخره قتل . و قال أبو علي الدقاق في معنى

قول النبي ص حبك الشيء يعمي و يصم قال يعمي و يصم عن الغير إعراضا و عن المحبوب هيبه ثم أنشد

إذا ما بدا لي تعاضمته
فأصدر في حال من لم يره

وقال الجنيد سمعت الحارث المحاسبي يقول المحبة إقبالك على المحبوب بكليتك ثم إيثارك له على نفسك و مالك و ولدك
ثم موافقتك له في جميع الأمور سرا و جهرا ثم اعتقادك بعد ذلك أنك مقصر في محبته . و قال الجنيد سمعت السري يقول
لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر يا أنا . و قال الشبلي المحب إذا سكت هلك و العارف إذا لم يسكت هلك .
و قيل المحبة نار في القلب تحرق ما سوى ود المحبوب . و قيل المحبة بذل الجهد و الحبيب يفعل ما يشاء . و قال الثوري
المحبة هتك الأستار و كشف الأسرار .

[79]

حبس الشبلي في المارستان بين المجانين فدخل عليه جماعة فقال من أنتم قالوا محبوبك أيها الشيخ فأقبل يرميهم بالحجارة
ففرّوا فقال إذا ادعيتم محبتي فاصبروا على بلاني . كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البسطامي قد سكرت من كثرة ما
شربت من كأس محبته فكتب إليه أبو يزيد غيرك شرب بحور السموات و الأرض و ما روي بعد و لسانه خارج و يقول هل
من مزيد . و من شعرهم في هذا المعنى

عجبت لمن يقول ذكرت ربي
و هل أنسى فأذكر ما نسيت
شربت الحب كأسا بعد كأس
فما نفذ الشراب و لا رويت

و

يقال إن الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا و الآخرة ملأته من حبي و
قال أبو علي الدقاق إن في بعض الكتب المنزلة عدي أنا و حقتك لك محب فبحقي عليك كن لي محبا . و قال عبد الله بن
المبارك من أعطي قسطا من المحبة و لم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع . و قيل المحبة ما تمحو أثرك و تسلبك عن
وجودك . و قيل المحبة سكر لا يصحوا صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ثم إن السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف و
أنشد

فأكسر القوم دور كأس
و كان سكرى من المدير

و كان أبو علي الدقاق ينشد كثيرا

[80]

لي سكرتان و للندمان واحدة
شيء خصصت به من بينهم وحدي

و كان يحيى بن معاذ يقول مثقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب . و قال بعضهم من أراد أن يكون محبا فليكن كما حكي عن بعض الهند أنه أحب جارية فرحلت عن ذلك البلد فخرج الفتى في وداعها فدمعت إحدى عينيه دون الأخرى فغمض التي لم تدمع أربعاً و ثمانين سنة و لم يفتحها عقوبة لأنها لم تبك على فراق حبيبته . و أنشدوا في هذا المعنى

بكت عيني غداة البين دمعاً
و أخرى بالبكاء بخلت علينا
فعاقت التي بخلت علينا
بأن غمضتها يوم التقيا

و

قيل إن الله تعالى أوحى إلى داود ع إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي و حب غيري . و قيل المحبة إيثار المحبوب على النفس كامرأة العزيز لما أفرط بها الحب قالت **أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** و في الابتداء قالت **مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ** فوركت الذنب في الابتداء عليه و نادت في الانتهاء على نفسها بالخيانة و قال أبو سعيد الخراز رأيت النبي ص في المنام فقلت يا رسول الله اعذرني فإن محبة الله شغلتنني عن حبك فقال يا مبارك من أحب الله فقد أحبني .

[81]

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل قوله ع يصونون مصونه أي يكتمون من العلم الذي استحفظوه ما يجب أن يكتم و يفجرون عيونه يظهرون منه ما ينبغي إظهاره و ذلك أنه ليس ينبغي إظهار كل ما استودع العارف من الأسرار و أهل هذا الفن يزعمون أن قوما منهم عجزوا عن أن يحملوا بما حملوه فباحوا به فهلكوا منهم الحسين بن منصور الحلاج و لأبي الفتوح الجارودي المتأخر أتباع يعتقدون فيه مثل ذلك . و الولاية بفتح الواو المحبة و النصر و معنى يتواصلون بالولاية يتواصلون و هم أولياء و مثله و يتلاقون بالمحبة كما تقول خرجت بسلاحي أي خرجت و أنا متسلح فيكون موضع الجار و المجرور نصبا بالحال أو يكون المعنى أدق و أطف من هذا و هو أن يتواصلوا بالولاية أي بالقلوب لا بالأجسام كما تقول أنا أراك بقلبي و أزورك بخاطري و أواصلك بضميري . قوله و يتساقون بكأس روية أي بكأس المعرفة و الأتس بالله يأخذ بعضهم عن بعض العلوم و الأسرار فكأنهم شرب يتساقون بكأس من الخمر . قال و يصدرون برية يقال من أين ريتكم مفتوحة الرء أي من أين ترتوون الماء . قال لا تشوبهم الريبة أي لا تخالطهم الظنة و التهمة و لا تسرع فيهم الغيبة لأن أسرارهم مشغولة بالحق عن الخلق . قال على ذلك عقد خلقهم و أخلاقهم الضمير في عقد يرجع إلى الله تعالى أي على هذه الصفات و الطباع عقد الخالق تعالى خلقتهم و خلقهم أي هم متهينون لما صاروا إليه

كما قال ع إذا أرادك لأمر هياك له

[82]

قال ع كل ميسر لما خلق له . قال فعليه يتحابون و به يتواصلون أي ليس حبهم بعضهم بعضا إلا في الله و ليست مواصلتهم بعضهم بعضا إلا لله لا للهوى و لا لغرض من أغراض الدنيا أنشد منشد عند عمر قول طرفة

فلو لا ثلاث هن من عيشة الفتى
و جدك لم أحفل متى قام عودي
فمنهن سبقي العاذلات بشرية
كميت متى ما تعل بالماء تزيد
و كري إذا نادى المضاف محنبا
كسيد الغضا نيهته المتورد
و تقصير يوم الدجن و الدجن معجب
ببهكنة تحت الطراف المعمد

فقال عمر و أنا لو لا ثلاث هن من عيشة الفتى لم أحفل متى قام عودي حبي في الله و بغضي في الله و جهادي في سبيل الله . قوله ع فكانوا كتفاضل البذر أي مثلهم مثل الحب الذي ينتفي للبذر يستصلح بعضه و يسقط بعضه . قد ميزه التخليص قد فرق الانتقاء بين جيدة و رديئة و هذبه التمحيص

قال النبي ص إن المرض ليمحص الخطايا كما تمحص النار الذهب أي كما تخلص النار الذهب مما يشوبه . ثم أمر ع المكلفين بقبول كرامة الله و نصحه و وعظه و تذكيره و بالحنز

[83]

من نزول القارعة بهم و هي هاهنا الموت و سميت الداهية قارعة لأنها تفرع أي تصيب بشدة . قوله فليصنع لمتحوله أي فليعد ما يجب إعداده للموضع الذي يتحول إليه تقول اصنع لنفسك أي اعمل لها . قوله و معارف منتقلة معارف الدار ما يعرفها المتوسم بها واحدا معرف مثل معاهد الدار و معالم الدار و منه معارف المرأة و هو ما يظهر منها كالوجه و اليدين و المنتقل بالفتح موضع الانتقال . قوله فطوبى هي فعلى من الطيب قلبوا البياء واوا للضمة قبلها و يقال طوبى لك و طوباك بالإضافة . و قول العامة طوبيك بالبياء غير جائز . قوله لذى قلب سليم هو من ألفاظ الكتاب العزيز أي سليم من الغل و الشك . قوله أطاع من يهديه أي قبل مشورة الناصح الأمر له بالمعروف و الناهي له عن المنكر . و تجنب من يرديه أي يهلكه بإغوانه و تحسين القبيح له . و الباء في قوله ببصر من بصره متعلقة بأصاب . قوله قبل أن تغلق أبوابه أي قبل أن يحضره الموت فلا تقبل توبته . و الحوية الإثم و إماطته إزالته و يجوز أمطت الأذى عنه و مطت الأذى عنه أي نحيته و منع الأصمعي منه إلا بالهمزة

[84]

208 و من دعاء كان يدعو به ع كثيرا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُصْبِحْ بِى مَيْتًا وَ لَآ سَقِيمًا وَ لَآ مَضْرُوبًا عَلَى عُرُوقِي بِسُوءٍ وَ لَآ مَأْخُودًا بِأَسْوَأِ عَمَلِي وَ لَآ مَقْطُوعًا دَابِرِي وَ لَآ مُرْتَدًّا عَنِ دِينِي وَ لَآ مُنْكَرًا لِرَبِّي وَ لَآ مُسْتَوْحِشًا مِنْ إِيْمَانِي وَ لَآ مُلْتَبِسًا عَقْلِي وَ لَآ مُعَذَّبًا بِعَذَابِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِي أَصْبَحْتُ عَبْدًا مَمْلُوكًا ظَالِمًا لِنَفْسِي لَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ وَ لَآ حُجَّةَ لِي وَ لَآ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَخْذُ إِلَّا مَا أَعْطَيْتَنِي وَ لَآ أَتَّقِي إِلَّا مَا وَقَيْتَنِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَفْتَقَرَ فِي غِنَاكَ أَوْ أَضِلَّ فِي هُدَاكَ أَوْ أَضَامَ فِي سُلْطَانِكَ أَوْ أُضْطَهَدَ وَ الْأَمْرُ لَكَ اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَرِعُهَا مِنْ كِرَامِي وَ أَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْتَجِعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نِعَمِكَ عِنْدِي اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَذْهَبَ عَنْ قَوْلِكَ أَوْ أَنْ نُفْتَنَنَّ عَنْ دِينِكَ أَوْ تَتَابَعُ تَتَابَعُ بِنَا أَهْوَاؤُنَا دُونَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِكَ

[85]

قوله كثيرا منصوب بأنه صفة مصدر محذوف أي دعاء كثيرا و ميتا منصوب على الحال أي لم يفلق الصباح على ميتا و لا يجوز أن تكون يصبح ناقصة و يكون ميتا خبرها كما قال الراوندي لأن خبر كان و أخواتها يجب أن يكون هو الاسم أ لا ترى أنهما مبتدأ و خبر في الأصل و اسم يصبح ضمير الله تعالى و ميتا ليس هو الله سبحانه . قوله و لا مضروبا على عروقي بسوء أي و لا أبرص و العرب تكني عن البرص بالسوء و من أمثالهم ما أنكرك من سوء أي ليس إنكاري لك عن برص حدث بك فغير صورتك . و أراد بعروقه أعضائه و يجوز أن يريد و لا مطعونا في نسبي و التفسير الأول أظهر . و لا مأخوذا بأسوأ عملي أي و لا معاقبا بأفحش ذنوبي . و لا مقطوعا دابري أي عقبي و نسلي و الدابر في الأصل التابع لأنه يأتي دبرا و يقال للهالك قد قطع الله دابره كأنه يراد أنه عفا أثره و محا اسمه قال سبحانه **أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ** . و لا مستوحشا أي و لا شاكا في الإيمان لأن من شك في عقيدة استوحش منها . و لا متلبسا عقلي أي و لا مختلطا عقلي لبست عليهم الأمر بالفتح أي خلطته و عذاب الأمم من قبل المسخ و الزلزلة و الظلمة و نحو ذلك .

[86]

قوله لك الحجة علي و لا حجة لي لأن الله سبحانه قد كلفه بعد تمكينه و إقداره و إعلامه قبح القبيح و وجوب الواجب و ترديد دواعيه إلى الفعل و تركه و هذه حجة الله تعالى على عباده و لا حجة للعباد عليه لأنه ما كلفهم إلا بما يطيقونه و لا كان لهم لطف في أمر إلا و فعله . قوله لا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني و لا أتقي إلا ما وقيتني أي لا أستطيع أن أرزق نفسي أمرا و لكنك الرزاق و لا أدفع عن نفسي محذورا من المرض و الموت إلا ما دفعته أنت عني . و قال الشاعر

لعمرك ما يدرى الفتى كيف يتقي

نوائب هذا الدهر أم كيف يحذر

يرى الشيء مما يتقى فيخافه

و ما لا يرى مما يقى الله أكثر

و قال عبد الله بن سليمان بن وهب

كفاية الله أجدى من توفينا
و عادة الله في الأعداء تكفينا
كاد الأعداء فما أبقوا و لا تركوا
عيبا و طعنا و تقبيحا و تهجينا
و لم نزد نحن في سر و في علن
على مقاتلنا الله يكفينا
و كان ذاك و رد الله حاسدنا
بغیظه لم ينل مأموله فينا

قوله ع أن أفتقر في غناك موضع الجار و المجرور نصب على الحال و في متعلقة بمحذوف و المعنى أن أفتقر و أنت الموصوف بالغنى الفائض على الخلق . و كذلك قوله أو أضل في هداك معناه أو أضل و أنت ذو الهداية العامة للبشر كافة و كذلك أو أضام في سلطانك كما يقول المستغيث إلى السلطان كيف أظلم في عدك .

[87]

و كذلك قوله أو أضطهد و الأمر لك أي و أنت الحاكم صاحب الأمر و الطاء في أضطهد هي تاء الافتعال و أصل الفعل ضهدت فلانا فهو مضهود أي قهرته و فلان ضهده لكل أحد أي كل من شاء أن يقهره فعل . قوله اللهم اجعل نفسي هذه الدعوة مثل دعوة رسول الله ص و هي

قوله اللهم متعنا بأسماعنا و أبصارنا و اجعله الوارث منا أي لا تجعل موتنا متأخرا عن ذهاب حواسنا و

كان علي بن الحسين يقول في دعائه اللهم احفظ علي سمعي و بصري إلى انتهاء أجلي . و فسروا قوله ع و اجعله الوارث منا فقالوا الضمير في و اجعله يرجع إلى الإمتاع . فإن قلت كيف يتقى الإمتاع بالسمع و البصر بعد خروج الروح . قلت هذا توسع في الكلام و المراد لا تبلنا بالعمى و لا الصمم فنكون أحياء في الصورة و لسنا بأحياء في المعنى لأن من فقدهما لا خير له في الحياة فحملته المبالغة على أن طلب بقاءهما بعد ذهاب النفس إيذانا و إشعارا بحبه ألا يبلى بفقدهما . و نفتتن على ما لم يسم فاعله نصاب بفتنة تضلنا عن الدين و روي نفتتن بفتح حرف المضارعة على نفتتن الرجل أي فتن و لا يجوز أن يكون الافتتان متعديا كما ذكره الراوندي و لكنه قرأ في الصحاح للجوهري و الفتون الافتتان يتعدى و لا يتعدى فظن أن ذلك للافتتان و ليس كما ظن و إنما ذلك راجع إلى الفتون . و التتابع التهافت في اللجاج و الشر و لا يكون إلا في مثل ذلك و روي أو تتابع بطرح إحدى التاءات

[88]

209 و من خطبة له ع خطبها بصفين

أَمَا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بَوْلَايَةِ أَمْرِكُمْ وَ لَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ وَ الْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ وَ أَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ لَا يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْهِ وَ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ إِلَّا جَرَى لَهُ وَ لَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَ لَا يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ دُونَ خَلْقِهِ لِقُدْرَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَ لِعَدْلِهِ فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْهِ صُرُوفُ قَضَائِهِ وَ لِكِنَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوهُ وَ جَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ مَضَاعِفَةَ الثَّوَابِ تَفَضُّلاً مِنْهُ وَ تَوْسَعاً بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُهُ الَّذِي لَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ هُوَ وَجُوبُ طَاعَتِهِ وَ الَّذِي لَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ هُوَ وَجُوبُ مَعْدَلَتِهِ فِيهِمْ وَ الْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ وَ أَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ مَعْنَاهُ أَنْ كُلُّ أَحَدٍ يَصِفُ الْحَقَّ وَ الْعَدْلَ وَ يَذْكُرُ حَسَنَهُ وَ وَجُوبَهُ وَ يَقُولُ لَوْ وُلِّيتُ لَعَدَلْتُ فَهُوَ بِالْوَصْفِ بِاللِّسَانِ وَسِيعٌ وَ بِالْفِعْلِ ضَيِّقٌ لِأَنَّ ذَلِكَ الْعَالَمَ الْعَظِيمَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَوَاصَفُونَ حَسَنَهُ وَ يَعْدُونَ أَنْ لَوْ وُلُوا بِاعْتِمَادِهِ وَ فَعَلَهُ لَا تَجِدُ فِي الْأَلْفِ مِنْهُمْ وَاحِدًا لَوْ وُلِيَ لَعَدَلَ وَ لَكِنَّهُ قَوْلٌ بِغَيْرِ عَمَلٍ .

[89]

ثم عاد إلى تقرير الكلام الأول و هو وجوب الحق له و عليه فقال إنه لا يجري لأحد إلا و جرى عليه و كذلك لا يجري عليه إلا و جرى له أي ليس و لا واحد من الموجودين بمرتفع عن أن يجري الحق عليه و لو كان أحد من الموجودين كذلك لكان أحقهم بذلك الباري سبحانه لأنه غاية الشرف بل هو فوق الشرف و فوق الكمال و التمام و هو مالك الكل و سيد الكل فلو كان لجواز هذه القضية وجه و لصحتها مساع لكان الباري تعالى أولى بها و هي ألا يستحق عليه شيء و تقدير الكلام لكنه يستحق عليه أمور فهو في هذا الباب كالواحد منا يستحق و يستحق عليه و لكنه ع حذف هذا الكلام المقدر أدبا و إجلالا لله تعالى أن يقول إنه يستحق عليه شيء . فإن قلت فما بال المتكلمين لا يتأدبون بأدبه ع و كيف يطلقون عليه تعالى الوجوب و الاستحقاق . قلت ليست وظيفة المتكلمين وظيفه أمير المؤمنين ع في عباراتهم هؤلاء أرباب صناعة و علم يحتاج إلى ألفاظ و اصطلاح لا بد لهم من استعماله للإفهام و الجدل بينهم و أمير المؤمنين إمام يخطب على منبره يخاطب عربا و رعية ليسوا من أهل النظر و لا مخاطبته لهم لتعليم هذا العلم بل لاستنفارهم إلى حرب عدوه فوجب عليه بمقتضى الأدب أن يتوقى كل لفظة توهم ما يستهجنه السامع في الأمور الإلهية و في غيرها . فإن قلت فما هذه الأمور التي زعمت أنها تستحق على الباري سبحانه و أن أمير المؤمنين ع حذفها من اللفظ و اللفظ يقتضيها . قلت الثواب و العوض و قبول التوبة و اللطف و الوفاء بالوعد و الوعيد و غير ذلك مما يذكره أهل العدل .

[90]

فإن قلت فما معنى قوله لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عبادته و لعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه و هب أن تعليل عدم استحقاق شيء على الله تعالى بقدرته على عبادته صحيح كيف يصح تعليل ذلك بعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه أ لا ترى أنه ليس بمستقيم أن تقول لا يستحق على الباري شيء لأنه عادل و إنما المستقيم أن تقول لا يستحق عليه شيء لأنه مالك و لذلك عللت الأشعرية هذا الحكم بأنه مالك الكل و الاستحقاق إنما يكون على من دونه . قلت التعليل صحيح و هو أيضا مما عللت به الأشعرية مذهبا و ذلك لأنه إنما يتصور الاستحقاق على الفاعل المختار إذا كان ممن يتوقع منه أو يصح منه أن يظلم فيمكن حينئذ أن يقال قد وجب عليه كذا و استحق عليه كذا فأما من

لا يمكن أن يظلم ولا يتصور وقوع الظلم منه ولا الكذب ولا خلف الوعد والوعد فلا معنى لإطلاق الوجوب والاستحقاق عليه كما لا يقال كذا الداعي الخالص يستحق عليه أن يفعل ما دعاه إليه الداعي ويجب عليه أن يفعل ما دعاه إليه الداعي مثل الهارب من الأسد والشديد العطش إذا وجد الماء ونحو ذلك . فإن قلت أليس يشعر قوله ع وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه بمذهب البغداديين من أصحابكم وهو قولهم إن الثواب تفضل من الله سبحانه وليس بواجب . قلت لا وذلك لأنه جعل المتفضل به هو مضاعفة الثواب لا أصل الثواب وليس ذلك بمستنكر عندنا . فإن قلت أيجوز عندكم أن يستحق المكلف عشرة أجزاء من الثواب فيعطى عشرين جزءاً منه أليس من مذهبكم أن التعظيم والتبجيل لا يجوز من البراء سبحانه أن يفعلهما

[91]

في الجنة إلا على قدر الاستحقاق والثواب عندكم هو النفع المقارن للتعظيم والتبجيل فيكيف قلت إن مضاعفة الثواب عندنا جائزة . قلت مراده ع بمضاعفة الثواب هنا زيادة غير مستحقة من النعيم واللذة الجسمانية خاصة في الجنة فسمى تلك اللذة الجسمانية ثواباً لأنها جزء من الثواب فأما اللذة العقلية فلا يجوز مضاعفتها . قوله ع بما هو من المزيد أهله أي بما هو أهله من المزيد فقدم الجار والمجرور وموضعه نصب على الحال وفيه دلالة على أن حال المجرور تتقدم عليه كما قال الشاعر

لئن كان برد الماء حران صاديا

إلي حبيبا إنها لحبيب

ثُمَّ جَعَلَ سُبْحَانَهُ مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً افْتَرَضَهَا لِبَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ فَجَعَلَهَا تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا وَ يُوجِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً وَ لَا يُسْتَوْجَبُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ . وَ أَعْظَمُ مَا افْتَرَضَ سُبْحَانَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُقُوقِ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ وَ حَقُّ الرَّعِيَّةِ عَلَى الْوَالِي فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ عَلَى كُلِّ فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأَلْفَتِهِمْ وَ عِزّاً لِدِينِهِمْ فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِصَلَاحِ الْوَلَاةِ وَ لَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ إِلَّا بِاسْتِقَامَةِ الرَّعِيَّةِ فَإِذَا آدَتِ الرَّعِيَّةُ إِلَى الْوَالِي حَقَّهُ وَ آدَى الْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ الْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَ قَامَتْ مَنَاهِجُ الدِّينِ وَ اعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ الْعَدْلِ وَ جَرَتْ عَلَى أَدْلَالِهَا السُّنُنُ فَصَلَحَ بِذَلِكَ الزَّمَانُ وَ طُمِعَ فِي بَقَاءِ الدَّوْلَةِ وَ بَيَسَّتْ مَطَامِعُ الْأَعْدَاءِ .

[92]

وَ إِذَا غَلَبَتِ الرَّعِيَّةُ وَالْيَهَا أَوْ أَجْحَفَ الْوَالِي بِرَعِيَّتِهِ اخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ الْكَلِمَةُ وَ ظَهَرَتْ مَعَالِمُ الْجَوْرِ وَ كَثُرَ الْإِدْعَالُ فِي الدِّينِ وَ تَرَكَتْ مَحَاجُّ السُّنَنِ فَعَمِلَ بِالْهَوَى وَ عَطَلَتْ الْأَحْكَامَ وَ كَثُرَتْ عِلَلُ النُّفُوسِ فَلَا يُسْتَوْحَشُ لِعَظِيمِ حَقِّ عَطَلٍ وَ لَا لِعَظِيمِ بَاطِلٍ فَعِلَ فَهُنَالِكَ تَدُلُّ الْأَبْرَارُ وَ تَعَزُّ الْأَشْرَارُ وَ تَعْظُمُ تَبِعَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ الْعِبَادِ . فَعَلَيْكُمْ بِالتَّنَاصُحِ فِي ذَلِكَ وَ حُسْنِ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ فَلَيْسَ أَحَدٌ وَ إِنْ اِسْتَدَّ عَلَى رِضَا اللَّهِ جِرْصُهُ وَ طَالَ فِي الْعَمَلِ اجْتِهَادُهُ بِبَالِغِ حَقِيقَةِ مَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَهْلُهُ مِنَ الطَّاعَةِ لَهُ وَ لَكِنْ مِنْ وَاجِبِ حُقُوقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ النَّصِيحَةُ بِمَبْلَغِ جُهْدِهِمْ وَ التَّعَاوُنُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَقِّ بَيْنَهُمْ وَ لَيْسَ امْرُؤٌ وَ إِنْ عَظُمَتْ فِي الْحَقِّ مَنْزِلَتُهُ وَ تَقَدَّمَتْ فِي الدِّينِ فَضِيلَتُهُ بِفَوْقِ أَنْ يُعَانَ عَلَى مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ وَ لَا امْرُؤٌ وَ إِنْ صَغُرَتْهُ النُّفُوسُ وَ افْتَحَمَتْهُ الْعُيُونُ بِدُونِ أَنْ يُعِينَ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُعَانَ عَلَيْهِ تَتَكَافَأُ فِي وُجُوهِهَا تَتَسَاوَى وَ هِيَ حَقُّ الْوَالِي عَلَى الرَّعِيَّةِ

و حق الرعية على الوالي . و فريضة قد روي بالنصب و بالرفع فمن رفع فخير مبتدأ محذوف و من نصب فبإضمار فعل أو على الحال . و جرت على أذلالها السنن بفتح الهمزة أي على مجاريها و طرقها . و أجحف الوالي برعيته ظلمهم . و الإدغال في الدين الفساد .

[93]

و محاج السنن جمع محجة و هي جادة الطريق . قوله و كثرت علل النفوس أي تغلبها بالباطل و من كلام الحجاج إياكم و علل النفوس فإنها أدوى لكم من علل الأجساد . و اقتحمته العيون احتقرته و ازدرته قال ابن دريد

و منه ما تقتحم العين فإن

ذقت جناه ساغ عذبا في اللها

و مثل قوله ع و ليس امرؤ و إن عظمت في الحق منزلته قول زيد بن علي ع لهشام بن عبد الملك إنه ليس أحد و إن عظمت منزلته بفوق أن يذكر بالله و يحذر من سطوته و ليس أحد و إن صغر بدون أن يذكر بالله و يخوف من نعمته . و مثل قوله ع و إذا غلبت الرعية واليها قول الحكماء إذا علا صوت بعض الرعية على الملك فالملك مخلوع فإن قال نعم فقال أحد من الرعية لا فالملك مقتول

فصل فيما ورد من الآثار فيما يصلح الملك

وقد جاء في وجوب الطاعة لأولي الأمر الكثير الواسع قال الله سبحانه **أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ** و

روى عبد الله بن عمر عن رسول الله ص السمع و الطاعة على المرء

[94]

المسلم فيما أحب و كره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بها فلا سمع و لا طاعة و

عنه ص إن أمر عليكم عبد أسود مجدع فاسمعوا له و أطيعوا و

من كلام علي ع إن الله جعل الطاعة غنيمة الأكياس عند تفريط الفجرة . بعث سعد بن أبي وقاص جرير بن عبد الله البجلي من العراق إلى عمر بن الخطاب بالمدينة فقال له عمر كيف تركت الناس قال تركتهم كقذاح الجعبة منها الأعصل الطائش و

منها القانم الرانث قال فكيف سعد لهم قال هو ثقافها الذي يقيم أودها و يغمز عصلها قال فكيف طاعتهم قال يصلون

الصلاة لأوقاتها و يؤدون الطاعة إلى ولاتها قال الله أكبر إذا أقيمت الصلاة أديت الزكاة و إذا كانت الطاعة كانت الجماعة .

و من كلام أبرويز الملك أطع من فوقك يطعك من دونك . و من كلام الحكماء قلوب الرعية خزائن واليها فما أودعه فيها وجده . و كان يقال صنفان متباغضان متنافيان السلطان و الرعية و هما مع ذلك متلازمان إن أصلح أحدهما صلح الآخر و

إن فسد فسد الآخر . و كان يقال محل الملك من رعيته محل الروح من الجسد و محل الرعية منه محل الجسد من الروح

فالروح تألم بألم كل عضو من أعضاء البدن و ليس كل واحد من الأعضاء يألم بألم غيره و فساد الروح فساد جميع البدن

و قد يفسد بعض البدن و غيره من سائر البدن صحيح .

[95]

و كان يقال ظلم الرعية استجلاب البلية . و كان يقال العجب ممن استفسد رعيته و هو يعلم أن عزه بطاعتهم . و كان يقال

موت الملك الجائر خصب شامل . و كان يقال لا قحط أشد من جور السلطان . و كان يقال قد تعامل الرعية المشمزة

بالرفق فنزول أحقادها و يذل قيادها و قد تعامل بالخرق فتكاشف بما غيبت و تقدم على ما عيبت حتى يعود نفاقها شقاقا و

رذاذها سيلا بعاقا ثم إن غلبت و قهرت فهو الدمار و إن غلبت و قهرت لم يكن يغلبها افتخار و لم يدرك بقهرها ثأر و كان

يقال الرعية و إن كانت ثمارا مجتناه و ذخائر مقتناه و سيوفا منتضاه و أحراسا مرتضاه فإن لها نفارا كنفار الوحوش و

طغيانا كطغيان السيول و متى قدرت أن تقول قدرت على أن تصول . و كان يقال أيدي الرعية تبع أسنتها فلن يملك الملك

أسنتها حتى يملك جسومها و لن يملك جسومها حتى يملك قلوبها فتحبه و لن تحبه حتى يعدل عليها في أحكامه عدلا

يتساوى فيه الخاصة و العامة و حتى يخفف عنها المؤن و الكلف و حتى يعفيها من رفع أوضاعها و أرذلها عليها و هذه

الثالثة تحقد على الملك العلية من الرعية و تطمع السفلة في الرتب السنية . و كان يقال الرعية ثلاثة أصناف صنف فضلاء

مرتاضون بحكم الرئاسة و السياسة يعلمون فضيلة الملك و عظيم غنائه و يرثون له من ثقل أعبائه فهؤلاء يحصل الملك

موداتهم بالبشر عند اللقاء و يلقي أحاديثهم بحسن الإصغاء و صنف فيهم خير و شر ظاهران فصلاحهم يكتسب من معاملتهم بالترغيب و الترهيب و صنف من السفلة الرعاع أتباع

[96]

لكل داع لا يمتحنون في أقوالهم و أعمالهم بنقد و لا يرجعون في الموالاتة إلى عقد . و كان يقال ترك المعاقبة للسفلة على صغار الجرائم تدعوهم إلى ارتكاب الكبائر العظام ألا ترى أول نشور المرأة كلمة سومحت بها و أول حران الدابة حيدة سوعدت عليها . و يقال إن عثمان قال يوما لجلسائه و هو محصور في الفتنة وددت أن رجلا صدوقا أخبرني عن نفسي و عن هؤلاء فقام إليه فتى فقال إني أخبرك تطاطأت لهم فركبوك و ما جراهم على ظلمك إلا إفراط حلمك قال صدقت فهل تعلم ما يشب نيران الفتنة قال نعم سألت عن ذلك شيئا من تنوخ كان باقعة قد نقب في الأرض و علم علما جما فقال الفتنة يثيرها أمران أثره تضغن على الملك الخاصة و حلم يجزئ عليه العامة قال فهل سألته عما يخدمها قال نعم زعم أن الذي يخدمها في ابتدائها استقالة العثرة و تعميم الخاصة بالأثرة فإذا استحكمت الفتنة أخدمها الصبر قال عثمان صدقت و إني لصابر حتى يحكم الله بيننا و هو خير الحاكمين و يقال إن يزيدجرد بن بهرام سأل حكيما ما صلاح الملك قال الرفق بالرعية و أخذ الحق منها بغير عنف و التودد إليها بالعدل و أمن السبل و إنصاف المظلوم قال فما صلاح الملك قال وزراؤه إذا صلحوا صلح قال فما الذي يثير الفتنة قال ضغان يظهرها جرأة عامه و استخفاف خاصة و انبساط الألسن بضمائر القلوب و إشفاق موسر و أمن معسر و غفلة مرزوق و يقظة محروم قال و ما يسكنها قال أخذ العدة لما يخاف و إثارة الجد حين يلتذ الهزل و العمل بالحزم و ادراع الصبر و الرضا بالقضاء . و كان يقال خير الملوك من أشرب قلوب رعيته محبته كما أشعرها هيبته و لن ينال ذلك منها حتى تظفر منه بخمسة أشياء إكرام شريفها و رحمة ضعيفها و إغاثة لهيفها

[97]

و كف عدوان عدوها و تأمين سبل رواحها و غدوها فمتى أعدمها شيئا من ذلك فقد أحقدتها بقدر ما أفقدتها . و كان يقال الأسباب التي تجر الهلك إلى الملك ثلاثة أحدها من جهة الملك و هو أن تتأمر شهواته على عقله فتستهويه نشوات الشهوات فلا تسنح له لذة إلا اقتنصها و لا راحة إلا افترصها . و الثاني من جهة الوزراء و هو تحاسدهم المقتضي تعارض الآراء فلا يسبق أحدهم إلى حق إلا كويد و عورض و عوند . و الثالث من جهة الجند المؤهلين لحراسة الملك و الدين و توهين المعاندين و هو نكولهم عن الجلاذ و تضجيعهم في المناصحة و الجهاد و هم صنفان صنف وسع الملك عليهم فأبطرهم الإتراف و ضنوا بنفوسهم عن التعريض للإتلاف و صنف قدر عليهم الأرزاق فاضطغنوا الأحقاد و استشعروا النفاق

الآثار الواردة في العدل و الإنصاف

قوله ع أو أجحف الوالي برعيته قد جاء من نظائره الكثير جدا و قد ذكرنا فيما تقدم نكتا حسنة في مدح العدل و الإنصاف و ذم الظلم و الإجحاف و

قال النبي ص زين الله السماء بثلاثة الشمس و القمر و الكواكب و زين الأرض بثلاثة العلماء و المطر و السلطان العادل . و كان يقال إذا لم يعمر الملك ملكه بإنصاف الرعية خرب ملكه بعصيان الرعية . و قيل لأنوشروان أي الجنن أوقى قال الدين قيل فأبي العدد أقوى قال العدل .

[98]

وقع جعفر بن يحيى إلى عامل من عماله كثر شاكوك و قل حامدوك فإما عدلت و إما اعتزلت . وجد في خزانة بعض الأكاسرة سبط ففتح فوجد فيه حب الرمان كل حبة كالنواة الكبيرة من نوى المشمش و في السبط رقعة فيها هذا حب رمان عملنا في خراجه بالعدل . جاء رجل من مصر إلى عمر بن الخطاب متظلما فقال يا أمير المؤمنين هذا مكان العائذ بك قال له عدت بمعاذ ما شأنك قال سابقت ولد عمرو بن العاص بمصر فسبقت فاجعل يعفني بسوطه و يقول أنا ابن الأكرمين و بلغ أباه ذلك فحبسني خشية أن أقدم عليك فكتب إلى عمرو إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت و ابنك فلما قدم عمرو و ابنه دفع الدرّة إلى المصري و قال اضربه كما ضربك فجعل يضربه و عمر يقول اضرب ابن الأمير اضرب ابن الأمير يرددها حتى قال يا أمير المؤمنين قد استقدت منه فقال و أشار إلى عمرو وضعها على صلته فقال المصري يا أمير المؤمنين إنما أضرب من ضربني فقال إنما ضربك بقوة أبيه و سلطانه فاضربه إن شئت فو الله لو فعلت لما منعك أحد منه حتى تكون أنت الذي تتبرع بالكف عنه ثم قال يا ابن العاص متى تعبدتم الناس و قد ولدتهم أمهاتهم أحرار . خطب الإسكندر جنده فقال لهم بالرومية كلاما تفسيره يا عباد الله إنما إلهكم الله الذي في السماء الذي نصرنا بعد حين الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة و إليه مفزعكم عند الكرب و الله لا يبلغني إن الله أحب شيئا إلا أحببته و عملت به إلى يوم أجلي و لا يبلغني أنه أبغض شيئا إلا أبغضته و هجرته إلى يوم أجلي و قد أنبت أن الله يحب العدل في عبادته و يبغض الجور فويل للظالم من سوطي و سيفي و من ظهر منه

[99]

العدل من عمالي فليتكى في مجلسي كيف شاء و ليتمن على ما شاء فلن تخطنه أمنيته و الله المجازي كلا بعمله . قال رجل لسليمان بن عبد الملك و هو جالس للمظالم يا أمير المؤمنين أ لم تسمع قول الله تعالى **فَأَذِّنْ مُؤَدِّنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** قال ما خطبك قال وكيك اغتصبني ضيعتي و ضمها إلى ضيعتك الفلانية قال فإن ضيعتي لك و ضيعتك مردودة إليك ثم كتب إلى الوكيل بذلك و بصرفه عن عمله . و رقى إلى كسرى قباذ أن في بطانة الملك قوما قد فسدت نياتهم و خبثت ضمائرهم لأن أحكام الملك جرت على بعضهم لبعضهم فوقع في الجواب أنا أملك الأجساد لا النيات و أحكم بالعدل لا بالهوى و أفحص عن الأعمال لا عن السرائر . و تظلم أهل الكوفة إلى المأمون من واليهم فقال ما علمت في عمالي أعدل و لا أقوم بأمر الرعية و لا أعود بالرفق منه فقال له منهم واحد فلا أحد أولى منك يا أمير المؤمنين بالعدل و الإنصاف و

إذا كان بهذه الصفة فمن عدل أمير المؤمنين أن يوليه بلدا بلدا حتى يلحق أهل كل بلد من عدله مثل ما لحقنا منه و يأخذوا بقسطهم منه كما أخذ منه سواهم و إذا فعل أمير المؤمنين ذلك لم يصب الكوفة منه أكثر من ثلاث سنين فضحك و عزله .
كتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز أما بعد فإن قبلنا قوما لا يودون الخراج إلا أن يمسه من العذاب فاكتب إلى أمير المؤمنين برأيك فكتب أما بعد فالعجب لك كل العجب تكتب إلي تستأذني في عذاب البشر كأن إذني لك جنة من عذاب الله أو كان رضاي ينجيك من سخط الله فمن أعطاك ما عليه عفوا

[100]

فخذ منه و من أبي فاستحلفه و كله إلى الله فلأن يلقوا الله بجرانهم أحب إلي من أن ألقاه بعذابهم . فضيل بن عياض ما ينبغي أن تتكلم بفيك كله أ تدري من كان يتكلم بفيه كله عمر بن الخطاب كان يعدل في رعيته و يجور على نفسه و يطعمهم الطيب و يأكل الغليظ و يكسوهم اللين و يلبس الخشن و يعطيهم الحق و يزيدهم و يمنع ولده و أهله أعطى رجلا عطاءه أربعة آلاف درهم ثم زاده ألفا فقبل له أ لا تزيد ابنك عبد الله كما تزيد هذا فقال إن هذا ثبت أبوه يوم أحد و إن عبد الله فر أبوه و لم يثبت . و كان يقال لا يكون العمران إلا حيث يعدل السلطان . و كان يقال العدل حصن و ثيق في رأس نيق لا يحطمه سيل و لا يهدمه منجنيق . وقع المأمون إلى عامل كثر التظلم منه أنصف من وليت أمرهم و إلا أنصفهم منك من ولي أمرك . بعض السلف العدل ميزان الله و الجور مكيال الشيطان

[101]

فَأَجَابَهُ عَ رَجُلٍ مِّنْ أَصْحَابِهِ بِكَلَامٍ طَوِيلٍ يَكْتُمُ فِيهِ الشُّنَاءَ عَلَيْهِ وَ يَذْكَرُ سَمْعَهُ وَ طَاعَتَهُ لَهُ فَقَالَ عَ إِنَّ مِّنْ حَقٍّ مِّنْ عَظْمِ جَلَالِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِهِ وَ جَلٍّ مَوْضِعُهُ مِّنْ قَلْبِهِ أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعَظْمِ ذَلِكَ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَ إِنَّ أَحَقَّ مِّنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ لَطَفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمِ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا إِزْدَادَ حَقِّ اللَّهِ عَلَيْهِ عِظْمًا وَ إِنَّ مِّنْ أَسْخَفِ حَالَاتٍ أَوْلَاةٍ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ وَ يُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبَرِ وَ قَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالٍ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْأِطْرَاءَ وَ اسْتِمَاعَ الشُّنَاءِ وَ لَسْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ كَذَلِكَ وَ لَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ إِحْطَاطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعُظْمَةِ وَ الْكِبَرِيَاءِ وَ رَبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الشُّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ فَلَا تُشْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ شُنَاءٍ لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ إِلَيْكُمْ مِنَ النَّفِيَّةِ الْبَقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أُفْرَغْ مِنْ أَدَائِهَا وَ فَرَائِضٍ لَا بَدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا فَلَا تَكْلُمُونِي بِمَا تَكْلَمُ بِهِ الْأَجْبَابِرَةُ وَ لَا تَتَحَفَّظُوا بِمَا يَتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ وَ لَا تَخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ وَ لَا تَتَّظُّنُوا بِي اسْتِثْقَالًا فِي حَقِّ قِيلِ لِي وَ لَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي فَإِنَّهُ مِّنْ اسْتِثْقَالِ الْحَقِّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلِ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْأَعْمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ

[102]

فَلَا تَكْفُوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقِّ أَوْ مَشُورَةٍ بَعْدَ قَائِي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقِ أَنْ أَخْطِئَ وَ لَا أَمَنْ ذَلِكَ مِّنْ فِعْلِي إِلَّا أَنْ يَكْفِيَّ اللَّهُ مِّنْ نَفْسِي مَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي فَإِنَّمَا أَنَا وَ أَنْتُمْ عِبِيدٌ مَمْلُوكُونَ لِرَبِّ لَأَرْبَّ غَيْرُهُ يَمْلِكُ مِنَّا مَا لَا نَمْلِكُ مِنْ أَنْفُسِنَا وَ أَخْرَجْنَا مِمَّا كُنَّا فِيهِ إِلَى مَا صَلَحْنَا عَلَيْهِ فَأَبْدَلْنَا بَعْدَ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى وَ أَعْطَانَا الْبَصِيرَةَ بَعْدَ الْعَمَى هَذَا الْفَصْلُ وَ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَلْفَاظٌ غَرِيبَةٌ سَبِيلُهَا أَنْ تَشْرَحَ فِيهِ مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٌ سَبِيلُهَا أَنْ تَذَكَرَ وَ تَوْضِحَ وَ تَذَكَرَ نَظَائِرُهَا وَ مَا يَنَاسِبُهَا . فَمِنْهَا قَوْلُهُ عَ إِنْ مِّنْ حَقٍّ مِّنْ عَظْمِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ تَعْظُمَ عَلَيْهِ حُقُوقُ اللَّهِ تَعَالَى وَ أَنْ يَعْظُمَ جَلَالُ اللَّهِ تَعَالَى فِي نَفْسِهِ وَ مِّنْ حَقٍّ مِّنْ كَانَ كَذَلِكَ أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ كُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ . وَ هَذَا مَقَامٌ جَلِيلٌ مِّنْ مَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ وَ هُوَ اسْتِحْقَاقُ كُلِّ مَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى وَ ذَلِكَ أَنْ مِّنْ عَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَدْ عَرَفَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ بَلْ لَا نِسْبَةَ لَشَيْءٍ مِّنَ الْأَشْيَاءِ أَصْلًا إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَلَا يَظْهَرُ عِنْدَ الْعَارِفِ عَظْمَةٌ غَيْرَهُ الْبِتَّةِ كَمَا أَنْ مِّنْ شَاهِدِ الشَّمْسِ الْمَنِيرَةِ يَسْتَحْقِرُ ضَوْءَ الْقَمَرِ وَ السَّرَاجِ الْمَوْضُوعِ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ حَالِ مَشَاهِدَتِهِ جَرَمِ الشَّمْسِ بَلْ لَا تَظْهَرُ لَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ صُنُوبُورَةُ السَّرَاجِ وَ لَا تَنْطَبِعُ صُورَتُهَا فِي بَصَرِهِ . وَ مِنْهَا قَوْلُهُ عَ مِّنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوَلَاةِ أَنْ يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ وَ يُوضَعُ

[103]

أمرهم على الكبر

قال النبي ص لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر و

قال ص لو لا ثلاث مهلكات لصلح الناس شح مطاع و هوى متبع و إعجاب المرء بنفسه . و كان يقال ليس لمعجب رأي و لا لمتكبر صديق . و كان أبو مسلم صاحب الدولة يقول ما تاه إلا وضيع و لا فاخر إلا لقيط و لا تعصب إلا دخيل . و قال عمر لبعض ولده التمس الرفعة بالتواضع و الشرف بالدين و العفو من الله بالعفو عن الناس و إياك و الخيلاء فتضع من

نفسك و لا تحقرن أحدا لأنك لا تدري لعل من تزدرية عينك أقرب إلى الله وسيلة منك . و منها قوله ع قد كرهت أن تظنوا بي حب الإطراء و استماع الثناء قد

روي عن النبي ص أنه قال احتوا في وجوه المداحين التراب و قال عمر المدح هو الذبح . و كان يقال إذا سمعت الرجل يقول فيك من الخير ما ليس فيك فلا تأمن أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك . و يقال إن في بعض الكتب المنزلة القديمة عجا لمن قيل فيه الخير و ليس فيه كيف يفرح و لمن قيل فيه الشر و ليس فيه كيف يغضب و أعجب من ذلك من أحب نفسه على اليقين و أبغض الناس على الظن . و كان يقال لا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك . و قال رجل لعبد الملك إنني أريد أن أسر إليك يا أمير المؤمنين شيئا فقال لمن حوله

[104]

إذا شئتم فانهضوا فتقدم الرجل يريد الكلام فقال له عبد الملك قف لا تمدحني فإني أعلم بنفسك منك و لا تكذبني فإنه لا رأي لمكذوب و لا تغتب عندي أحدا فإني أكره الغيبة قال أفيأذن أمير المؤمنين في الانصراف قال إذا شئت . و ناظر المأمون محمد بن القاسم النوشجاني في مسألة كلامية فجعل النوشجاني يخضع في الكلام و يستخذي له فقال يا محمد أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجة لي عليك و قد ساءني منك ذلك و لو شئت أن أفسر الأمور بعزة الخلافة و هيبة الرئاسة لصدقت و إن كنت كاذبا و عدلت و إن كنت جانرا و صوبت و إن كنت مخطئا و لكني لا أقنع إلا بإقامة الحجة و إزالة الشبهة و إن أنقص الملوك عقلا و أسخفهم رأيا من رضي بقولهم صدق الأمير . و قال عبد الله بن المقفع في اليتيمة إياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حب المدح و التزكية و أن يعرف الناس ذلك منك فتكون ثلثة من التلم يقتحمون عليك منها و بابا يفتحتونك منه و غيبة يغتابونك بها و يسخرون منك لها و اعلم أن قابل المدح كمداح نفسه و أن المرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده فإن الراد له ممدوح و القابل له معيب . و قال معاوية لرجل من سيد قومك قال أنا قال لو كنت كذلك لم تقله . و قال الحسن ذم الرجل نفسه في العلانية مدح لها في السر . كان يقال من أظهر عيب نفسه فقد زكاه . و منها قوله ع لو كنت كذلك لتركته انحطاطا لله تعالى عن تناول ما هو أحق به من الكبرياء في الحديث المرفوع من تواضع لله رفعه الله و من تكبر خفضه الله .

[105]

و فيه أيضا العظمة إزاري و الكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته . و منها قوله ع فلا تكلموني بما تكلم به الجبارة و لا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة . أحسن ما سمعته في سلطان لا تخاف الرعية بادرته و لا يتلجلج المتحاكمون عنده مع سطوته و قوته لإيثاره العدل قول أبي تمام في محمد بن عبد الملك

وزير حق و والي شرطة و رحي

ديوان ملك و شيعي و محتسب

كالأرحبي المذكي سيره المرطى

و الوخد و الملح و التقريب و الخبب

عود تساجله أيامه فبها

من مسه و به من مسها جلب
ثبت الخطاب إذا اصطكت بمظلمة
في رحله ألسن الأقوام و الركب

[106]

لا المنطق اللغو يزكو في مقاومه
يوما و لا حجة الملهوف تستلب
كأنما هو في نادي قبيلته
لا القلب يهفو و لا الأحشاء تضطرب

و من هذا المعنى قول أبي الجهم العدوي في معاوية

نقلبه لنخبر حالتيه
فنخبر منهما كرما و لينا
نميل على جوانبه كأننا
إذا ملنا نميل على أبينا

و منها قوله ع لا تظنوا بي استتقال رفع الحق إلي فإنه من استتقل الحق أن يقال له كان العمل به عليه أثقل . هذا معنى لطيف و لم أسمع منه شيئا منثورا و لا منظوما . و منها قوله ع و لا تكفوا عن قول بحق أو مشورة بعدل . قد ورد في المشورة شيء كثير قال الله تعالى **وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** . و كان يقال إذا استشرت إنسانا صار عقله لك . و قال أعرابي ما غبنت قط حتى يغبن قومي قيل و كيف ذاك قال لا أفعل شيئا حتى أشاورهم . و كان يقال من أعطي الاستشارة لم يمنع الصواب و من أعطي الاستخارة لم يمنع الخيرة و من أعطي التوبة لم يمنع القبول و من أعطي الشكر لم يمنع المزيد . و في آداب ابن المقفع لا يقذفن في روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر منك للناس حاجتك إلى رأي غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة فإنك لا تريد الرأي للفخر

[107]

و لكن للانتفاع به و لو أنك أردته للذكر لكان أحسن الذكر عند العقلاء أن يقال إنه لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه . و منها أن يقال ما معنى قوله ع و ربما استحلّ الناس الثناء بعد البلاء إلى قوله لا بد من إمضانها فنقول إن معناه أن بعض من يكره الإطراء و الثناء قد يحب ذلك بعد البلاء و الاختبار كما قال مرداس بن أدية لزيد إنما الثناء بعد البلاء و إنما نثني بعد أن نبثلي فقال لو فرضنا أن ذلك سانغ و جائز و غير قبيح لم يجز لكم أن تثنوا علي في وجهي و لا جاز لي أن أسمع منكم لأنه قد بقيت علي بقية لم أفرغ من أدائها و فرائض لم أمضها بعد و لا بد لي من إمضانها و إذا لم يتم البلاء الذي قد فرضنا أن الثناء يحسن بعده لم يحسن الثناء . و معنى قوله لإخراجي نفسي إلى الله و إليكم أي لاعترافي بين يدي الله و بمحضر منكم أن علي حقوقا في إياتكم و رناستي عليكم لم أقم بها بعد و أرجو من الله القيام بها . و منها أن يقال ما معنى قوله فلا تخالطوني بالمصانعة فنقول إن معناه لا تصانعوني بالمدح و الإطراء عن عمل الحق كما

يصانع به كثير من الولاة الذين يستفزهم المدح و يستخفهم الإطراء و الثناء فيغمضون عن اعتماد كثير من الحق مكافأة لما صونعوا به من التقريظ و التزكية و النفاق . و منها قوله ع فإني لست بفوق أن أخطئ هذا اعتراف منه ع بعدم العصمة فإما أن يكون الكلام على ظاهره أو يكون قاله على سبيل هضم

[108]

النفس

كما قال رسول الله ص و لا أنا إلا أن يتداركني الله برحمته . و منها قوله ع أخرجنا مما كنا فيه فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى و أعطانا البصيرة بعد العمى ليس هذا إشارة إلى خاص نفسه ع لأنه لم يكن كافراً فأسلم و لكنه كلام يقوله و يشير به إلى القوم الذين يخاطبهم من أفاء الناس فيأتي بصيغة الجمع الداخلة فيها نفسه توسعا و يجوز أن يكون معناه لو لا أطفاف الله تعالى ببعثة محمد ص لكنت أنا و غيري على أصل مذهب الأسلاف من عبادة الأصنام كما قال تعالى لنبيه **وَ وَجَدَكَ ضَالًّا** **فَهْدَى** ليس معناه أنه كان كافراً بل معناه لو لا اصطفاه الله تعالى لك لكنت كواحد من قومك و معنى **وَ وَجَدَكَ ضَالًّا** أي و وجدك بعرضة للضلال فكأنه ضال بالقوة لا بالفعل

[109]

211 و من كلام له ع

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى فَرِيشٍ وَ مَنْ أَعَانَهُمْ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَ أَكْفَنُوا إِنَائِي وَ أَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي وَ قَالُوا أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَ فِي الْحَقِّ أَنْ تَمْنَعَهُ فَاصْبِرْ مَعْمُومًا أَوْ مُتْمَأَسِّفًا فَتَطْرَتْ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ وَ لَا ذَابٌّ وَ لَا مُسَاعِدٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَنِيَّةِ فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى وَ جَرَعْتُ رِيقِي عَلَى الشَّجَا وَ صَبَرْتُ مِنْ كَظْمِ الْعَظِيطِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلَقِمِ وَ أَلَمٍ لِلْقَلْبِ مِنْ وَخْزِ الشِّفَارِ قَالَ الرضِي رحمه الله و قد مضى هذا الكلام في أثناء خطبة متقدمة إلا أنني ذكرته هاهنا لاختلاف الروايتين العدوى طلبك إلى وال ليعديك على من ظلمك أي ينتقم لك منه يقال استعديت الأمير على فلان فأعداني أي استعنت به عليه فأعداني . و قطعوا رحمي و قطعوا قرابتي أي أجروني مجرى الأجانب و يجوز أن يريد أنهم عدوني كالأجنبي من رسول الله ص و يجوز أن يريد أنهم جعلوني كالأجنبي

[110]

منهم لا ينصرونه و لا يقومون بأمره . و أكفنوا إنائي قلبوه و كبوه و حذف الهمزة من أول الكلمة أفصح و أكثر و قد روي كذلك و يقال لمن قد أضيعت حقوقه قد أكفأ إناؤه تشبيها بإضاعة اللبن من الإناء . و قد اختلفت الرواية في قوله إلا أن في الحق أن تأخذه فرواها قوم بالنون و قوم بالتاء و قال الراوندي إنها في خط الرضي بالتاء و معنى ذلك أنك إن وليت أنت كانت ولايتك حقا و إن ولي غيرك كانت ولايته حقا على مذهب أهل الاجتهاد و من رواها بالنون فالمعنى ظاهر . و الرافد المعين و الذاب الناصر . و ضننت بهم بخلت بهم و أغضيت على كذا صبرت . و جرعت بالكسر و الشجا ما يعترض في الحلق . و الوخز الطعن الخفيف و روي من خز الشفار و الخز القطع و الشفار جمع شفرة و هي حد السيف و السكين و اعلم أن هذا الكلام قد نقل عن أمير المؤمنين ع ما يناسبه و يجري مجراه و لم يؤرخ الوقت الذي قاله فيه و لا الحال التي عناها به و أصحابنا يحملون ذلك على أنه ع قاله عقيب الشورى و بيعة عثمان فإنه ليس يرتاب أحد من أصحابنا على أنه تظلم و تألم حينئذ . و يكره أكثر أصحابنا حمل أمثال هذا الكلام على التألم من يوم السقيفة . و لقائل أن يقول لهم أ تقولون إن بيعة عثمان لم تكن صحيحة فيقولون لا فيقال

[111]

لهم فعلى ما ذا تحملون كلامه ع مع تعظيمكم له و تصديقكم لأقواله فيقولون نحمل ذلك على تألمه و تظلمه منهم إذا تركوا الأولى و الأفضل فيقال لهم فلا تكرر قول من يقول من الشيعة و غيرهم إن هذا الكلام و أمثاله صدر عنه عقيب السقيفة و حملوه على أنه تألم و تظلم من كونهم تركوا الأولى و الأفضل فإنكم لستم تنكرون أنه كان الأفضل و الأحق بالأمر بل تعترفون بذلك و تقولون ساغت إمامة غيره و صحت لمانع كان فيه ع و هو ما غلب على ظنون العاقدين للأمر من أن العرب لا تطيعه فإنه يخاف من فتنة عظيمة تحدث إن ولي الخلافة لأسباب يذكرونها و يعدونها و قد روى كثير من المحدثين أنه عقيب يوم السقيفة تألم و تظلم و استنجد و استصرخ حيث ساموه الحضور و البيعة و أنه قال و هو يشير إلى القبر يا **إِبْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي** و أنه قال و جعفره و لا جعفر لي اليوم و حمزته و لا حمزة لي اليوم . و قد ذكرنا من هذا المعنى جملة صالحة فيما تقدم و كل ذلك محمول عندنا على أنه طلب الأمر من جهة الفضل و القرابة و ليس ببدال عندنا على وجود النص لأنه لو كان هناك نص لكان أقل كلفة و أسهل طريقا و أيسر لما يريد تناولا

أن يقول يا هؤلاء إن العهد لم يطل و إن رسول الله ص أمركم بطاعتي و استخلفني عليكم بعده و لم يقع منه ع بعد ما علمتموه و نص ينسخ ذلك و لا يرفعه فما الموجب لتركي و العدول عني . فإن قالت الإمامية كان يخاف القتل لو ذكر ذلك فقيل لهم فهلا يخاف القتل و هو يعتل و يدفع لبيابح و هو يمتنع و يستصرخ تارة بقبر رسول الله ص

[112]

و تارة بعمه حمزة و أخيه جعفر و هما ميطان و تارة بالأنصار و تارة ببني عبد مناف و يجمع الجموع في داره و يبث الرسل و الدعاة ليلا و نهارا إلى الناس يذكرهم فضله و قرابته و يقول للمهاجرين خصتم الأنصار بكونكم أقرب إلى رسول الله ص و أنا أخصمكم بما خصتمت به الأنصار لأن القرابة إن كانت هي المعتبرة فأننا أقرب منكم . و هلا خاف من هذا الامتناع و من هذا الاحتجاج و من الخلو في داره بأصحابه و من تنفير الناس عن البيعة التي عقدت حينئذ لمن عقدت له . و كل هذا إذا تأمله المنصف علم أن الشيعة أصابت في أمر و أخطأت في أمر أما الأمر الذي أصابت فيه فقولها إنه امتنع و تلكأ و أراد الأمر لنفسه و أما الأمر الذي أخطأت فيه فقولها إنه كان منصوبا عليه ناصا جليا بالخلافة تعلمه الصحابة كلها أو أكثرها و أن ذلك النص خولف طلبا للرئاسة الدنيوية و إثارا للعاجلة و أن حال المخالفين للنص لا تعدو أحد أمرين إما الكفر أو الفسق فإن قرانن الأحوال و أماراتها لا تدل على ذلك و إنما تدل و تشهد بخلافه و هذا يقتضي أن أمير المؤمنين ع كان في مبدأ الأمر يظن أن العقد لغيره كان عن غير نظر في المصلحة و أنه لم يقصد به إلا صرف الأمر عنه و الاستئثار عليه فظهر منه ما ظهر من الامتناع و العقود في بيته إلى أن صح عنده و ثبت في نفسه أنهم أصابوا فيما فعلوه و أنهم لم يميلوا إلى هوى و لا أرادوا الدنيا و إنما فعلوا الأصلاح في ظنونهم لأنه رأى من بغض الناس له و انحرافهم عنه و ميلهم عليه و ثوران الأحقاد التي كانت في أنفسهم و احتدام النيران التي كانت في قلوبهم و تذكروا التراث التي و تراهم فيما قبل بها و الدماء التي سفكها منهم و أراقها .

[113]

و تعطل طائفة أخرى منهم للعدول عنه بصغر سنه و استهجانهم تقديم الشباب على الكهول و الشيوخ . و تعطل طائفة أخرى منهم بكراهية الجمع بين النبوة و الخلافة في بيت واحد فيجفخون على الناس كما قاله من قاله و استصعاب قوم منهم شكيمته و خوفهم تعديه و شدته و علمهم بأنه لا يداجي و لا يحابي و لا يراقب و لا يجامل في الدين و أن الخلافة تحتاج إلى من يجتهد برأيه و يعمل بموجب استصلاحه و انحراف قوم آخرين عنه للحسد الذي كان عندهم له في حياة رسول الله ص لشدة اختصاصه له و تعظيمه إياه و ما قال فيه فأكثر من النصوص الدالة على رفعة شأنه و علو مكانه و ما اختص به من مصاهرته و أخوته و نحو ذلك من أحواله معه و تنكر قوم آخرين له لنسبتهم إليه العجب و التيه كما زعموا و احتقاره العرب و استصغاره الناس كما عدوه عليه و إن كانوا عندنا كاذبين و لكنه قول قيل و أمر ذكر و حال نسبت إليه و أعانهم عليها ما كان يصدر عنه من أقوال توهم مثل هذا نحو قوله فإنا صنائع ربنا و الناس بعد صنائع لنا و ما صح به عنده أن الأمر لم يكن ليستقيم له يوما واحدا و لا ينتظم و لا يستمر و أنه لو ولي الأمر لفتقت العرب عليه فتقا يكون فيه استئصال شافة الإسلام و هدم أركانه فأذعن بالبيعة و جنح إلى الطاعة و أمسك عن طلب الإمرة و إن كان على مضض و رمض . و قد روي عنه ع أن فاطمة ع حرضته يوما على النهوض و الوثوب فسمع صوت المؤذن أشهد أن محمدا رسول الله فقال لها أيسرك زوال هذا النداء من الأرض قالت لا قال فإنه ما أقول لك .

و هذا المذهب هو أفصد المذاهب و أصحها و إليه يذهب أصحابنا المتأخرون من البغداديين و به يقول . و اعلم أن حال علي ع في هذا المعنى أشهر من أن يحتاج في الدلالة عليها إلى الإسهاب و الإطناب فقد رأيت انتقاض العرب عليه من أقطارها حين بويع بالخلافة بعد وفاة رسول الله ص بخمس و عشرين سنة و في دون هذه المدة تنسى الأحقاد و تموت التراث و تبرد الأكباد الحامية و تسلو القلوب الواجدة و يعدم قرن من الناس و يوجد قرن و لا يبقى من أرباب تلك الشحناء و البغضاء إلا الأقل فكانت حاله بعد هذه المدة الطويلة مع قريش كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه ص من إظهار ما في النفوس و هيجان ما في القلوب حتى أن الأخلاف من قريش و الأحداث و الفتيان الذين لم يشهدوا وقائعهم و فتكاته في أسلافهم و آباءهم فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله و تقاعست عن بلوغ شأوه فكيف كانت تكون حاله لو جلس على منبر الخلافة و سيفه بعد يقطر دما من مهج العرب لا سيما قريش الذين بهم كان ينبغي لو دهمه خطب أن يعتضد و عليهم كان يجب أن يعتمد إذن كانت تدرس أعلام الملة و تنعفي رسوم الشريعة و تعود الجاهلية الجهلاء على حالها و يفسد ما أصلحه رسول الله ص في ثلاث و عشرين سنة في شهر واحد فكان من عناية الله تعالى بهذا الدين أن ألهم الصحابة ما فعلوه و الله متم نوره و لو كره المشركون

فصل في أن جعفرا و حمزة لو كان حيين لبايعا عليا

و سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي يزيد رحمه الله قلت له أ تقول إن حمزة و جعفرا لو كانا حيين يوم مات رسول الله ص أ كانا يبايعانه بالخلافة فقال نعم كانا أسرع إلى بيعة من النار في يبس العرفج فقلت له أظن أن جعفرا كان يبايعه و يتابعه و ما أظن حمزة كذلك و أراه جبارا قوي النفس شديد الشكيمة ذاهبا بنفسه شجاعا بهمه و هو العم و الأعلى سنا و آثاره في الجهاد معروفة و أظنه كان يطلب الخلافة لنفسه . فقال الأمر في أخلاقه و سجايه كما ذكرت و لكنه كان صاحب دين متين و تصديق خالص لرسول الله ص و لو عاش لرأى من أحوال علي ع مع رسول الله ص ما يوجب أن يكسر له نخوته و أن يقيم له صعره و أن يقدمه على نفسه و أن يتوخى رضا الله و رضا رسوله فيه و إن كان بخلاف إيثاره . ثم قال أين خلق حمزة السبعي من خلق علي الروحاني اللطيف الذي جمع بينه و بين خلق حمزة فاتصفت بهما نفس واحدة و أين هيولانية نفس حمزة و خلوها من العلوم من نفس علي القدسية التي أدركت بالفطرة لا بالقوة التعليمية ما لم تدركه نفوس مدققي الفلاسفة الإلهيين لو أن حمزة حي حتى رأى من علي ما رآه غيره لكان أتبع له من ظله و أطوع له من أبي ذر و المقداد أما قولك هو و العم و الأعلى سنا فقد كان العباس العم و الأعلى سنا و قد عرفت ما بذله له و ندبه إليه و كان أبو سفيان كالععم و كان أعلى سنا و قد عرفت ما عرضه عليه ثم قال ما زالت الأعمام تخدم أبناء الإخوة و تكون أتباعا لهم أ لست ترى داود بن

[116]

علي و عبد الله بن علي و صالح بن علي و سليمان بن علي و عيسى بن علي و إسماعيل ابن علي و عبد الصمد بن علي خدموا ابن أخيهم و هو عبد الله السفاح بن محمد بن علي و بايعوه و تابعوه و كانوا أمراء جيوشه و أنصاره و أعوانه أ لست ترى حمزة و العباس اتبعا ابن أخيهما صلوات الله عليه و أطاعاه و رضيا برياسته و صدقا دعوته أ لست تعلم أن أبا طالب كان رئيس بني هاشم و شيخهم و المطاع فيهم و كان محمد رسول الله ص يتيمه و مكفوله و جاريا مجرى أحد أولاده عنده ثم خضع له و اعترف بصدقه و دان لأمره حتى مدحه بالشعر كما يمدح الأدنى الأعلى فقال فيه

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطيف به الهلاك من آل هاشم

فهم عنده في نعمة و فواضل

و إن سرا اختص به محمد ص حتى أقام أبا طالب و حاله معه حاله مقام المادح له لسر عظيم و خاصية شريفة و إن في هذا لمعتبر عبرة أن يكون هذا الإنسان الفقير الذي لا أنصار له و لا أعوان معه و لا يستطيع الدفاع عن نفسه فضلا عن أن يقهر غيره تعمل دعوته و أقواله في الأنفس ما تعمله الخمر في الأبدان المعتدلة المزاج حتى تطيعه أعمامه و يعظمه مربيه و كافلة و من هو إلى آخر عمره القيم بنفخته و غذاء بدنه و كسوة جسده حتى يمدحه بالشعر كما يمدح الشعراء الملوك و الرؤساء و هذا في باب المعجزات عند المنصف أعظم من انشقاق القمر و انقلاب العصا و من أبناء القوم بما

يأكلون و ما يدخرون في بيوتهم . ثم قال رحمه الله كيف قلت أظن أن جعفرا كان يبايعه و يتابعه و لا أظن في حمزة ذلك إن كنت قلت ذلك لأنه أخوه فإنه أعلى منه سنا هو أكبر من علي بعشر

[117]

سنين و قد كانت له خصائص و مناقب كثيرة و قال فيه النبي ص قولاً شريفاً اتفق عليه المحدثون قال له لما افتخر هو و علي و زيد بن حارثة و تحاكموا إلى رسول الله ص أشبهت خلقي و خلقي فخجل فرحا ثم قال لزيد أنت مولانا و صاحبنا فخجل أيضاً ثم قال لعلي أنت أخي و خالصتي قالوا فلم يخجل قالوا كان ترادف التعظيم له و تكرره عليه لم يجعل عنده للقول ذلك الموضع و كان غيره إذا عظم عظم نادراً فيحسن موقعه عنده و اختلف الناس في أي المدحتين أعظم . فقلت له قد وقفت لأبي حيان التوحيدي في كتاب البصائر على فصل عجيب يمازج ما نحن فيه قال في الجزء الخامس من هذا الكتاب سمعت قاضي القضاة أبا سعد بشر بن الحسين و ما رأيت رجلاً أقوى منه في الجدل في مناظرة جرت بينه و بين أبي عبد الله الطبري و قد جرى حديث جعفر بن أبي طالب و حديث إسلامه و التفاضل بينه و بين أخيه علي فقال القاضي أبو سعد إذا أنعم النظر علم أن إسلام جعفر كان بعد بلوغ و إسلام البالغ لا يكون إلا بعد استبصار و تبين و معرفة بقبح ما يخرج منه و حسن ما يدخل فيه و أن إسلام علي مختلف في حاله و ذلك أنه قد ظن أنه كان عن تلقين لا تبين إلى حين بلوغه و أوان تعقبه و نظره و قد علم أيضاً أنهما قتلا و أن قتلة جعفر شهادة بالإجمال و قتلة علي فيها أشد الاختلاف ثم خص الله جعفراً بأن قبضه إلى الجنة قبل ظهور التباين و اضطراب الحبل و كثرة الهرج و على أنه لو انعقد الإجماع و تظاهر جميع الناس على أن القتلين شهادة لكانت الحال في الذي رفع إليها جعفر أغلظ و أعظم و ذلك أنه قتل مقبلاً غير مدبر و أما علي فإنه اغتيل اغتيالاً و قصد من حيث لا يعلم و شتان ما بين من فوجئ بالموت و بين من عاين مخايل الموت

[118]

و تلقاه بالنحر و الصدر و عجل إلى الله بالإيمان و الصدق أ لا تعلم أن جعفراً قطعت يميناه فأمسك اللواء ببسراه و قطعت بسراه فضم اللواء إلى حشاه ثم قاتله ظاهر الشرك بالله و قاتل علي ممن صلى إلى القبلة و شهد الشهادة و أقدم عليه بتأويل و قاتل جعفر كافر بالنص الذي لا خلاف فيه أما تعلم أن جعفراً ذو الجناحين و ذو الهجرتين إلى الحبشة و المدينة . قال النقيب رحمه الله اعلم فذاك شيخك أن أبا حيان رجل ملحد زنديق يحب التلاعب بالدين و يخرج ما في نفسه فيعزوه إلى قوم لم يقولوه و أقسم بالله إن القاضي أبا سعد لم يقل من هذا الكلام لفظاً واحدة و لكنها من موضوعات أبي حيان و أكاذيبه و ترهاته كما يسند إلى القاضي أبي حامد المرورودي كل منكر و يروى عنه كل فاقرة . ثم قال يا أبا حيان مقصودك أن تجعلها مسألة خلاف تثير بها فتنة بين الطالبين لتجعل بأسهم بينهم و كيف تقلبت الأحوال فالفخر لهم لم يخرج عنهم . ثم ضحك رحمه الله حتى استلقى و مد رجليه و قال هذا كلام يستغنى عن الإطالة في إبطاله بإجماع المسلمين فإنه لا خلاف بين المسلمين في أن علياً أفضل من جعفر و إنما سرق أبو حيان هذا المعنى الذي أشار إليه من رسالة المنصور أبي جعفر إلى محمد بن عبد الله النفس الزكية قال له و كانت بنو أمية يلعنون أباك في أدبار الصلوات المكتوبات كما تلعن الكفرة فعنفناهم و كفرناهم و بينا فضله و أشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة و ظننت أنه لما ذكرناه من فضله

أنا قدمناه على حمزة و العباس و جعفر أولئك مضوا سالمين مسلمين منهم و ابتلي أبوك بالدماء . فقلت له رحمه الله و إذا لا إجماع في المسألة لأن المنصور لم يقل بتفضيله عليهم

[119]

و أنت ادعيت الإجماع فقال إن الإجماع قد سبق هذا القائل و كل قول قد سبقه الإجماع لا يعتد به . فلما خرجت من عند النقيب أبي جعفر بحثت في ذلك اليوم في هذا الموضوع مع أحمد بن جعفر الواسطي رحمه الله و كان ذا فضل و عقل و كان إمامي المذهب فقال لي صدق النقيب فيما قال أ لست تعلم أن أصحابكم المعتزلة على قولين أحدهما أن أكثر المسلمين ثوابا أبو بكر و الآخر أن أكثرهم ثوابا علي و أصحابنا يقولون إن أكثر المسلمين ثوابا علي و كذلك الزيدية و أما الأشعرية و الكرامية و أهل الحديث فيقولون أكثر المسلمين ثوابا أبو بكر فقد خلص من مجموع هذه الأقوال أن ثواب حمزة و جعفر دون ثواب علي ع أما على قول الإمامية و الزيدية و البغداديين كافة و كثير من البصريين من المعتزلة فالأمر ظاهر و أما الباقون فعندهم أن أكثر المسلمين ثوابا أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي و لم يذهب ذاهب إلى أن ثواب حمزة و جعفر أكثر من ثواب علي من جميع الفرق فقد ثبت الإجماع الذي ذكره النقيب إذا فسرنا الأفضلية بالأكثرية ثوابا و هو التفسير الذي يقع الحجاج و الجدال في إثباته لأحد الرجلين و أما إذا فسرنا الأفضلية بزيادة المناقب و الخصائص و كثرة النصوص الدالة على التعظيم فمعلوم أن أحدا من الناس لا يقارب عليا ع في ذلك لا جعفر و لا حمزة و لا غيرهما . ثم وقع بيدي بعد ذلك كتاب لشيخنا أبي جعفر الإسكافي ذكر فيه أن مذهب بشر بن المعتمر و أبي موسى و جعفر بن مبشر و سانر قدماء البغداديين أن أفضل المسلمين علي بن أبي طالب ثم ابنه الحسن ثم ابنه الحسين ثم حمزة بن عبد المطلب ثم جعفر بن أبي طالب ثم أبو بكر بن أبي قحافة ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان

[120]

قال و المراد بالأفضل أكرمهم عند الله أكثرهم ثوابا و أرفعهم في دار الجزاء منزلة . ثم وقفت بعد ذلك على كتاب لشيخنا أبي عبد الله البصري يذكر فيه هذه المقالة و ينسبها إلى البغداديين و قال إن الشيخ أبا القاسم البلخي كان يقول بها و قبله الشيخ أبو الحسين الخياط و هو شيخ المتأخرين من البغداديين قالوا كلهم بها فأجبتني هذا المذهب و سررت بأن ذهب الكثير من شيوخنا إليه و نظمته في الأرجوزة التي شرحت فيها عقيدة المعتزلة فقلت

و خير خلق الله بعد المصطفى

أعظمهم يوم الفخار شرفا

السيد المعظم الوصي

بعل البتول المرتضى علي

و ابنه ثم حمزة و جعفر

ثم عتيق بعدهم لا ينكر

المخلص الصديق ثم عمر

فاروق دين الله ذاك القصور

و بعده عثمان ذو النورين

هذا هو الحق بغير مين

[121]

212 و من كلام له ع في ذكر السائرين إلى البصرة لحربه ع

فَقَدِمُوا عَلَى عُمَالِي وَ خُرَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ وَ عَلَى أَهْلِ مِصْرٍ كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَ عَلَى بَيْعَتِي فَشَتَّتُوا
كَلِمَتَهُمْ وَ أَفْسَدُوا عَلَى جَمَاعَتِهِمْ وَ وَثَبُوا عَلَى شِيعَتِي فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْرًا وَ طَائِفَةً طَائِفَةً عَضُوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ
فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَفُوا اللَّهَ صَادِقِينَ عَضُوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ كِنَايَةَ عَنِ الصَّبْرِ فِي الْحَرْبِ وَ تَرَكَ الْإِسْتِسْلَامَ وَ هِيَ كِنَايَةُ فَصِيحَةٌ
شَبَّهَ قَبْضَهُمْ عَلَى السِّيُوفِ بِالْعَضِّ وَ قَدْ قَدِمْنَا ذَكَرَ مَا جَرَى وَ أَنَّ عَسْكَرَ الْجَمَلِ قَتَلُوا طَائِفَةً مِنْ شِيعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع
بِالْبَصْرَةِ بَعْدَ أَنْ أَمَنُوهُمْ غَدْرًا وَ أَنَّ بَعْضَ الشَّيْعَةِ صَبَرَ فِي الْحَرْبِ وَ لَمْ يَسْتَسَلِمْ وَ قَاتَلَ حَتَّى قَتَلَ مِثْلَ حَكِيمِ بْنِ جَبَلَةَ الْعَبْدِيِّ
وَ غَيْرِهِ وَ رَوَى وَ طَائِفَةٌ عَضُوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ بِالرَّفْعِ تَقْدِيرُهُ وَ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ . قَرَأْتُ فِي كِتَابِ غَرِيبِ الْحَدِيثِ لِأَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ قَتَيْبَةَ فِي حَدِيثِ حَذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ أَنَّهُ ذَكَرَ خُرُوجَ عَائِشَةَ فَقَالَ تَفَاتَلَ مَعَهَا مُضِرٌّ مَضَرُّهَا اللَّهُ فِي النَّارِ

[122]

وَ أَزْدَ عَمَانَ سَلَّتْ اللَّهُ أَقْدَامَهَا وَ أَنَّ قَيْسًا لَنْ تَنْفِكَ تَبْغِي دِينَ اللَّهِ شَرًّا حَتَّى يَرْكَبَهَا اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ فَلَا يَمْنَعُوا ذَنْبَ تَلْعَةٍ . قَالَتْ
هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ص لِأَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنِ غَيْبِ تَلْقَاهُ حَذِيفَةَ عَنِ النَّبِيِّ ص وَ حَذِيفَةَ أَجْمَعَ أَهْلَ السَّيْرَةِ عَلَى
أَنَّهُ مَاتَ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي قَتَلَ عَثْمَانَ فِيهَا أَتَاهُ نَعِيهِ وَ هُوَ مَرِيضٌ فَمَاتَ وَ عَلِيٌّ ع لَمْ يَتَّكَمَلْ بِبَيْعَةِ النَّاسِ وَ لَمْ يَدْرِكِ الْجَمَلَ . وَ
هَذَا الْحَدِيثُ يُؤَكِّدُ مَذْهَبَ أَصْحَابِنَا فِي فَسْقِ أَصْحَابِ الْجَمَلِ إِلَّا مَنْ ثَبَّتَتْ تَوْبَتَهُ مِنْهُمْ وَ هُمُ الثَّلَاثَةُ

[123]

213 و من كلام له ع لما مر بطلحة بن عبيد الله و عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد

و هما قتيلان يوم الجمل

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيباً أَمَا وَ اللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ فَرِيشَ قَتْلِي تَحْتَ بُطُونِ الْكَوَاكِبِ أَدْرَكْتُ وَثْرِي مِنْ
بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَ أَفْلَتَنِي أَعْيَارُ أَفْلَتَنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ جُمَحَ لَقَدْ أَنْتَلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرِ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فُوقِصُوا دُونَهُ

عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد

هو عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ليس بصحابي ولكنه من التابعين و أبوه عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس من مسلمة الفتح و لما خرج رسول الله ص من مكة إلى حنين استعمله عليها فلم يزل أميرها حتى قبض رسول الله ص و بقي على حاله خلافة أبي بكر الصديق و مات هو و أبو بكر في يوم واحد لم يعلم أحدهما بموت الآخر و عبد الرحمن هذا هو الذي قال أمير المؤمنين فيه و قد مر به قتيلا يوم الجمل لهفي عليك يعسوب قريش هذا فتى الفتیان هذا اللباب المحض من بني عبد مناف شفيت نفسي و قتلت معشري إلى الله أشكو عجري و بجري فقال له قائل لشد ما أطريت

[124]

الفتى يا أمير المؤمنين منذ اليوم قال إنه قام عني و عنه نسوة لم يقمن عنك و عبد الرحمن هذا هو الذي احتملت العقاب كفه يوم الجمل و فيها خاتمه فألقته باليمامة فعرفت بخاتمه و علم أهل اليمامة بالوقعة . و رأيت في شرح نهج البلاغة للقطب الراوندي في هذا الفصل عجائب و طرائف فأحببت أن أوردتها ها هنا منها أنه قال في تفسير قوله ع أدركت و ترى من بني عبد مناف قال يعني طلحة و الزبير كانا من بني عبد مناف و هذا غلط قبيح لأن طلحة من تيم بن مرة و الزبير من أسد بن عبد العزى بن قصي و ليس أحد منهما من بني عبد مناف و ولد عبد مناف أربعة هاشم و عبد شمس و نوفل و عبد المطلب فكل من لم يكن من ولد هؤلاء الأربعة فليس من ولد عبد مناف . و منها أنه قال إن مروان بن الحكم من بني جمح و لقد كان هذا الفقيه رحمه الله بعيدا عن معرفة الأنساب مروان من بني أمية بن عبد شمس و بنو جمح من بني هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب و اسم جمح تيم بن عمرو بن هصيص و أخوه سهم بن عمرو بن هصيص رهط عمرو بن العاص فأين هؤلاء و أين مروان بن الحكم . و منها أنه قال و أفلتنتي أغيار بني جمح بالغين المعجمة قال هو جمع غير الذي بمعنى سوى و هذا لم يرو و لا مثله مما يتكلم به أمير المؤمنين لركته و بعده عن طريقته فإنه يكون قد عدل عن أن يقول و لم يفلتنتي إلا بنو جمح إلى مثل هذه العبارة الركيكة المتعسفة

[125]

بنو جمح

و اعلم أنه ع أخرج هذا الكلام مخرج الذم لمن حضر الجمل مع عائشة زوجة النبي ص من بني جمح فقال و أفلتنتني أعيار بني جمح جمع عير و هو الحمار و قد كان معها منهم يوم الجمل جماعة هربوا و لم يقتل منهم إلا اثنان فممن هرب و نجا بنفسه عبد الله الطويل بن صفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح و كان شريفا و ابن شريف و عاش حتى قتل مع ابن الزبير بمكة . و منهم يحيى بن حكيم بن صفوان بن أمية بن خلف عاش حتى استعمله عمرو بن سعيد الأشدق على مكة لما جمع له بين مكة و المدينة فأقام عمرو بالمدينة و يحيى بمكة . و منهم عامر بن مسعود بن أمية بن خلف كان يسمى دحروجة الجعل لقصره و سواده و عاش حتى ولاه زياد صدقات بكر بن وائل و ولاه عبد الله بن الزبير بن العوام الكوفة . و منهم أيوب بن حبيب بن علقمة بن ربيعة بن الأعور بن أهيب بن حذافة بن جمح عاش حتى قتل بقتيد قتلته الخوارج . فهؤلاء الذين أعرف حضورهم الجمل مع عائشة من بني جمح و قتل من بني جمح مع عائشة عبد الرحمن بن وهب بن أسيد بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح و عبد الله بن ربيعة بن دراج العنابس بن وهبان بن وهب بن حذافة بن جمح لا أعرف أنه قتل من بني جمح ذلك اليوم غيرهما فإن صحت الرواية و أفلتنتني أعيان بني جمح بالنون فالمراد رؤسائهم و ساداتهم . و أتلعوا أعناقهم رفعوها و رجل أتلع بين التلع أي طويل العنق و جيد تليع أي طويل قال الأعرشي

[126]

يوم تبدي لنا قتيله عن جيد

تليع تزينه الأطواق

و وقص الرجل إذا اندقت عنقه فهو موقوص و وقصت عنق الرجل أقصها وقصا أي كسرتها و لا يجوز وقصت العنق نفسها . و الضمير في قوله ع لقد أتلعوا يرجع إلى قريش أي راموا الخلافة فقتلوا دونها . فإن قلت أ تقول إن طلحة و الزبير لم يكونا من أهل الخلافة إن قلت ذلك تركت مذهب أصحابك و إن لم تقله خالفت قول أمير المؤمنين لم يكونوا أهله . قلت هما أهل للخلافة ما لم يطلبها أمير المؤمنين فإذا طلبها لم يكونا أهلا لها لا هما و لا غيرهما و لو لا طاعته لمن تقدم و ما ظهر من رضاه به لم نحكم بصحة خلافته

[127]

214 و من كلام له ع

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ وَ أَمَاتَ نَفْسَهُ حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ وَ لَطَفَ غَلِيظُهُ وَ بَرَّقَ لَهُ لَامِعٌ كَثِيرٌ الْبُرْقِ فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ وَ سَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ وَ تَدَاغَعَتْهُ الْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلَامَةِ وَ دَارِ الْإِقَامَةِ وَ ثَبَّتَتْ رِجْلَاهُ بِطُمَأْنِينَةٍ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الْأَمْنِ وَ الرَّاحَةِ بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ وَ أَرْضَى رَبَّهُ يَصِفُ الْعَارِفَ يَقُولُ قَدْ أَحْيَا قَلْبَهُ بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَ أَمَاتَ نَفْسَهُ بِالْمَجَاهِدَةِ وَ رِيَاضَةِ الْقُوَّةِ الْبَدَنِيَّةِ بِالْجُوعِ وَ الْعَطَشِ وَ السَّهْرِ وَ الصَّبْرِ عَلَى مَشَاقِّ السَّفَرِ وَ السِّيَاحَةِ . حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ أَي حَتَّى نَحَلَ بَدَنَهُ الْكَثِيفَ . وَ لَطَفَ غَلِيظَهُ تَلَطَّفَتْ أَخْلَاقَهُ وَ صَفَّتْ نَفْسَهُ فَإِنْ كَدَرَ النَّفْسُ فِي الْأَكْثَرِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ كَدْرِ الْجَسَدِ وَ الْبَطْنَةِ كَمَا قِيلَ تَذْهَبُ الْفِطْنَةُ



فصل في مجاهدة النفوس و ما ورد في ذلك من الآثار

و تقول أرباب هذه الطريقة من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة .

[128]

و قال عثمان المغربي الصوفي من ظن أنه يفتح عليه شيء من هذه الطريقة أو يكشف له عن سر من أسرارها من غير لزوم المجاهدة فهو غلط . و قال أبو علي الدقاق من لم يكن في بدايته قومة لم يكن في نهايته جلسة . و من كلامهم الحركة بركة حركات الظواهر توجب بركات السرائر . و من كلامهم من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة . و قال الحسن الفرازيني هذا الأمر على ثلاثة أشياء ألا تأكل إلا عند الفاقة و لا تنام إلا عند الغلبة و لا تتكلم إلا عند الضرورة . و قال إبراهيم بن أدهم لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يغلق عن نفسه باب النعمة و يفتح عليها باب الشدة . و من كلامهم من كرمتم عليه نفسه هان عليه دينه . و قال أبو علي الروذباري إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام أنا جائع فالزموه السوق و مروه بالكسب . و قال حبيب بن أوس أبو تمام و هو يقصد غير ما نحن فيه و لكنه يصلح أن يستعمل فيما نحن فيه

خذي عبرات عينك عن زماعي
و صوني ما أزلت من القناع
أقلي قد أضاق بكاك ذرعي
و ما ضاقت بنازله ذراعي
أألغة النحيب كم افتراق
أظل فكان داعية اجتماع

[129]

فليست فرحة الأبواب إلا
لموقوف على ترح الوداع
تعجب أن رأيت جسمي نحيلاً
كان المجد يدرك بالصراع
أخو النكبات من يأوي إذا ما
أظفن به إلى خلق وساع
يثير عجاجة في كل فج
يهيم به عدي بن الرقاع
أبن مع السباع الماء حتى
لخالته السباع من السباع

فاطلب هدوءا بالتقلقل و استثر
بالعيس من تحت السهاد هجودا
ما أن ترى الأحساب بيضا وضحا
إلا بحيث ترى المنايا سودا

و

جاء في الحديث أن فاطمة جاءت إلى رسول الله ص بكسرة خبز فقال ما هذه قالت قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى أتيتك منه بهذه الكسرة فأكلها و قال أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث . و كان يقال يبايع الحكمة من الجوع و كسر عادية النفس بالمجاهدة .

[130]

و قال يحيى بن معاذ لو أن الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره . و قال سهل بن عبد الله لما خلق الله الدنيا جعل في الشبع المعصية و الجهل و جعل في الجوع الطاعة و الحكمة . و قال يحيى بن معاذ الجوع للمريدين رياضة و للتائبين تجربة و للزهاد سياسة و للعارفين تكريمة . و قال أبو سلمان الداراني مفتاح الدنيا الشبع و مفتاح الآخرة الجوع . و قال بعضهم أدب الجوع ألا ينقص من عادتك إلا مثل أذن السنور هكذا على التدرج حتى تصل إلى ما تريد . و يقال إن أبا تراب النخشي خرج من البصرة إلى مكة فوصل إليها على أكلتين أكلة بالنجاج و أكلة بذات عرق . قالوا و كان سهل بن عبد الله التستري إذا جاع قوي و إذا أكل ضعف . و كان منهم من يأكل كل أربعين يوما أكلة واحدة و منهم من يأكل كل ثمانين يوما أكلة واحدة . قالوا و اشتهى أبو الخير العسقلاني السمك سنين كثيرة ثم تهيأ له أكله من وجه حلال فلما مد يده ليأكل أصابت إصبعه شوكة من شوك السمك فقام و ترك الأكل و قال يا رب هذا لمن مد يده بشهوة إلى الحلال فكيف بمن مد يده بشهوة إلى الحرام . و في الكتاب العزيز **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** فالجملة الأولى هي التقوى و الثانية هي المجاهدة .

[131]

و

قال النبي ص أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى و طول الأمل أما اتباع الهوى فيصد عن الحق و أما طول الأمل فينسي الآخرة . و سنل بعض الصوفية عن المجاهدة فقال ذبح النفس بسيوف المخالفة . و قال من نجمت طوارق نفسه أفلت شوارق أنسه . و قال إبراهيم بن شيبان ما بت تحت سقف و لا في موضع عليه غلق أربعين سنة و كنت أشتهي في أوقات أن أتناول شبعة عدس فلم يتفق ثم جملت إلي و أنا بالشام غضارة فيها عدسية فتناولت منها و خرجت فرأيت قوارير معلقة فيها شبهة أنموذجات فظننتها خلا فقال بعض الناس أ تنظر إلى هذه و تظنها خلا و إنما هي خمر و هي أنموذجات هذه الدنان لدنان هناك فقلت قد لزمني فرض الإنكار فدخلت حانوت ذلك الخمار لأكسر الدنان و الجرار فحملت

إلى ابن طولون فأمر بضربي مانتى خشبة و طرحي في السجن فبقيت مدة حتى دخل أبو عبد الله الوباني المغربي أستاذ ذلك البلد فعلم أنني محبوس فشفع في فأخرجت إليه فلما وقع بصره علي قال أي شيء فعلت فقلت شبعة عدس و مانتى خشبة فقال لقد نجوت مجانا . و قال إبراهيم الخواص كنت في جبل فرأيت رمانا فاشتبهته فدنوت فأخذت منه واحدة فشقتها فوجدتها حامضة فمضيت و تركت الرمان فرأيت رجلا مطروحا قد اجتمع عليه الزنابير فسلمت عليه فرد علي باسمي فقلت كيف عرفتنني قال من عرف الله لم يخف عليه شيء فقلت له أرى لك حالا مع الله فلو سألته أن يحميك و يقيك من أذى هذه الزنابير فقال و أرى لك حالا مع الله فلو سألته أن يقيك من شهوة الرمان فإن لذع الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة و لذع الزنابير

[132]

يجد الإنسان ألمه في الدنيا فتركته و مضيت على وجهي . و قال يوسف بن أسباط لا يمحو الشهوات من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق . و قال الخواص من ترك شهوة فلم يجد عوضها في قلبه فهو كاذب في تركها . و قال أبو علي الرباطي صحت عبد الله المروزي و كان يدخل البادية قبل أن أصبحه بلا زاد فلما صحبتته قال لي أيما أحب إليك تكون أنت الأمير أم أنا قلت بل أنت فقال و عليك الطاعة قلت نعم فأخذ مخللة و وضع فيها زادا و حملها على ظهره فكننت إذا قلت له أعطني حتى أحملها قال الأمير أنا و عليك الطاعة قال فأخذنا المطر ليلة فوقف إلى الصباح على رأسي و عليه كساء يمنع عني المطر فكننت أقول في نفسي يا ليتني مت و لم أقل له أنت الأمير ثم قال لي إذا صحبت إنسانا فاصحبه كما رأيتني صحبتك . أبو الطيب المتنبى

ذريني أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا في الصعب و السهل في السهل
تريدين إدراك المعالي رخيصة
و لا بد دون الشهد من إبر النحل

و له أيضا

و إذا كانت النفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام

و من أمثال العامة من لم يغل دماغه في الصيف لم تغل قدره في الشتاء . من لم يركب الأخطار لم ينل الأوطار .

[133]

إدراك السؤل و بلوغ المأمول بالصبر على الجوع و فقد الهجوع و سيلان الدموع و اعلم أن تقليل المأكول لا ريب في أنه نافع للنفس و الأخلاق و التجربة قد دلت عليه لأنها نرى الكثير من الأكل يغلبه النوم و الكسل و بلادة الحواس و تتبخر المأكولات الكثيرة أبخرة كثيرة فتتصاعد إلى الدماغ فتفسد القوى النفسانية و أيضا فإن كثرة المأكول تزيد الرقة و تورث القساوة و السبعية و القياس أيضا يقتضي ذلك و لأن كثرة المزاولات سبب لحصول الملكات فالنفس إذا توفرت على تدبير

الغذاء و تصريفه كان ذلك شغلا شاغلا لها و عائقا عظيما عن انصبابها إلى الجهة الروحانية العالية و لكن ينبغي أن يكون تقليل الغذاء إلى حد يوجب جوعا قليلا فإن الجوع المفرط يورث ضعف الأعضاء الرئيسية و اضطرابها و اختلال قواها و ذلك يقتضي تشويش النفس و اضطراب الفكر و اختلال العقل و لذلك تعرض الأخلط السوداوية لمن أفرط عليه الجوع فإن لا بد من إصلاح أمر الغذاء بأن يكون قليل الكمية كثير الكيفية فتؤثر قلة كميته في أنه لا يشغل النفس بتدبير الهضم عن التوجه إلى الجهة العالية الروحانية و تؤثر كثرة كميته في تدارك الخلل الحاصل له من قلة الكمية و يجب أن يكون الغذاء شديد الإمداد للأعضاء الرئيسية لأنها هي المهمة من أعضاء البدن و ما دامت باقية على كمال حالها لا يظهر كثير خلل من ضعف غيرها من الأعضاء

فصل في الرياضة النفسية و أقسامها

واعلم أن الرياضة و الجوع هي أمر يحتاج إليه المرید الذي هو بعد في طريق السلوك إلى الله . و ينقسم طالبوا هذا الأمر الجليل الشاق إلى أقسام أربعة أحدها الذين مارسوا العلوم الإلهية و أجهدوا أنفسهم في طلبها و الوصول إلى كنهها بالنظر الدقيق في الزمان الطويل فهو لا يحصل لهم شوق شديد و ميل عظيم إلى الجهة العالية الشريفة فيحملهم حب الكمال على الرياضة . و ثانيها الأنفس التي هي بأصل الفطرة و الجوهر مائلة إلى الروحانية من غير ممارسة علم و لا درية بنظر و بحث و قد رأينا مثلهم كثيرا و شاهدنا قوما من العامة متى سئح لهم سائح مشوق مثل صوت مطرب أو إنشاد بيت يقع في النفس أو سماع كلمة توافق أمرا في بواطنهم فإنه يستولي عليهم الوجد و يشتد الحنين و تغشاهم غواش لطيفة روحانية يغيبون بها عن المحسوسات و الجسمانيات . و ثالثها نفوس حصل لها الأمان مع الاستعداد الأصلي و الاشتغال بالعلوم النظرية الإلهية . و رابعها النفوس التي لا استعداد لها في الأصل و لا ارتاضت بالعلوم الإلهية و لكنهم قوم سمعوا كمال هذه الطريقة و أن السعادة الإنسانية ليست إلا بالوصول إليها فمالت نحوها و حصل لها اعتقاد فيها . فهذه أقسام المریدين و الرياضة التي تليق بكل واحد من هذه الأقسام غير الرياضة اللائقة بالقسم الآخر .

[135]

و نحتاج قبل الخوض في ذلك إلى تقديم أمرين أحدهما أن النفحات الإلهية دائمة مستمرة و أنه كل من توصل إليها وصل قال سبحانه و تعالى **و الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** و

قال النبي ص إن لربكم في أيام عصركم نفحات ألا فتعرضوا لنفحاته . و ثانيهما أن النفوس البشرية في الأكثر مختلفة بالنوع فقد تكون بعض النفوس مستعدة غاية الاستعداد لهذا المطلب و ربما لم تكن البتة مستعدة له و بين هذين الطرفين أوساط مختلفة بالضعف و القوة . و إذا تقرر ذلك فاعلم أن القسمين الأولين لما اختلفا فيما ذكرناه لا جرم اختلفا في الكسب و المكتسب . أما الكسب فإن صاحب العلم الأولى به في الأكثر العزلة و الانقطاع عن الخلق لأنه قد حصلت له الهداية و الرشاد فلا حاجة له إلى مخالطة أحد يستعين به على حصول ما هو حاصل و أما صاحب الفطرة الأصلية من غير علم فإنه لا يليق به العزلة لأنه يحتاج إلى المعلم و المرشد فإنه ليس يكفي الفطرة الأصلية في الوصول إلى المعالم الإلهية و الحقائق الربانية و لا بد من موقف و مرشد في مبدأ الحال هذا هو القول في الكسب بالنظر إليها . و أما المكتسب فإن صاحب العلم إذا اشتغل بالرياضة كانت مشاهداته و مكاشفاته أكثر كمية و أقل كيفية مما لصاحب الفطرة المجردة أما كثرة الكمية فلأن قوته النظرية تعينه على ذلك و أما قلة الكيفية فلأن القوة النفسانية تتوزع على تلك الكثرة و كلما كانت الكثرة أكثر كان توزع القوة إلى أقسام أكثر و كان كل واحد منها

[136]

أضعف مما لو كانت الأقسام أقل عددا و إذا عرفت ذلك عرفت أن الأمر في جانب صاحب الفطرة الأصلية بالعكس من ذلك و هو أن مشاهداته و مكاشفاته تكون أقل كمية و أكثر كيفية . و أما الاستعداد الثالث و هو النفس التي قد جمعت الفطرة الأصلية و العلوم الإلهية النظرية بالنظر فهي النفس الشريفة الجليلة الكاملة . و هذه الأقسام الثلاثة مشتركة في أن

رياضتها القلبية يجب أن تكون زائدة في الكم والكيف على رياضتها البدنية لأن الغرض الأصلي هو رياضة القلب و طهارة النفس و إنما شرعت الرياضات البدنية و العبادات الجسمانية لتكون طريقا إلى تلك الرياضة الباطنة فإذا حصلت كان الاشتغال بالرياضة البدنية عبثا لأن الوسيلة بعد حصول المتوسل إليه فضلة مستغنى عنها بل ربما كانت عانقة عن المقصود نعم لا بد من المحافظة على الفرائض خاصة لنلا تعاد النفس الكسل و ربما أفضى ذلك إلى خلل في الرياضة النفسانية و لهذا حكي عن كثير من كبراء القوم قلة الاشتغال بنوافل العبادات . و أما القسم الرابع و هو النفس التي خلت عن الوصفين معا فهذه النفس يجب ألا تكون رياضتها في مبدأ الحال إلا بتهذيب الأخلاق بما هو مذكور في كتب الحكمة الخلقية فإذا لانت و مرنت و استعدت للنفحات الإلهية حصل لها ذوق ما فأوجب ذلك الذوق شوقا فأقبلت بكليتها على مطلوبها

فصل في أن الجوع يؤثر في صفاء النفس

و اعلم أن السبب الطبيعي في كون الجوع مؤثرا في صفاء النفس أن البلغم الغالب على مزاج البدن يوجب بطبعه البلادة و إبطاء الفهم لكثرة الأرضية فيه و ثقل جوهره و كثرة ما يتولد عنه من البخارات التي تسد المجاري و تمنع نفوذ الأرواح و لا ريب أن الجوع يقتضي تقليل البلغم لأن القوة الهاضمة إذا لم تجد غذاء تهضمه عملت في الرطوبة الغريبة الكائنة في الجسد فكما انقطع الغذاء استمر عملها في البلغم الموجود في البدن فلا تزال تعمل فيه و تذيبه الحرارة الكائنة في البدن حتى يفنى كل ما في البدن من الرطوبات الغريبة و لا يبقى إلا الرطوبات الأصلية فإن استمر انقطاع الغذاء أخذت الحرارة و القوة الهاضمة في تنقيص الرطوبات الأصلية من جوهر البدن فإن كان ذلك يسيرا و إلى حد ليس بمفرط لم يضر ذلك بالبدن كل الإضرار و كان ذلك هو غاية الرياضة التي أشار أمير المؤمنين ع إليها بقوله حتى دق جليله و لطف غليظه و إن أفرط وقع الحيف و الإجحاف على الرطوبة الأصلية و عطب البدن و وقع صاحبه في الدق و الذبول و ذلك منهي عنه لأنه قتل للنفس فهو كمن يقتل نفسه بالسيف أو بالسكين

كلام للفلاسفة و الحكماء في المكاشفات الناشئة عن الرياضة

و اعلم أن قوله ع و برق له لامع كثير البرق هو حقيقة مذهب الحكماء و حقيقة قول الصوفية أصحاب الطريقة و الحقيقة و قد صرح به الرئيس أبو علي بن سينا في كتاب الإشارات فقال في ذكر السالك إلى مرتبة العرفان ثم إنه

[138]

إذا بلغت به الإرادة و الرياضة حدا ما عنت له خلسات من اطلاق نور الحق إليه لذيدة كأنها بروق تومض إليه ثم تخذ عنه و هي التي تسمى عندهم أوقاتا و كل وقت يكتفه وجد إليه و وجد عليه ثم إنه لتكثر عليه هذه الغواشي إذا أمعن في الارتياض ثم إنه ليتوغل في ذلك حتى يغشاه في غير الارتياض فكلما لمح شيئا عاج منه إلى جانب القدس فتذكر من أمره أمرا فغشيه غاش فيكاد يرى الحق في كل شيء و لعله إلى هذا الحد تستولي عليه غواشيه و يزول هو عن سكينته و يتنبه جليسه لاستنفاره عن قراره فإذا طال عليه الرياضة لم تستفره غاشية و هدي للتأنس بما هو فيه ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغا ينقلب له وقته سكينه فيصير المخطوب مألوفاً و الوميض شهاباً بيناً و يحصل له معارف مستقرة كأنها صحبة مستمرة و يستمتع فيها ببهجته فإذا انقلب عنها انقلب حيران أسفا . فهذه ألفاظ الحكيم أبي علي بن سينا في الإشارات و هي كما نراها مصرح فيها بذكر البروق اللامعة للعارف . و قال القشيري في الرسالة لما ذكر الحال و الأمور الواردة على العارفين قال هي بروق تلمع ثم تخذ و أنوار تبدو ثم تخفى ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها ثم تمثل بقول
البحثري

خطرت في النوم منها خطرة

خطرة البرق بدا ثم اضمحل

أي زور لك لو قصدا سرى

و ملم بك لو حقا فعل

فهو كما تراه يذكر البروق اللامعة حسبما ذكره الحكيم و كلاهما يتبع ألفاظ أمير المؤمنين ع لأنه حكيم الحكماء و عارف العارفين و معلم الصوفية و لو لا أخلاقه

[139]

و كلامه و تعليمه للناس هذا الفن تارة بقوله و تارة بفعله لما اهتدى أحد من هذه الطائفة و لا علم كيف يورد و لا كيف يصدر . و قال القشيري أيضا في الرسالة المحاضرة قبل المكاشفة فإذا حصلت المكاشفة فبعدها المشاهدة . و قال و هي أرفع الدرجات قال فالمحاضرة حضور القلب و قد تكون بتواتر البرهان و الإنسان بعد وراء الستر و إن كان حاضرا باستيلاء سلطان الذكر . و أما المكاشفة فهي حضور البين غير مفتقر إلى تأمل الدليل و تطلب السبيل ثم المشاهدة و هي وجود الحق من غير بقاء تهمة . و أحسن ما ذكر في المشاهد قول الجنيد هي وجود الحق مع فقدانك . و قال عمرو بن عثمان المكي المشاهدة أن تتوالى أنوار التجلي على القلب من غير أن يتخللها ستر و لا انقطاع كما لو قدر اتصال البروق في الليلة المظلمة فكما أنها تصير من ذلك بضوء النهار فكذلك القلب إذا دام له التجلي مع النهار فلا ليل . و أنشدوا شعرا

ليلي بوجهك مشرق
و ظلامه في الناس سار
فالناس في سدف الظلام
و نحن في ضوء النهار

و قال الثوري لا تصح للعبد المشاهدة و قد بقي له عرق قائم . و قالوا إذا طلع الصباح استغني عن المصباح . و أنشدوا
أيضا

فلما استنار الصبح طوح ضوءه
بأنواره أنوار ضوء الكواكب

[140]

فجرعهم كأسا لو ابتليت لظي
بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

كأس و أي كأس تصظلمهم عنهم و تفتيهم و تخطفهم منهم و لا تبقئهم كأس لا تبقئ و لا تذر تمحو بالكلية و لا تبقئ
شظية من آثار البشرية كما قال قائلهم

ساروا فلم يبق لا عين و لا أثر

و قال القشيري أيضا هي ثلاث مراتب اللوانح ثم اللوامع ثم الطوالع فاللوانح كالبروق ما ظهرت حتى استترت كما قال
القائل

فافترقنا حولا فلما التقينا
كان تسليمه علي وداعا

و أنشدوا

يا ذا الذي زار و ما زارا
كأنه مقتبس نارا
مر بباب الدار مستعجلا
ما ضره لو دخل الدارا

ثم اللوامع و هي أظهر من اللوانح و ليس زوالها بتلك السرعة فقد تبقئ وقتين و ثلاثة و لكن كما قيل

العين باكية لم تشبع النظرا

أو كما قالوا

و بلاني من مشهد و مغيب
و حبيب مني بعيد قريب
لم ترد ماء وجهه العين حتى
شرقت قبل ربه برقيب

فأصحاب هذا المقام بين روح و فوح لأنهم بين كشف و ستر يلمع ثم يقطع لا يستقر لهم نور النهار حتى تكرر عليه عساكر
الليل فهم كما قيل

و الليل يشملنا بفاضل برده
و الصبح يلحفنا رداء مذهبنا

ثم الطوالع و هي أبقى وقتا و أقوى سلطانا و أدوم مكثا و أذهب للظلمة و أنفي للمهمة .

[141]

أ فلا ترى كلام القوم كله مشحون بالبروق و اللمعان . و كان مما نغم حامد بن العباس وزير المقتدر و علي بن عيسى
الجراح وزيره أيضا على الحلاج أنهما وجدا في كتبه لفظ النور الشعشعاني و ذلك لجهالتهما مراد القوم و اصطلاحهم و
من جهل أمرا عاداه . ثم قال ع و تدافعت الأبواب إلى باب السلامة و دار الإقامة أي لم يزل ينتقل من مقام من مقامات
القوم إلى مقام فوفقه حتى وصل و تلك المقامات معروفة عند أهلها و من له أنس بها و سنذكرها فيما بعد . ثم قال و ثبتت
رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن و الراحة بما استعمل قلبه و أرضى ربه أي كانت الراحة الكلية و السعادة الأبدية
مستثمره من ذلك التعب الذي تحمله لما استعمل قلبه و راض جوارحه و نفسه حتى وصل كما قيل

عند الصباح يحمد القوم السرى
و تنجلي عنا غيابات الكرى

و قال الشاعر

تقول سليمى لو أقت بأرضنا
و لم تدر أني للمقام أطوف

و قال آخر

ما ابيض وجه المرء في طلب العلا
حتى يسود وجهه في البید

و قال

فاطلب هدوءا بالتقلقل و استثر
بالعيس من تحت السهاد هجودا
ما إن ترى الأحساب بيضا وضحا
إلا بحيث ترى المنايا سودا

215 و من كلام له ع يحث فيه أصحابه على الجهاد

وَ اللَّهُ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ وَ مُورِثُكُمْ أَمْرَهُ وَ مُمَهِّلُكُمْ فِي مِضْمَارٍ مَحْدُودٍ مَمْدُودٍ لِتَنْتَازِعُوا سَبْقَهُ فَشُدُّوا عَقْدَ الْمَآزِرِ وَ اطُؤُوا
فُضُولَ الْخَوَاصِرِ لَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَ وَلِيمَةٌ مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَرَائِمِ الْيَوْمِ وَ أَمْحَى الظُّلْمَ لِتَذَاكِيرِ الْهَمَمِ مُسْتَأْدِيكُمْ شُكْرَهُ أَي
طالب منكم أداء ذلك و القيام به استأديت ديني عند فلان أي طلبته . و قوله و مورثكم أمره أي سيرجع أمر الدولة إليكم و
يزول أمر بني أمية . ثم شبه الأجال التي ضربت للمكلفين ليقوموا فيها بالواجبات و يتسابقوا فيها إلى الخيرات بالمضمار
الممدود لخيال تتنازع فيه السبق . ثم قال فشدوا عقد المآزر أي شمروا عن ساق الاجتهاد و يقال لمن يوصى بالجد و
التشمير اشدد عقدة إزارك لأنه إذا شدها كان أبعد عن العثار و أسرع للمشي . قوله و اطؤوا فضول الخواصر نهى عن
كثرة الأكل لأن الكثير الأكل لا يطوي فضول خواصره لامتلانها و القليل الأكل يأكل في بعضها و يطوي بعضها قال الشاعر

[143]

كلوا في بعض بطنكم و عفوا
فإن زمانكم زمن خميص

و قال أعشى باهلة

طاوي المصير على العزاء منصلت
بالقوم ليلة لا ماء و لا شجر

و قال الشنفرى

و أطوي على الخمص الحوايا كما انطوت
خيوطه ماري تغار و تفتل

ثم أتى ع بثلاثة أمثال مخترعة له لم يسبق بها و إن كان قد سبق بمعناها و هي قوله لا تجتمع عزيمة و وليمة و قوله ما
أنقض النوم لعرائم اليوم و قوله و أمحى الظلم لتذاكير الهمم . فمما جاء للمحدثين من ذلك ما كتبه بعض الكتاب إلى ولده

خدمة السلطان والكا
سات في أيدي الملاح
ليس يلتامان فاطلب
رفعة أو شرب راح

و مثله قول آخر لولده

ما للمطيع هواه
من الملام ملاذ

فاختر لنفسك هذا

مجد و هذا التذاذ

و قال آخر

و ليس فتى الفتيان من راح و اغتدى

لشرب صبوح أو لشرب غبوق

و لكن فتى الفتيان من راح و اغتدى

لضر عدو أو لنفع صديق

[144]

و هذا كثير جدا يناسب قوله لا تجتمع عزيمة و وليمة و مثل قوله ما أنقض النوم لعزائم اليوم قول الشاعر

فتى لا ينام على عزمه

و من صمم العزم لم يرقد

و قوله و أمحى الظلم لتذاكير الهمم أي الظلم التي ينام فيها لا كل الظلم أ لا ترى أنه إذا لم ينام في الظلمة بل كان عنده من شدة العزم و قوة التصميم ما لا ينام معه فإن الظلمة لا تمحو تذاكير هممه و التذاكير جمع تذكارة . و المثلان الأولان أحسن

من الثالث و كان الثالث من تنمة الثاني و قد قالت العرب في الجاهلية هذا المعنى و جاء في القرآن العزيز **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ**

تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمُ الْبِأَسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ زُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا

مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ . و هذا مثل قوله لا تجتمع عزيمة و وليمة أي لا يجتمع لكم دخول الجنة و الدعوة

و القعود عن مشقة الحرب

[145]

216 و من كلام له ع قاله بعد تلاوته

أَلِهَاتِكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ يَا لَهُ مَرَامًا مَا أَبْعَدُهُ وَ زُورًا مَا أَغْفَلُهُ وَ حَظْرًا مَا أَفْطَعُهُ لَقَدْ اسْتَنْخَلُوا مِنْهُمْ أَيَّ مُدْكِرٍ وَ تَنَآوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ أ فَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَّكَاثِرُونَ قد اختلف المفسرون في تأويل هاتين الآيتين فقال قوم المعنى أنكم قطعتم أيام عمركم في التكاثر بالأموال و الأولاد حتى أتاكم الموت فكني عن حلول الموت بهم بزيارة المقابر . و قال قوم بل كانوا يتفاخرون بأنفسهم و تعدى ذلك إلى أن تفاخروا بأسلافهم الأموات فقالوا منا فلان و فلان لقوم كانوا و انقرضوا . و هذا هو التفسير الذي يدل عليه كلام أمير المؤمنين ع قال يا له مراما منصوب على التمييز . ما أبعداه أي لا فخر في ذلك و طلب الفخر من هذا الباب بعيد و إنما الفخر بتقوى الله و طاعته .

[146]

و زورا ما أغفله إشارة إلى القوم الذين افتخروا جعلهم بتذكر الأموات السالفين كالزائرين لقبورهم و الزور اسم للواحد و الجمع كالخصم و الضيف قال ما أغفلهم عما يراد منهم لأنهم تركوا العبادة و الطاعة و صرموا الأوقات بالمفاخرة بالموتى . ثم قال و خطرا ما أفطعه إشارة إلى الموت أي ما أشده فطع الشيء بالضم فهو فطيع أي شديد شنيع مجاوز للمقدار . قوله لقد استخلوا منهم أي مدكر قال الراوندي أي وجدوا موضع التذكر خاليا من الفائدة و هذا غير صحيح و كيف يقول ذلك و قد قال و خطرا ما أفطعه و هل يكون أمر أعظم تذكيرا من الاعتبار بالموتى و الصحيح أنه أراد باستخلوا ذكر من خلا من آبائهم أي من مضى يقال هذا الأمر من الأمور الخالية و هذا القرن من القرون الخالية أي الماضية . و استخلى فلان في حديثه أي حدث عن أمور خالية و المعنى أنه استعظم ما يوجب حديثهم عما خلا و عمن خلا من أسلافهم و آثار أسلافهم من التذكير فقال أي مدكر و واعظ في ذلك و روي أي مذكر بمعنى المصدر كالمعتقد بمعنى الاعتقاد و المع تبر بمعنى الاعتبار . و تناوشوهم من مكان بعيد أي تناولوهم و المراد ذكروهم و تحدثوا عنهم فكانهم تناولوهم و هذه اللفظة من ألفاظ القرآن العزيز **وَ قَالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّنَآوُسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ** و أنى لهم تناول الإيمان حينئذ بعد فوات الأمر

[147]

يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَادًا خَوْثَ وَ حَرَكَاتٍ سَكَنَتْ وَ لَأَنْ يَكُونُوا عِبْرًا أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخِرًا وَ لَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ أَحَجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ وَ ضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ وَ لَوْ اسْتَنْطَفُوا عَنْهُمْ عَرَصَاتِ تِلْكَ الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ وَ الرَّبُوعِ الْخَالِيَةِ لَقَالَتْ ذَهَبُوا فِي الْأَرْضِ ضَلَالًا وَ ذَهَبْتُمْ فِي أَعْقَابِهِمْ جُهَالًا تَطْنُونَ فِي هَامِهِمْ وَ تَسْتَنْبِثُونَ فِي أَجْسَادِهِمْ وَ تَرْتَعُونَ فِيمَا لَفْظُوا وَ تَسْكُنُونَ فِيمَا خَرَبُوا وَ إِنَّمَا الْأَيَّامُ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ بَوَاكٍ وَ نَوَاحٍ عَلَيْكُمْ أُولَئِكَ سَلَفٌ غَايِبِكُمْ وَ فَرَّاطٌ مَنَاهِلِكُمْ الَّذِينَ كَانَتْ لَهُمْ مَقَاوِمُ الْعِزِّ وَ حَلَبَاتٌ أَلْفَحْرُ مُلُوكًا وَ سَوْفًا يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَادًا أي يذكرون آباءهم فكانهم ردوهم إلى الدنيا و ارتجعوهم من القبور و خوت خلت . قال و هؤلاء الموتى أحق بأن يكونوا عبرة و عظة من أن يكونوا فخرا و شرفا و المفتخرون بهم أولى بالهبوط إلى جانب الذلة منهم بالقيام مقام العز . و تقول هذا أحجى من فلان أي أولى و أجدر و الجنب الفناء .

[148]

ثم قال لقد نظروا إليهم بأبصار العشوة أي لم ينظروا النظر المفضي إلى الروية لأن أبصارهم ذات عشوة و هو مرض في العين ينقص به الأبصار و في عين فلان عشاء و عشوة بمعنى و منه قيل لكل أمر ملتبس يركبه الراكب على غير بيان أمر عشوة و منه أوطأنتي عشوة و يجوز بالضم و الفتح . قال و ضربوا بهم في غمرة جهالة أي و ضربوا من ذكر هؤلاء الموتى في بحر جهل و الضرب ها هنا استعارة أو يكون من الضرب بمعنى السير كقوله تعالى **وَ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ** أي خاضوا و سبحوا من ذكرهم في غمرة جهالة و كل هذا يرجع إلى معنى واحد و هو تسفيه رأي المفتخرين بالموتى و القاطعين الوقت بالتكاثر بهم إعراضا عما يجب إنفاقه من العمر في الطاعة و العبادة . ثم قال لو سألوا عنهم ديارهم التي خلت منهم و يمكن أن يريد بالديار و الربوع القبور لقاتل ذهبوا في الأرض ضللا أي هالكين و منه قوله تعالى **وَ قَالُوا أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** . و ذهبتم في أعقابهم أي بعدهم جهالا لغفلتكم و غروركم . قوله ع تطنون في هامهم أخذ هذا المعنى أبو العلاء المعري فقال

خفف الوطء ما أظن أديم
الأرض إلا من هذه الأجساد
رب لحد قد صار لحد مرارا
ضاحك من تزامم الأضداد

[149]

و دفين على بقايا دفين
من عهود الآباء و الأجداد
صاح هذي قبورنا تملأ الأرض
فأين القبور من عهد عاد
سر إن اسطعت في الهواء رويدا
لا اختيلا على رفات العباد

قوله و تستنبتون في أجسادهم أي تزرعون النبات في أجسادهم و ذلك لأن أديم الأرض الظاهر إذا كان من أبدان الموتى فالزرع لا محالة يكون نابتا في الأجزاء الترابية التي هي أبدان الحيوانات و روي و تستنبتون بالشاء أي و تنصبون الأشياء الثابتة كالعمد و الأساطين للأوطان في أجساد الموتى . ثم قال و ترتعون فيما لفظوا لفظت الشيء بالفتح رميته من فمي ألفظه بالكسر و يجوز أن يريد بذلك أنكم تأكلون ما خلفوه و تركوه و يجوز أن يريد أنكم تأكلون الفواكه التي تنبت في أجزاء ترابية خالطها الصديد الجاري من أفواههم ثم قال و تسكنون فيما خربوا أي تسكنون في المساكن التي لم يعمرها بالذكر و العبادة فكأنهم أخرجوها في المعنى ثم سكنتم أنتم فيها بعدهم و يجوز أن يريد أن كل دار عامرة قد كانت من قبل خربة و إنما أخرجها قوم بادوا و ماتوا فإذن لا ساكن منا في عمارة إلا و يصدق عليه أنه ساكن فيما قد كان خرابا من قبل و الذين أخرجوه الآن موتى و يجوز أن يريد بقوله و تسكنون فيما خربوا و تسكنون في دور فارقوها و أخلوها فأطلق على الخلو و الفراغ لفظ الخراب مجازا . قوله و إنما الأيام بينكم و بينهم بواك و نوائح عليكم يريد أن الأيام و الليالي تشيع رائحا إلى المقابر و تبكي و تنوح على الباقيين الذين سيلتحقون به عن قريب .

قوله أولئك سلف غايتكم السلف المتقدمون و الغاية الحد الذي ينتهي إليه إما حسيا أو معنويا و المراد هاهنا الموت . و الفرط القوم يسبقون الحي إلى المنهل . و مقاوم العز دعائمه جمع مقوم و أصلها الخشبة التي يمسكها الحراث و حلبات الفخر جمع حلبة و هي الخيل تجمع للسباق . و السوق بفتح الواو جمع سوقة و هو من دون الملك : سَلُّوا فِي بُطُونِ الْبُرْزَخِ سَبِيلًا سَلَّطَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِمْ فِيهِ فَأَكَلَتْ مِنْ لُحُومِهِمْ وَ شَرِبَتْ مِنْ دِمَائِهِمْ فَأَصْبَحُوا فِي فُجُوتِ قُبُورِهِمْ جَمَادًا لَا يَنْمُونَ وَ ضِمَارًا لَا يُوجَدُونَ لَا يُفْرِعُهُمْ وَرُودُ الْأَهْوَالِ وَ لَا يَحْزَنُهُمْ تَنَكُّرُ الْأَحْوَالِ وَ لَا يَخْفَلُونَ بِالرَّوَاغِفِ وَ لَا يَأْدُنُونَ لِلْفَوَاصِفِ غَيْبًا لَا يَنْتَظِرُونَ وَ شَهُودًا لَا يَحْضُرُونَ وَ إِنَّمَا كَانُوا جَمِيعًا فَتَشْتَتُوا وَ الْأَفَا آفَا فَأَفْتَرُقُوا وَ مَا عَنِ طُولِ عَهْدِهِمْ وَ لَا بَعْدَ مَحَلِّهِمْ عَمِيَتْ أَخْبَارُهُمْ وَ صَمَّتْ دِيَارُهُمْ وَ لَكِنَّهُمْ سُفُؤًا كَأَسَا بَدَّلْتُهُمْ بِالنُّطْقِ خَرَسًا وَ بِالسَّمْعِ صَمَمًا وَ بِالْحَرَكَاتِ سُكُونًا فَكَأَنَّهُمْ فِي رِزْجَالِ الصِّفَةِ صَرَعى سُبَاتٍ جِيرَانٍ لَا يَتَأَسُّونَ وَ أَحِبَاءٍ لَا يَتَرَاوِرُونَ بَلِيَّتٍ بَيْنَهُمْ عُرَا التَّعَارُفِ وَ انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ أَسْبَابُ الْإِحَاءِ فَكَلَّهْمُ وَحِيدٌ وَ هُمْ جَمِيعٌ وَ بِجَانِبِ الْهَجْرِ وَ هُمْ أَخْلَاءٌ لَا يَتَعَارَفُونَ لِلَّيْلِ صَبَاحًا وَ لَا لِنَهَارٍ مَسَاءً أَيُّ الْجَدِيدِينَ ظَعَنُوا فِيهِ كَانَ

عَلَيْهِمْ سَرْمَدًا شَاهِدُوا مِنْ أخطارِ دَارِهِمْ أَفْطَعَ مِمَّا خَافُوا وَ رَأَوْا مِنْ آيَاتِهَا أَعْظَمَ مِمَّا قَدَّرُوا فَكَلَّمْنَا الْغَايَتَيْنِ مُدَّتْ لَهُمْ إِلَى مَبَاءَةٍ فَاتَتْ مَبَالِغَ الْخَوْفِ وَ الرَّجَاءِ فَلَوْ كَانُوا يَنْطَفُونَ بِهَا لَعَيُوا بِصِفَةِ مَا شَاهَدُوا وَ مَا عَانِيُوا وَ لَئِنْ عَمِيَتْ آثَارُهُمْ وَ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُمْ لَقَدْ رَجَعَتْ فِيهِمْ أَبْصَارُ الْعَبْرِ وَ سَمِعَتْ عَنْهُمْ آدَانُ الْعُقُولِ وَ تَكَلَّمُوا مِنْ غَيْرِ جِهَاتِ النُّطْقِ فَقَالُوا كَلَحَتْ أَلْوَجُوهُ النَّوَاضِرُ وَ حَوَّتِ الْأَجْسَامُ النَّوَاعِمَ وَ لَبَسْنَا أَهْدَامَ الْبَلَى وَ تَكَاءَدْنَا ضَيْقُ الْمَضْجَعِ وَ تَوَارَتْنا الْوَحْشَةَ وَ تَهَدَّمَتْ تَهَكَّمَتْ عَلَيْنَا الرُّبُوعُ الصُّمُوثُ فَأَنْمَحَتْ مَحَاسِنُ أَجْسَادِنَا وَ تَنَكَّرَتْ مَعَارِفُ صُورِنَا وَ طَالَتْ فِي مَسَاكِنِ الْوَحْشَةِ إِقَامَتُنَا وَ لَمْ نَجِدْ مِنْ كَرْبٍ فَرَجًا وَ لَا مِنْ ضَيْقٍ مَنَسَعًا فَلَوْ مَثَلْتُهُمْ بِعَفْلِكَ أَوْ كُشِفَ عَنْهُمْ مَحْجُوبُ الْعِطَاءِ لَكَ وَ قَدْ اِرْتَسَخَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِالْهَوَامِ فَاسْتَنَّتْ وَ اِكْتَحَلَتْ أَبْصَارُهُمْ بِالْتَرَابِ فَحَسَفَتْ وَ تَقَطَّعَتْ الْأَلْسِنَةُ فِي أَفْوَاهِهِمْ بَعْدَ دَلَاقَتِهَا وَ هَمَدَتْ الْقُلُوبُ فِي صُدُورِهِمْ بَعْدَ يَقِظَتِهَا وَ عَاثَ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْهُمْ جَدِيدٌ بَلَى سَمَجَّهَا وَ سَهَّلَ طُرُقَ الْآفَةِ إِلَيْهَا مُسْتَسْلِمَاتٍ فَلَا أَيْدٍ تَدْفَعُ وَ لَا قُلُوبَ تَجْزَعُ لَرَأَيْتِ أَشْجَانَ قُلُوبٍ وَ أَقْدَاءَ عِيُونٍ لَهُمْ فِي كُلِّ فِطَاعَةٍ صِفَةٌ حَالٍ لَا تَنْتَقِلُ وَ عُمَرَةٌ لَا تَنْجَلِي فَكَمْ أَكَلَتْ الْأَرْضُ مِنْ عَزِيْزٍ جَسَدٍ وَ أُنِيقٍ لُونٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَذِيٍّ تَرَفٍ وَ رَبِيبٍ شَرَفٍ يَتَعَلَّلُ بِالسَّرُورِ فِي سَاعَةِ حُزْنِهِ وَ يَفْرَعُ إِلَى السَّلْوَةِ إِنْ مُصِيبَةٌ نَزَلَتْ بِهِ ضَنًّا بِعَضَارَةِ عَيْشِهِ وَ شَحَاحَةً بِلُهْوِهِ وَ لَعِبِهِ فَبَيْنَا هُوَ يَضْحَكُ إِلَى الدُّنْيَا وَ تَضْحَكُ إِلَيْهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ عَفُولٍ إِذْ وَطِئَ الدُّهْرُ بِهِ حَسَكَهُ وَ نَقَضَتْ الْأَيَّامُ قُوَاهُ وَ نَظَرَتْ إِلَيْهِ الْخُتُوفُ مِنْ كَتَبٍ فَخَالَطَهُ بَثٌّ لَا يَعْرِفُهُ وَ نَجِيٌّ هَمٌّ

مَا كَانَ يَجِدُهُ وَ تَوَلَّدَتْ فِيهِ فِتْرَاتٌ عَلَلِ أَنْسَ مَا كَانَ بِصِحَّتِهِ فَفَرَعَ إِلَى مَا كَانَ عَوْدَهُ الْأَطِبَاءُ مِنْ تَسْكِينِ الْحَارِّ بِالْقَارِّ وَ تَحْرِيكِ الْبَارِدِ بِالْحَارِّ فَلَمْ يُطْفِئْ بِبَارِدٍ إِلَّا تَوَرَّ حَرَارَةً وَ لَا حَرَكَ بِحَارٍ إِلَّا هَيَّجَ بَرُودَةً وَ لَا اِعْتَدَلَ بِمَمَازِجٍ لِنَتِكَ الطَّبَانِعِ إِلَّا أَمَدَ مِنْهَا كُلَّ ذَاتِ دَائٍ حَتَّى فَتَرَ مُعَلِّلَهُ وَ ذَهَلَ مُمَرِّضُهُ وَ تَعَايَا أَهْلُهُ بِصِفَةِ دَائِهِ وَ خَرَسُوا عَنْ جَوَابِ السَّائِلِينَ عَنْهُ وَ تَنَازَعُوا دُونَهُ شَجِيٍّ خَبِرَ يَكْتُمُونَهُ فَقَانِلٌ يَقُولُ هُوَ لِمَا بِهِ وَ مُمَنِّ لَهُمْ إِبَابَ عَافِيَتِهِ وَ مُصَبِّرٌ لَهُمْ عَلَى فَقْدِهِ يُذَكِّرُهُمْ أَسَى الْمَاضِينَ مِنْ قَبْلِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ عَلَى جَنَاحٍ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا وَ تَرَكَ الْأَحْبَةَ إِذْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ مِنْ غُصْبِهِ فَتَحَيَّرَتْ نَوَافِدُ فِطْنَتِهِ وَ بَيَّسَتْ رُطُوبَهُ

لِسَانِهِ فَكَمْ مِنْ مُهَمٍّ مِنْ جَوَابِهِ عَرَفَهُ فَعَيَّ عَنْ رَدِّهِ وَ دُعَاءِ مُؤَلِّمٍ بِقَلْبِهِ سَمِعَهُ فَتَصَامَ عَنْهُ مِنْ كَبِيرٍ كَانَ يُعْظِمُهُ أَوْ صَغِيرٍ كَانَ يَرْحَمُهُ وَ إِنَّ لِلْمَوْتِ لَعَمْرَاتٍ هِيَ أَفْطَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَعْرِقَ بِصِفَةٍ أَوْ تَعْتَدَلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا هَذَا مَوْضِعُ الْمَثَلِ مَلْعَا يَا ظَلِيمَ وَ إِلا فَالتَّخْوِيَةَ مِنْ أَرَادَ أَنْ يُعْظَى وَ يَخُوفَ وَ يُقَرِّعَ صِفَاةَ الْقَلْبِ وَ يَعْرِفُ النَّاسَ قَدْرَ الدُّنْيَا وَ تَصْرِفُهَا بِأَهْلِهَا فَلَیَاتُ بِمَثَلِ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ فِي مَثَلِ هَذَا الْكَلَامِ الْفَصِيحِ وَ إِلا فَلَیْمَسُكَ فَإِنَّ السُّكُوتَ أَسْتَرَّ وَ الْعِيَّ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ يَفْضَحُ صَاحِبُهُ وَ مَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الْفَصْلَ عِلْمَ صَدَقٍ مَعَاوِيَةَ فِي قَوْلِهِ فِيهِ وَ اللَّهُ مَا سَنَّ

[153]

الفصاحة لقريش غيره و ينبغي لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس و تلى عليهم أن يسجدوا له كما سجد الشعراء
لقول عدي بن الرقاع

قلم أصاب من الدواة مدادها

فلما قيل لهم في ذلك قالوا إنا نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن . و إنني لأطيل التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدل على أن طبعه مناسب لطباع الأسود و النمر و أمثالهما من السباع الضارية ثم يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعدة بكلام يدل على أن طبعه مشاكل لطباع الرهبان لابس المسوح الذين لم يأكلوا لحما و لم يريقوا دما فتارة يكون في صورة بسطام بن قيس الشيباني و عتبية بن الحارث اليربوعي و عامر بن الطفيل العامري و تارة يكون في صورة سقراط الحبر اليوناني و يوحنا المعمدان الإسرائيلي و المسيح ابن مريم الإلهي . و أقسم بمن تقسم الأمم كلها به لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة و إلى الآن أكثر من ألف مرة ما قرأتها قط إلا و أحدثت عندي روعة و خوفا و عظة و أثرت في قلبي و جيبيا و في أعضائي رعدة و لا تأملتها إلا و ذكرت الموتى من أهلي و أقاربي و أرباب ودي و خيلت في نفسي أنني أنا ذلك الشخص الذي وصف ع حاله و كم قد قال الواعظون و الخطباء و الفصحاء في هذا المعنى و كم وقفت على ما قالوه و تكرر وقوفي عليه فلم أجد لشيء منه مثل تأثير هذا الكلام في نفسي فإما أن يكون ذلك لعقيدتي في قائله أو كانت نية القائل سالحة و يقينه كان ثابتا و إخلاصه كان محضا

[154]

خالصا فكان تأثير قوله في النفوس أعظم و سريان موعظته في القلوب أبلغ ثم نعود إلى تفسير الفصل فالبرزخ الحاجز بين الشينين و البرزخ ما بين الدنيا و الآخرة من وقت الموت إلى البعث فيجوز أن يكون البرزخ في هذا الموضع القبر لأنه حاجز بين الميت و بين أهل الدنيا كالحائط المبني بين اثنين فإنه برزخ بينهما و يجوز أن يريد به الوقت الذي بين حال الموت إلى حال النشور و الأول أقرب إلى مراده لأنه قال في بطون البرزخ و لفظة البطون تدل على التفسير الأول و لفظنا أكلت الأرض من لحومهم و شربت من دمانهم مستعارتان . و الفجوات جمع فجوة و هي الفرجة المتسعة بين الشينين قال سبحانه وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ وَ قد تفاجى الشيء إذا صارت له فجوة . و جمادا لا ينمون أي خرجوا عن صورة الحيوانية إلى صورة الجماد الذي لا ينمي و لا يزيد و يروى لا ينمون بتشديد الميم من النميمة و هي الهمس و الحركة و منه قولهم أسكت الله نامته في قول من شدد و لم يهمز . و ضمارا يقال لكل ما لا يرجى من الدين و الوعد و كل ما لا تكون

منه على ثقة ضمير . ثم ذكر أن الأهوال الحادثة في الدنيا لا تفرعهم و أن تنكر الأحوال بهم و بأهل الدنيا لا يحزنهم و يروى تحزنهم على أن الماضي رباعي . و مثله قوله لا يحفلون بالرواجف أي لا يكثرثون بالزلازل .

[155]

قوله و لا يأذنون للقواصف أي لا يسمعون الأصوات الشديدة أذنت لكذا أي سمعته . و جمع الغائب غيب و غيب و كلاهما مروى هاهنا و أراد أنهم شهود في الصورة و غير حاضرين في المعنى . و آلاف على فعال جمع ألف كالطراق جمع طارق و السمار جمع سامر و الكفار جمع كافر . ثم ذكر أنه لم تعم أخبارهم أي لم تستبهم أخبارهم و تنقطع عن بعد عهد بهم و لا عن بعد منزل لهم و إنما سقوا كأس المنون التي أخرجتهم بعد النطق و أصمتهم بعد السمع و أسكنتهم بعد الحركة . و قوله و بالسمع صمما أي لم يسمعوا فيها نداء المنادي و لا نوح النائح أو لم يسمع في قبورهم صوت منهم . قوله فكأنهم في ارتجال الصفة أي إذا وصفهم الواصف مرتجلا غير مترو في الصفة و لا متهيئ للقول . قال كأنهم صرعى سبات و هو نوم لأنه لا فرق في الصورة بين الميت حال موته و النائم المسبوت . ثم وصفهم بأنهم جيران إلا أنهم لا مؤانسة بينهم كجيران الدنيا و أنهم أحياء إلا أنهم لا يتزاورون كالأحباب من أهل الدنيا . و قوله أحياء جمع حبيب كخليل و أخلاء و صديق و أصدقاء . ثم ذكر أن عرا التعارف قد بليت منهم و انقطعت بينهم أسباب الإخاء و هذه كلها استعارات لطيفة مستحسنة .

[156]

ثم وصفهم بصفة أخرى فقال كل واحد منهم موصوف بالوحدة و هم مع ذلك مجتمعون بخلاف الأحياء الذين إذا انضم بعضهم إلى بعض انتفى عنه وصف الوحدة . ثم قال و بجانب الهجر و هم أخلاء أي و كل منهم في جانب الهجر و هم مع ذلك أهل خلة و مودة أي كانوا كذلك و هذا كله من باب الصناعة المعنوية و المجاز الرشيق . ثم قال إنهم لا يعرفون للنهار ليلا و لا لليل نهارا و ذلك لأن الواحد من البشر إذا مات نهارا لم يعرف لذلك النهار ليلا أبدا و إن مات ليلا لم يعرف لذلك الليل صباحا أبدا و قال الشاعر

لا بد من يوم بلا ليلة

أو ليلة تأتي بلا يوم

و ليس المراد بقوله أي الجديدين ظعنوا فيه كان عليهم سرمد أنهم و هم موتى يشعرون بالوقت الذي ماتوا فيه و لا يشعرون بما يتعقبه من الأوقات بل المراد أن صورة ذلك الوقت لو بقيت عندهم لبقيت أبدا من غير أن يزيلها وقت آخر يطرأ عليها و يجوز أن يفسر على مذهب من قال ببقاء الأنفس فيقال إن النفس التي تفارق ليلا تبقى الصورة الليلية و الظلمة حاصلة عندها أبدا لا تزول بطران نهار عليها لأنها قد فارقت الحواس فلا سبيل لها إلى أن يرتسم فيها شيء من المحسوسات بعد المفارقة و إنما حصل ما حصل من غير زيادة عليه و كذلك الأنفس التي تفارق نهارا

بعض الأشعار و الحكايات في وصف القبور و الموتى

و اعلم أن الناس قد قالوا في حال الموتى فأكثرها فمن ذلك قول الرضي أبي الحسن رحمه الله تعالى

[157]

أعزز علي بأن نزلت بمنزل
متشابه الأمجاد بالأوغاد
في عصابة جنبوا إلى آجالهم
و الدهر يعجلهم عن الإرواد
ضربوا بمدرجة الفناء قبابهم
من غير أطناب و لا أعماد
ركب أناخوا لا يرجى منهم
قصد لإتهام و لا إنجاز
كرهوا النزول فأنزلتهم وقعة
للدهر باركة بكل مفاد
فتهافتوا عن رحل كل مذل
و تطاوحوا عن سرج كل جواد
بادون في صور الجميع و إنهم
متفردون تفرد الأحاد

قوله بادون في صور الجميع مأخوذ من قول أمير المؤمنين ع فكلهم وحيد و هم جميع . و قال أيضا

و لقد حفظت له فأين حفاظه
و لقد وفيت له فأين وفاؤه
أوعى الدعاء فلم يجبه قطيعة
أم ضل عنه من البعاد دعاؤه
هيهات أصبح سمعه و عيانه
في الترب قد حجبتها أقذاؤه
يمسي و لين مهاده حصابؤه
فيه و مؤنس ليله ظلماؤه
قد قلبت أعيانه و تنكرت
أعلامه و تكسفت أضواؤه

مغف و ليس للذة إغفاؤه
مغض و ليس لفكرة إغضاؤه
وجه كلمع البرق غاض و ميضه
قلب كصدر العضب فل مضاه
حكم البلى فيه فلو تلقى به
أعداءه لرتى له أعداؤه

و قال أبو العلاء

أستغفر الله ما عندي لكم خبر
و ما خطابي إلا معشرا قبروا
أصبحتم في البلى غبرا ملابسكم
من الهباء فأين البرد و القطر
كنتم على كل خطب فادح صبرا
فهل شعرتم و قد جادتكم الصبر
و ما درى يوم أحد بالذين ثووا
فيه و لا يوم بدر أنهم نصروا

و قال أبو عارم الكلابي

أجازعة ردينة أن أتاها
نعبي أم يكون لها اصطبار
إذا ما أهل قبيري و دعوني
و راحوا و الأكف بها غبار
و غودر أعظمي في لحد قبر
تراوحه الجنان و القطار
تهب الريح فوق محط قبيري
و يرعى حوله اللهق النوار
مقيم لا يكلمه صديق
بقبر لا أزور و لا أزار
فذاك النأي لا الهجران حولا
و حولا ثم تجتمع الديار

مر الإسكندر بمدينة قد ملكها سبعة أملاك من بيت واحد و بادوا فسأل هل بقي من نسلهم أحد قالوا بقي واحد و هو يلزم المقابر فدعا به فسأله لم تلزم المقابر قال أردت أن أميز عظام الملوك من عظام عبيدهم فوجدتها سواء قال هل لك أن تلزمني حتى أنيلك بغيتك قال لو علمت أنك تقدر على ذلك للزمتك قال و ما بغيتك

[159]

قال حياة لا موت معها قال لن أقدر على ذلك قال فدعني أطلبه ممن يقدر عليه .

قال النبي ص ما رأيت منظرا إلا و القبر أفضع منه و

قال ص القبر أول منزل من منازل الآخرة فمن نجا منه فما بعده أيسر و من لم ينج فما بعده شر له . مر عبد الله بن عمر رضي الله عنه بمقبرة فصلى فيها ركعتين و قال ذكرت أهل القبور و أنه حيل بينهم و بين هذا فأحببت أن أتقرب بهما إلى الله فإن قلت ما معنى قوله ع و بجانب الهجر و أي فائدة في لفظة جانب في هذا الموضع . قلت لأنهم يقولون فلان في جانب الهجر و في جانب القطيعة و لا يقولون في جانب الوصل و في جانب المصافاة و ذلك أن لفظة جنب في الأصل موضوعة للمباعدة و منه قولهم الجار جنب و هو جارك من قوم غرباء يقال جنبت الرجل و أجنبته و تجنبته و تجانبته كله بمعنى و رجل أجنبي و أجنب و جنب و جانب كله بمعنى . قوله ع شاهدوا من أخطار دارهم المعنى أنه شاهد المتقون من آثار الرحمة و أماراتها و شاهد المجرمون من آثار العقوبة و أماراتها عند الموت و الحصول في القبر أعظم مما كانوا يسمعون و يظنون أيام كونهم في الدنيا . ثم قال فكلا الغايتين مدت المعنى مدت الغايتان غاية الشقي منهم و غاية السعيد .

[160]

إلى مباءة أي إلى منزل يعظم حاله عن أن يبلغه خوف خانف أو رجاء راج و تلك المباءة هي النار أو الجنة و تقول قد استبأ الرجل أي اتخذ مباءة و أبأت الإبل رددتها إلى مباءتها و هي معانها . ثم قال فلو كانوا ينطقون بها لعيوا بتشديد الياء قال الشاعر

عيوا بأمرهم كما
عيت ببيضتها الحمامة
جعلت لها عودين من
نشم و آخر من ثمامة

و روي لعيوا بالتخفيف كما تقول حيوا قالوا ذهبت الياء الثانية لالتقاء الساكنين لأن الواو ساكنة و ضمت الياء الأولى لأجل الواو قال الشاعر

و كنا حسبناهم فوارس كهمس
حيوا بعد ما ماتوا من الدهر أعصرا

قوله لقد رجعت فيهم يقال رجع البصر نفسه و رجع زيد بصره يتعدى و لا يتعدى يقول تكلموا معنى لا صورة فأدرت حالهم بالأبصار و الأسماع العقلية لا الحسية و كلحت الوجوه كلوحا و كلاحا و هو تكشر في عبوس . و النواضر النواعم و النضرة الحسن و الرونق . و خوت الأجساد النواعم خلت من دمها و رطوبتها و خشوتها و يجوز أن يكون خوت أي سقطت قال تعالى **فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** و الأهدام جمع هدم و هو الثوب البالي قال أوس

و ذات هدم عار نواشرها

تصمت بالماء تولبا جذعا

[161]

و تكاءدنا شق علينا و منه عقبة كنود و يجوز تكأدنا جاءت هذه الكلمة في أخوات لها تفعل و تفاعل بمعنى و مثله تعهد الضيعة و تعاهدا . و يقال قوله و توارثنا الوحشة كأنه لما مات الأب فاستوحش أهله منه ثم مات الابن فاستوحش منه أهله أيضا صار كان الابن ورث تلك الوحشة من أبيه كما تورث الأموال و هذا من باب الاستعارة . قوله و تهدمت علينا الربوع يقال تهدم فلان على فلان غضبا إذا اشتد غضبه و يجوز أن يكون تهدمت أي تساقطت و روي و تهكمت بالكاف و هو كقولك تهدمت بالتفسيرين جميعا و يعني بالربوع الصموت القبور و جعلها صموتا لأنه لا نطق فيها كما تقول ليل قائم و نهار صائم أي يقام و يصام فيهما و هذا كله على طريق الهز و التحريك و إخراج الكلام في معرض غير المعرض المعهود جعلهم لو كانوا ناطقين مخبرين عن أنفسهم لأتوا بما وصفه من أحوالهم و ورد في الحديث أن عمر حضر جنازة رجل فلما دفن قال لأصحابه قفوا ثم ضرب فأمعن في القبور و استبطأه الناس جدا ثم رجع و قد احمرت عيناه و انتفخت أوداجه فقيل أبطأت يا أمير المؤمنين فما الذي حبسك قال أتيت قبور الأحبة فسلمت فلم يردوا علي السلام فلما ذهبت ألقى ناداني التراب فقال أ لا تسألني يا عمر ما فعلت باليدين قلت ما فعلت بهما قال قطعت الكفين من الرسغين و قطعت الرسغين من الذراعين و قطعت الذراعين من المرفقين و قطعت المرفقين من العضدين و قطعت العضدين من المنكبين و قطعت المنكبين من الكتفين فلما ذهبت ألقى ناداني التراب فقال أ لا تسألني يا عمر ما فعلت بالأبدان و الرجلين قلت ما فعلت قال قطعت الكتفين من الجنبين و قطعت الجنبين من الصلب و قطعت الصلب من الوركين و قطعت الوركين من الفخذين و قطعت الفخذين من الركبتين

[162]

و قطعت الركبتين من الساقين و قطعت الساقين من القدمين فلما ذهبت ألقى ناداني التراب فقال يا عمر عليك بأكفان لا تبلى فقلت و ما أكفان لا تبلى قال تقوى الله و العمل بطاعته و هذا من الباب الذي نحن بصدده نسب الأقوال المذكورة إلى التراب و هو جماد و لم يكن ذلك و لكنه اعتبر فانقدحت في نفسه هذه المواظ الحكمية فأفرغها في قالب الحكاية و رتبها على قانون المسألة و الإجابة و أضافها إلى جماد موات لأنه أهر لسامعها إلى تدبرها و لو قال نظرت فاعتبرت في حال الموتى فوجدت التراب قد قطع كذا من كذا لم تبلغ عظته المبلغ الذي بلغته حيث أودعها في الصورة التي اخترعها . قوله ع فلو مثلتهم بعقلك أو كشف عنهم محجوب الغطاء لك إلى آخر جواب لو هذا الكلام أخذه ابن نباتة بعينه فقال فلو كشفتم عنهم أغطية الأجداد بعد ليلتين أو ثلاث لوجدتم الأهداق على الخدود سائلة و الألوان من ضيق اللحود حائلة و هوام الأرض في نواعم الأبدان جانلة و الرعوس الموسدة على الأيمان زائلة ينكرها من كان لها عارفا و يفر عنها من لم يزل

لها أنفا . قوله ع ارتسخت أسماعهم ليس معناه ثبتت كما زعمه الراوندي لأنها لم تثبت و إنما ثبتت الهوام فيها بل الصحيح أنه من رسخ الغدير إذا نش ماؤه و نضب و يقال قد ارتسخت الأرض بالمطر إذا ابتلعتة حتى يلتقي الثريان . و استكت أي ضاقت و انسدت قال النابغة

و نبتت خير الناس أنك لمتني
و تلك التي تستك منها المسامع

[163]

قوله و اكتحلت أبصارهم بالتراب فحسفت أي غارت و ذهبت في الرأس و أخذ المتنبى قوله و اكتحلت أبصارهم بالتراب فقال

يدفن بعضنا بعضا و يمشي
أواخرنا على هام الأوالي
و كم عين مقبلة النواحي
كحيل بالجنادل و الرمال
و مغض كان لا يغضي لخطب
و بال كان يفكر في الهزال

و ذلاقة الألسن حدثها نلق اللسان و السنان يذلق ذلقا أي ذرب فهو ذلق و أذلق . و همدت بالفتح سكنت و خمدت و عاث أفسد و قوله جديد بلى من فن البديع لأن الجدة ضد البلى و قد أخذ الشاعر هذه اللفظة فقال

يا دار غادرني جديد بلاك
رث الجديد فهل رثيث لذاك

و سمجها قبج صورتها و قد سمج الشيء بالضم فهو سمج بالسكون ثم ضخم فهو ضخم و يجوز فهو سمج بالكسر مثل خشن فهو خشن . قوله و سهل طرق الآفة إليها و ذلك أنه إذا استولى العنصر الترابي على الأعضاء قوي استعدادها للاستحالة من صورتها الأولى إلى غيرها . و مستسلمات أي منقادة طائعة غير عاصية فليس لها أيد تدفع عنها و لا لها قلوب تجزع و تحزن لما نزل بها . و الأشجان جمع شجن و هو الحزن . و الأقداء جمع قذى و هو ما يسقط في العين فيؤذيها .

[164]

قوله صفة حال لا تنتقل أي لا تنتقل إلى حسن و صلاح و ليس يريد لا تنتقل مطلقا لأنها تنتقل إلى فساد و اضمحلال . و رجل عزيز أي حدث و عزيز الجسد أي طري و أنيق اللون معجب اللون و غذي ترف قذ غذي بالترف و هو التمتع المطغي . و ربيب شرف أي قد ربي في الشرف و العز و يقال رب فلان ولده يربه ربا و رباه يربيه تربية . و يتعلل بالسرور يتلهى به عن غيره و يفزع إلى السلوة يلتجئ إليها و ضنا أي بخلا و غضارة العيش نعيمه و لينه . و شحاحة أي بخلا شححت

بالكسر أشح و شححت أيضا بالفتح أشح و أشح بالضم و الكسر شحا و شحاحة و رجل شحيح و شحاح بالفتح و قوم شحاح و أشحة . و يضحك إلى الدنيا و تضحك إليه كناية عن الفرح بالعمر و العيشة و كذا كل واحد منهما يضحك إلى صاحبه لشدة الصفاء كأن الدنيا تحبه و هو يحبها . و عيش غفول قد غفل عن صاحبه فهو مستغرق في العيش لم ينتبه له الدهر فيكدر عليه وقته قال الشاعر

و كان المرء في غفلات عيش

كأن الدهر عنها في وثاق

و قال الآخر

ألا إن أحلى العيش ما سمحت به

صروف الليلي و الحوادث نوم

قوله إذ وطئ الدهر به حسكة أي إذ أوطأه الدهر حسكة و الهاء في حسكة ترجع إلى الدهر عدي الفعل بحرف الجر كما تقول قام زيد بعمره أي أقامه .

[165]

و قواه جمع قوة و هي المرة من مرائر الحبل و هذا الكلام استعارة . و من كتب من قرب و البث الحزن و البث أيضا الأمر الباطن الدخيل . و نجي الهم ما ينجيك و يسارك و الفترات أوائل المرض . و آنس ما كان بصحته منصوب على الحال و قال الراوندي في الشرح هذا من باب أخطب ما يكون الأمير قائما ثم ذكر أن العامل في الحال فترات قال تقديره فترات آنس ما كان و ما ذكره الراوندي فاسد فإنه ليس هذا من باب أخطب ما يكون الأمير قائما لأن ذلك حال سد مسد خبر المبتدأ و ليس ها هنا مبتدأ و أيضا فليس العامل في الحال فترات و لا فتر بل العامل تولدت و القار البارد . فإن قلت لم قال تسكين الحار بالقار و تحريك البارد بالحرار و لأي معنى جعل الأول التسكين و الثاني التحريك قلت لأن من شأن الحرارة التهييج و التثوير فاستعمل في قهرها بالبارد لفظة التسكين و من شأن البرودة التخدير و التجميد فاستعمل في قهرها بالحرار لفظة التحريك . قوله و لا اعتدل بممازج لتلك الطبائع إلا أمد منها كل ذات داء أي و لا استعمل دواء مفردا معتدل المزاج أو مركبا كذلك إلا و أمد كل طبيعة منها ذات مرض بمرض زائد على الأول . و ينبغي أن يكون قوله و لا اعتدل بممازج أي و لا رام الاعتدال لممتزج لأنه لو حصل له الاعتدال لكان قد برئ من مرضه فسمي محاولة الاعتدال اعتدالا لأنه بالاستدلال المعتدلات قد تهيأ للاعتدال فكان قد اعتدل بالقوة . و ينبغي أيضا أن يكون قد حذف مفعول أمد و تقديره بمرض كما قدرناه نحن و حذف المفعولات كثير واسع .

[166]

قوله حتى فتر معلله لأن معللي المرض في أوائل المرض يكون عندهم نشاط لأنهم يرجون البرء فإذا رأوا أمارات الهلاك فترت همتهم . قوله و ذهل ممرضه ذهل بالفتح و هذا كالأول لأن الممرض إذا أعيا عليه المرض و انسدت عليه أبواب التدبير يذهل . قوله و تعايا أهله بصفة دانه أي تعاطوا العي و تساكنتوا إذا سنلوا عنه و هذه عادة أهل المريض المثقل

يجمعون إذا سنلوا عن حاله . قوله و تنازعوا دونه شجى خبر يكتمونه أي تخاصموا في خبر ذي شجى أي خبر ذي غصة يتنازعونه و هم حول المريض سترنا دونه و هو لا يعلم بنجواهم و بما يفيضون فيه من أمره . فقاتل منهم هو لمآبه أي قد أشفى على الموت و آخر يمنيهم إياب عافيته أي عودها أب فلان إلى أهله أي عاد . و آخر يقول قد رأينا مثل هذا و من بلغ إلى أعظم من هذا ثم عوفي فيمني أهله عود عافيته . و آخر يصبر أهله على فقده و يذكر فضيلة الصبر و ينهاهم عن الجزع و يروي لهم أخبار الماضين . و أسى أهلهم و الأسى جمع أسوة و هو ما يتأسى به الإنسان قالت الخنساء

و ما يبكون مثل أخي و لكن
أسلى النفس عنه بالتأسي

قوله على جناح من فراق الدنيا أي سرعان ما يفارقها لأن من كان على جناح طائر فأوشك به أن يسقط .

[167]

قوله إذ عرض له عارض يعني الموت و من غصصه جمع غصة و هو ما يعترض مجرى الأنفاس و يقال إن كل ميت من الحيوان لا يموت إلا خنقا و ذلك لأنه من النفس يدخل فلا يخرج عوضه أو يخرج فلا يدخل عوضه و يلزم من ذلك الاختناق لأن الرنة لا تبقى حينئذ مروحة للقلب و إذا لم تروحه اختنق . قوله فتحيرت نوافذ فطنته أي تلك الفطنة النافذة الثاقبة تحيرت عند الموت و تبلدت . قوله و يبست رطوبة لسانه لأن الرطوبة اللعابية التي بها يكون الذوق تنشف حينئذ و يبطل الإحساس باللسان تبعا لسقوط القوة . قوله فكم من مهم من جوابه عرفه فعي عن رده نحو أن يكون له مال مدفون يسأل عنه حال ما يكون محتضرا فيحاول أن يعرف أهله به فلا يستطيع و يعجز عن رد جوابهم و قد رأينا من عجز عن الكلام فأشار إشارة فهموا معناها و هي الدواة و الكاغذ فلما حضر ذلك أخذ القلم و كتب في الكاغذ ما لم يفهم و يده ترعد ثم مات قوله و دعاء مؤلم لقلبه سمعه فتصام عنه أظهر الصمم لأنه لا حيلة له . ثم وصف ذلك الدعاء فقال من كبير كان يعظمه نحو صراخ الوالد على الولد و الولد يسمع و لا يستطيع الكلام و صغير كان يرحمه نحو صراخ الولد على الوالد و هو يسمع و لا قدرة له على جوابه . ثم ذكر غمرات الدنيا فقال إنها أفضع من أن تحيط الصفات بها و تستغرقها أي تأتي على كنهها و تعبر عن حقائقها . قوله أو تعتدل على عقول أهل الدنيا هذا كلام لطيف فصيح غامض و معناه

[168]

أن غمرات الموت و أهواله عظيمة جدا لا تستقيم على العقول و لا تقبلها إذا شرحت لها و وصفت كما هي على الحقيقة بل تنبو عنها و لا نصدق بما يقال فيها فعبير عن عدم استقامتها على العقول بقوله أو يعتدل كأنه جعلها كالشيء المعوج عند العقل فهو غير مصدق به

إيراد أشعار و حكايات في وصف الموت و أحوال الموتى

و مما يناسب ما ذكر من حال الإنسان قول الشاعر

بيننا الفتى مرح الخطا فرحا بما
يسعى له إذ قيل قد مرض الفتى
إذ قيل بات بليلة ما نامها
إذ قيل أصبح مثقلا ما يرتجى
إذ قيل أمسى شاخصا و موجهها
إذ قيل فارقهم و حل به الردى

و قال أبو النجم العجلي

و المرء كالحالم في المنام
يقول إنني مدرك أمامي
في قابل ما فاتني في العام
و المرء يدنيه إلى الحمام
مر الليلي السود و الأيام
إن الفتى يصبح للأسقام
كالغرض المنصوب للسهام
أخطأ رام و أصاب رام

و قال عمران بن حطان

أ في كل عام مرضة ثم نقهة
و ينعى و لا ينعى متى ذا إلى متى

[169]

و لا بد من يوم يجيء و ليلة
يسوقان حتفا راح نحوك أو غدا

و

جاء في الحديث أن رسول الله ص مر بمقبرة فنأدى يا أهل القبور الموحشة و الربوع المعطلة أ لا أخبركم بما حدث بعدكم
تزوج نساؤكم و تبونت مساكنكم و قسمت أموالكم هل أنتم مخبرون بما عاينتم ثم قال ألا إنهم لو أذن لهم في الجواب لقالوا

وجدنا خير الزاد التقوى . و نظر الحسن إلى رجل يجود بنفسه فقال إن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله و إن أمرا هذا أوله لجدير أن يخاف آخره . و قال عبده بن الطبيب و يعجبني قوله على الحال التي كان عليها فإنه كان أسود لصا من لصوص بني سعد بن زيد مناه بن تميم .

و لقد علمت بأن قصري حفرة
غبراء يحملني إليها شرجم
فبكى بناتي شجوهن و زوجتي
و الأقربون إلي ثم تصدعوا
و تركت في غبراء يكره وردها
تسفي على الريح ثم أودع
أن الحوادث يخترمن و إنما
عمر الفتى في أهله مستودع

و نظير هذه الأبيات في رويها و عروضها قول متمم بن نويرة اليربوعي

و لقد علمت و لا محالة أنني
للحادثات فهل تريني أجزع
أهلكن عادا ثم آل محرق
فتركنهم بلدا و ما قد جمعوا

[170]

و لهن كان الحارثان كلاهما
و لهن كان أخو المصانع تبع
فعددت آباني إلى عرق الثرى
فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا
ذهبوا فلم أدركهم ودعتهم
غول أتوها و الطريق المهيع
لا بد من تلف مصيب فانتظر
أ بأرض قومك أم بأخرى تصرع
و ليأتين عليك يوم مرة
يبكى عليك مقتنعا لا تسمع

لما فتح خالد بن الوليد عين التمر سال عن الحرقة بنت النعمان بن المنذر فدل عليها فأتاها و كانت عمياء فسألها عن حالها فقالت لقد طلعت علينا الشمس ما شيء يدب تحت الخورنق إلا تحت أيدينا ثم غربت و قد رحمنا كل من يدور به و ما

و بينا نسوس الناس و الأمر أمرنا
إذا نحن فيه سوقة نتنصف
فأف لدنيا لا يدوم نعيمها
تقلب تارات بنا و تصرف

فقال قائل ممن كان حول خالد قاتل الله عدي بن زيد لكأنه ينظر إليها حين يقول

إن للدهر صرعة فاحذرنها
لا تبيتن قد أمنت الدهورا
قد ببيت الفتى معافى فيردى
و لقد كان آمنا مسرورا

دخل عبد الله بن العباس على عبد الملك بن مروان يوم قر و هو على فرش

[171]

يكاد يغيب فيها فقال يا ابن عباس إني لأحسب اليوم باردا قال أجل و إن ابن هند عاش في مثل ما ترى عشرين أميرا و
عشرين خليفة ثم هو ذاك على قبره ثمامة تهتز . فيقال إن عبد الملك أرسل إلى قبر معاوية فوجد عليه ثمامة نابثة . كان
محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره ببغداد على دجلة فإذا بحشيش على وجه الماء في وسطه قصبه على رأسها رقعة
فأمر بها فوجد هذا

تاه الأعيرج و استولى به البطر
فقل له خير ما استعملته الحذر
أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت
و لم تخف سوء ما يأتي به القدر
و سالمتك الليلي فاعتررت بها
و عند صفو الليلي يحدث الكدر

فلم ينتفع بنفسه أياما . عدي بن زيد

أيها الشامت المعير بالدهر
أ أنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام
بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من

ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أنو شروان
أم أين قبله سابور
و بنو الأصفر الكرام ملوك الروم
و لم يبق منهم مذكور

[172]

و أخو الحضرة إذ بناه و إذ دجلة
تجبي إليه و الخابور
لم يهبه ريب المنون فباد
الملك عنه فبابه مهجور
شاده مرمرًا و جلله كلسا
فلطير في ذراه و كور
و تبين رب الخورنق إذ أشرف
يوما و للهدى تفكير
سره حاله و كثرة ما يملك
و البحر معرضا و السدير
فارعوى قلبه و قال فما غبطة
حي إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح و الملك و الأمة
وارتهم هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف
فألوت به الصبا و الدبور

قد اتفق الناس على أن هذه الأبيات أحسن ما قيل من القريض في هذا المعنى و أن الشعراء كلهم أخذوا منها و احتذوا في
هذا المعنى حذوها . و قال الرضي أبو الحسن رضي الله عنه

انظر إلى هذا الأتم بعبرة
لا يعجرك خلقه و رواؤه
فتراه كالورق النضير تقصفت
أغصانه و تسلبت شجراؤه
أنى تحاماه المنون و إنما
خلقت مراعي للردى خضراؤه

أم كيف تأمل فلتة أجساده
من ذا الزمان و حشوها أدواؤه

[173]

لا تعجبن فما العجيب فناؤه
بيد المنون بل العجيب بقاؤه
إننا لنعجب كيف حم حمامه
عن صحة و يغيب عنا داؤه
من طاح في سبيل الردى آباؤه
فليسكن طريقهم أبناؤه
و مؤمر نزلوا به في سوقه
لا شكله فيهم و لا نظراؤه
قد كان يفرق ظله أقرانه
و يغض دون جلاله أكفاؤه
و محجب ضربت عليه مهابة
يعشي العيون بهاؤه و ضياؤه
نادته من خلف الحجاب منية
أمم فكان جوابها حوباؤه
شقت إليه سيوفه و رماحه
و أميط عنه عبيده و إماؤه
لم يغنه من كان ود لو أنه
قبل المنون من المنون فداؤه
حرم عليه الذل إلا أنه
أبدا ليشهد بالجلال بناؤه
متخشع بعد الأنيس جنابه
متضائل بعد القطين فناؤه
عريان تطرد كل ريح ترابه
و يطيع أول أمرها حصباؤه
و لقد مررت ببرزخ فسألته
أين الألى ضمتهم أرجاؤه
مثل المطي بواركا أجدائه
تسفي على جنباتها بوغاؤه

ناديته فخفى علي جوابه
بالقول إلا ما زقت أصدائه

[174]

من ناظر مطروفه ألاحظه
أو خاطر مظلولة سودائه
أو واجد مكظومة زفراته
أو حاقد منسية شحناؤه
و مسندين على الجنوب كأنهم
شرب تخاذل بالطلا أعضائه
تحت الصعيد لغير إشفاق إلى
يوم المعاد يضمهم أحشاؤه
أكلتهم الأرض التي ولدتهم
أكل الضروس حلت له أكلؤه

و قال أيضا

و تفرق البعداء بعد تجمع
صعب فكيف تفرق القرباء
و خلانق الدنيا خلانق مومس
للمنع آونة و للإعطاء
طورا تبادلك الصفاء و تارة
تلقاك تنكرها من البغضاء
و تداول الأيام يبيلينا كما
يبلي الرشاء تطاوح الأرجاء
و كان طول العمر راحة راكب
قضى اللغوب و جد في الإسراء
لهفي على القوم الأولى غادرتهم
و عليهم طبق من البيداء

[175]

متوسدين على الخدود كأنما
كرعوا على ظمأ من الصهباء

صور ضننت على العيون بلحظها

أمسيت أوقرها من البوغاء

و نواظر كحل التراب جفونها

قد كنت أحرسها من الأقداء

قربت ضرائحهم على زوارها

و نأوا عن الطلاب أي تناء

و لبئس ما يلقي بعقر ديارهم

أذن المصيخ بها و عين الراني

217 و من كلام له ع قاله عند تلاوته

يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جَلَاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوُفْرَةِ وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ وَمَا بَرِحَ لِلَّهِ عَزَّتْ الْأَوْهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ وَ فِي أَرْمَانَ الْفَتْرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَ كَلْمَتِهِمْ فِي ذَاتِ عَقُولِهِمْ فَاسْتَصَبَحُوا بِنُورِ يَقْظَةٍ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ وَالْأَفْنِدَةِ يَذْكُرُونَ بِأَيَّامِ اللَّهِ وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأَدَلَّةِ فِي الْفَلَوَاتِ مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ وَ بَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ وَ مَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَ شِمَالًا دُمُوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ وَ حَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ وَ كَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَ أَدَلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ وَ إِنَّ لِلذِّكْرِ لِأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْهُ يَفْطَنُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَ يَهْتَفُونَ بِالرَّوَاكِيرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فِي أَسْمَاعِ الْعَافِلِينَ وَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَ يَأْتَمِرُونَ بِهِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يَنْتَاهُونَ عَنْهُ فَكَأَنَّهُمْ قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ وَ هُمْ فِيهَا فَشَاهِدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ فَكَأَنَّمَا

[177]

إِطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبُرْزَخِ فِي طُولِ الْإِقَامَةِ فِيهِ وَ حَقَّقَتِ الْإِقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى كَانَتْهُمْ يَرُونَ مَا لَا يَرَى النَّاسُ وَ يَسْمَعُونَ مَا لَا يَسْمَعُونَ فَلَوْ مَثَلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمُحْمُودَةِ وَ مَجَالِسِهِمُ الْمَشْهُودَةِ وَ قَدْ نَشَرُوا دَوَابِينَ أَعْمَالِهِمْ وَ فَرَعُوا لِمَحَاسِنِهِمْ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وَ كَبِيرَةٍ أَمَرُوا بِهَا فَقَصَرُوا عَنْهَا أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا وَ حَمَلُوا ثِقْلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ فَضَعُفُوا عَنِ الْإِسْتِقْلَالِ بِهَا فَتَشَجُّوا نَشِيجًا وَ تَجَاوَبُوا نَحِيبًا يَجْعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامٍ نَدِيمٍ وَ اعْتِرَافٍ لِرَأَيْتِ أَعْلَامَ هُدًى وَ مَصَابِيحَ دُجَى قَدْ حَقَّتْ بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَ تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَ فَتَحَتْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَ أَعَدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدَ الْكَرَامَاتِ فِي مَقْعَدِ إِطَّلَعِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ فَرَضِي سَعِيهِمْ وَ حَمِدَ مَقَامَهُمْ يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رُوحَ التَّجَاوُزِ رَهَائِنِ فَاقَةِ إِلَى فَضْلِهِ وَ أَسَارَى ذَلَّةِ لِعَظَمَتِهِ جَرَحَ طُولَ الْأَسَى قُلُوبَهُمْ وَ طُولَ الْبُكَاءِ عِيُونَهُمْ لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدُّ قَارِعَةً يَسْأَلُونَ مَنْ لَا تَضِيْقُ لُدَيْهِ الْأَمْنَادِحُ وَ لَا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ مَنْ قَرَأَ يَسْبِيحُ لَهُ فِيهَا بَفَتْحِ الْبَاءِ ارْتَفَعَ رِجَالٌ عِنْدَهُ بَوَجْهِينَ

[178]

أحدهما أن يضمر له فعل يكون هو فاعله تقديره يسبحه رجال و دل على يسبحه يسبح كما قال الشاعر

ليبيك يزيد ضارع لخصومة

و مختبئ مما تطيح الطوانح

أي يبكيه ضارع و دل على يبكيه ليبيك . و الثاني أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره المسبحون رجال و من قرأ **يُسَبِّحُ لَهُ** **فِيهَا** بكسر الباء فرجال فاعل و أوقع لفظ التجارة في مقابلة لفظ البيع إما لأنه أراد بالتجارة هاهنا الشراء خاصة أو لأنه عمم بالتجارة المشتمة على البيع و الشراء ثم خص البيع لأنه أدخل في باب الإلهاء لأن البيع يحصل ربحه بيقين و ليس كذلك الشراء و الذكر يكون تارة باللسان و تارة بالقلب فالذي باللسان نحو التسبيح و التكبير و التهليل و التحميد و الدعاء و الذي بالقلب فهو التعظيم و التبجيل و الاعتراف و الطاعة . و جلوت السيف و القلب جلاء بالكسر و جلوت اليهود عن

المدينة جلاء بالفتح . و الوقرة الثقل في الأذن و العثوة بالفتح فعلة من العشا في العين و آؤه نعمه . فإن قلت أي معنى تحت قوله عزت آؤه و عزت بمعنى قلت و هل يجوز مثل ذلك في تعظيم الله . قلت عزت هاهنا ليس بمعنى قلت و لكن بمعنى كرمت و عظمت تقول منه عززت على فلان بالفتح أي كرمت عليه و عظمت عنده و فلان عزيز علينا أي كريم معظم .

[179]

و البرهة من الدهر المدة الطويلة و يجوز فتح الباء . و أزمان الفترات ما يكون منها بين النوبتين . و ناجاهم في فكرهم ألهمهم بخلاف مناجاة الرسل ببعث الملائكة إليهم و كذلك و كلمهم في ذات عقولهم فاستصبحوا بنور يقظة صار ذلك النور مصباحا لهم يستضيئون به . قوله من أخذ القصد حمدوا إليهم طريقه إلى هاهنا هي التي في قولهم أحمد الله إليك أي منهيًا ذلك إليك أو مفضيا به إليك و نحو ذلك و طريقة العرب في الحذف في مثل هذا معلومة قال سبحانه **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً** أي لجعلنا بدلا منكم ملائكة و قال الشاعر

فليس لنا من ماء زمزم شربة

مبردة بانث على طهيان

أي عوضا من ماء زمزم . قوله و من أخذ يمينا و شمالا أي ضل عن الجادة . و إلى في قوله ذموا إليه الطريق مثل إلى الأولى . و يهتفون بالزواج يصوتون بها هتفت الحمامة تهتف هتفا و هتف زيد بالغنم هتافا بالكسر و قوس هتافة و هتفى أي ذات صوت . و القسط العدل و يأترون به يمتثلون الأمر . و قوله فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة إلى قوله و يسمعون ما لا يسمعون هو شرح

قوله عن نفسه ع لو كشف الغطاء ما ازدت يقينا . و الأوزار الذنوب و النشيج صوت البكاء و المقعد موضع القعود .

[180]

و يد قارعة تطرق باب الرحمة و هذا الكلام مجاز . و المنادح المواضع الواسعة . و على في قوله و لا يخيب عليه الراغبون متعلقة بمحذوف مثل إلى المتقدم ذكرها و التقدير نادمين عليه . و الحسيب المحاسب . و اعلم أن هذا الكلام في الظاهر صفة حال القصاص و المتصددين لإنكار المنكرات ألا تراه يقول يذكرون بأيام الله أي بالأيام التي كانت فيها النعمة بالعصاة و يخوفون مقامه من قوله تعالى **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ** ثم قال فمن سلك القصد حمدوه و من عدل عن الطريق ذموا طريقه و خوفوه الهلاك ثم قال يهتفون بالزواج عن المحارم في أسماع الغافلين و يأمرسون بالقسط و ينهون عن المنكر . و هذا كله إيضاح لما قلناه أولا إن ظاهر الكلام شرح حال القصاص و أرباب المواعظ في المجامع و الطرقات و المتصددين لإنكار القبائح و باطن الكلام شرح حال العارفين الذين هم صفوة الله تعالى من خلقه و هو ع دائما يكني عنهم و يرمز إليهم على أنه في هذا الموضع قد صرح بهم في قوله حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس و يسمعون ما لا يسمعون . و قد ذكر من مقامات العارفين في هذا الفصل الذكر و محاسبة النفس و البكاء و النحيب و الندم و التوبة و الدعاء و العفاة و الذلة و الحزن و هو الأسى الذي ذكر أنه جرح قلوبهم بطوله

بيان أحوال العارفين

و قد كنا وعدنا بذكر مقامات العارفين فيما تقدم و هذا موضعه فنقول إن أول مقام من مقامات العارفين و أول منزل من منازل السالكين التوبة قال الله تعالى **و تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** و

قال النبي ص التائب من الذنب كمن لا ذنب له و

قال علي ع ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب . و التوبة في عرف أرباب هذه الطريقة الندم على ما عمل من المخالفة و ترك الزلة في الحال و العزم على ألا يعود إلى ارتكاب معصية و ليس الندم وحده عند هؤلاء توبة و إن جاء

في الخبر الندم توبة لأنه على وزن قوله ع الحج عرفة ليس على معنى أن غيرها ليس من الأركان بل المراد أنه أكبر الأركان و أهمها و منهم من قال يكفي الندم وحده لأنه يستتبع الركنيين الآخرين لاستحالة كونه نادما على ما هو مصر على مثله أو ما هو عازم على الإتيان بمثله . قالوا و للتوبة شروط و ترتيبات فأول ذلك انتباه القلب من رقد الغفلة و رؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة و إنما يصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه يسمع قلبه فإن

في الخبر النبوي عنه ص واعظ كل حال الله في قلب كل امرئ مسلم و

في الخبر أن في بدن المرء لمضغة إذا صلحت صلح جميع البدن ألا و هي القلب و إذا فسدت فسد جميع البدن ألا و هي القلب .

[182]

و إذا فكر العبد بقلبه في سوء صنيعه و أبصر ما هو عليه من ذميم الأفعال سنحت في قلبه إرادة التوبة و الإقلاع عن قبيح المعاملة فيمده الحق سبحانه بتصحيح العزيمة و الأخذ في طرق الرجوع و التأهب لأسباب التوبة . و أول ذلك هجران إخوان السوء فإنهم الذين يحملونه على رد هذا القصد و عكس هذا العزم و يشوشون عليه صحة هذه الإرادة و لا يتم ذلك له إلا بالمواظبة على المشاهد و المجالس التي تزيده رغبة في التوبة و توفر دواعيه إلى إتمام ما عزم عليه مما يقوي خوفه و رجاءه فعند ذلك تنحل عن قلبه عقدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الفعال فيقف عن تعاطي المحظورات و يكبح نفسه بلجام الخوف عن متابعة الشهوات فيفارق الزلة في الحال و يلزم العزيمة على ألا يعود إلى مثلها في الاستقبال فإن مضى على موجب قصده و نفذ على مقتضى عزمه فهو الموفق حقا و إن نقض التوبة مرة أو مرات ثم حملته إرادته على تجديدها فقد يكون مثل هذا كثيرا فلا ينبغي قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء فإن لكل أجل كتابا و قد حكى عن أبي سليمان الداراني أنه قال اختلفت إلى مجلس قاص فأثر كلامه في قلبي فلما قمت لم يبق في قلبي شيء فعدت ثانيا فسمعت كلامه فبقي من كلامه في قلبي أثر في الطريق ثم زال ثم عدت ثالثا فوقر كلامه في قلبي و ثبت حتى رجعت إلى منزلي و كسرت آلات المخالفة و لزمت الطريق . و حكيت هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال عصفور اصطاد كركيا يعني بالعصفور

القاص و بالركي أبا سليمان . و يحكي أن أبا حفص الحداد ذكر بدايته فقال تركت ذلك العمل يعني المعصية كذا و كذا مرة ثم عدت إليها ثم تركني العمل فلم أعد إليه .

[183]

و قيل إن بعض المريدين تاب ثم وقعت له فترة و كان يفكر و يقول أ ترى لو عدت إلى التوبة كيف كان يكون حكمي فهنتف به هاتف يا فلان أظعتنا فشكرناك ثم تركتنا فأمهلتناك و إن عدت إلينا قبلناك فعاد الفتى إلى الإرادة . و قال أبو علي الدقاق التوبة على ثلاثة أقسام فأولها التوبة و أوسطها الإنابة و آخرها الأوبة فجعل التوبة بداية و الأوبة نهاية و الإنابة واسطة بينهما و المعنى أن من تاب خوفا من العقاب فهو صاحب التوبة و من تاب طمعا في الثواب فهو صاحب الإنابة و من تاب مراعاة للأمر فقط فهو صاحب الأوبة . و قال أبو علي أيضا التوبة صفة المؤمنين قال سبحانه **و تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ** و الإنابة صفة الأولياء قال سبحانه **و جَاء بِقَلْبٍ مُنِيبٍ** و الأوبة صفة الأنبياء قال سبحانه **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** . و قال الجنيد دخلت على السري يوما فوجدته متغيرا فسألته فقال دخل علي شاب فسألني عن التوبة فقلت ألا تنسى ذنبك فقال بل التوبة ألا تذكر ذنبك قال الجنيد فقلت له إن الأمر عندي ما قاله الشاب قال كيف قلت لأنني إذا كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الصفاء فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء فسكت السري . و قال ذو النون المصري الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين . و سنل البوشنجي عن التوبة فقال إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلوته عند ذكره فذاك حقيقة التوبة .

[184]

و قال ذو النون حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار ثم تضيق عليك نفسك كما أخبر الله تعالى في كتابه بقوله **حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** . و قيل لأبي حفص الحداد لم تبغض الدنيا فقال لأنني باشرت فيها الذنوب قيل فهلا أحببتها لأنك وفقت فيها للتوبة فقال أنا من الذنوب على يقين و من هذه التوبة على ظن . و قال رجل لرابعة العدوية إنني قد أكثرت من الذنوب و المعاصي فهل يتوب علي أن تبت قالت لا بل لو تاب عليك لتبت . قالوا و لما كان الله تعالى يقول في كتابه العزيز **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ** دلنا ذلك على محبته لمن صحت له حقيقة التوبة و لا شبهة أن من قارف الزلة فهو من خطئه على يقين فإذا تاب فإنه من القبول على شك لا سيما إذا كان من شرط القبول محبة الحق سبحانه له و إلى أن يبلغ العاصي محلا يجد في أوصافه أمانة محبة الله تعالى إياه مسافة بعيدة فالواجب إذا على العبد إذا علم أنه ارتكب ما يجب عنه التوبة دوام الانكسار و ملازمة التنصل و الاستغفار كما قيل استشعار الوجع إلى الأجل .

و كان من سنته ع دوام الاستغفار و قال إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم سبعين مرة .

[185]

و قال يحيى بن معاذ زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها . و يحكي أن علي بن عيسى الوزير ركب في موكب عظيم فجعل الغرباء يقولون من هذا من هذا فقالت امرأة قائمة على السطح إلى متى تقولون من هذا من هذا هذا عبد سقط من عين الله فابتلاه بما ترون فسمع علي بن عيسى كلامها فرجع إلى منزله و لم يزل يتوصل في الاستغفار من الوزارة حتى أعفي و ذهب إلى مكة فجاور بها . و منها المجاهد و قد قلنا فيها ما يكفي فيما تقدم . و منها العزلة و الخلوة و قد

نكرنا في جزء قبل هذا الجزء مما جاء في ذلك طرفا صالحا و منها التقوى و هي الخوف من معصية الله و من مظالم

العباد قال سبحانه إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ و

قيل إن رجلا جاء إلى رسول الله ص فقال يا رسول الله أوصني فقال عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير و عليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم و عليك بذكر الله فإنه نور لك . و قيل في تفسير قوله تعالى اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ أَنْ يَطَاعَ فَلَ يَعْصِي و يذكر فلا ينسى و يشكر فلا يكفر .

[186]

و قال النصرآبادي من لزم التقوى بادر إلى مفارقة الدنيا لأن الله تعالى يقول وَ لَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا . و قيل يستدل على تقوى الرجل بثلاث التوكل فيما لم ينل و الرضا بما قد نال و حسن الصبر على ما فات . و كان يقال من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربحه . و قد حكوا من حكايات المتقين شيئا كثيرا مثل ما يحكى عن ابن سيرين أنه اشترى أربعين حبا سمنا فأخرج غلامه فأرة من حب فسأله من أي حب أخرجها قال لا أدري فصحبها كلها . و حكى أن أبا يزيد البسطامي غسل ثوبه في الصحراء و معه مصاحب له فقال صاحبه نضرب هذا الوتد في جدار هذا البستان و نبسط الثوب عليه فقال لا يجوز ضرب الوتد في جدار الناس قال فنقله على شجرة حتى يجف قال يكسر الأغصان فقال نبسطه على الإذخر قال إنه علف الدواب لا يجوز أن نستتره منها فولى ظهره قبل الشمس و جعل القميص على ظهره حتى جف أحد جانبيه ثم قلبه حتى جف الجانب الآخر . و منها الورع و هو اجتناب الشبهات و

قال ص لأبي هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس و قال بو بكر كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة أن نقع في باب واحد من الحرام .

[187]

و كان يقال الورع في المنطق أشد منه في الذهب و الفضة و الزهد في الرناسة أشد منه في الذهب و الفضة لأنك تبدلها في طلب الرناسة . و قال أبو عبد الله الجلاء أعرف من أقام بمكة ثلاثين سنة لم يشرب من ماء زمزم إلا ما استقاه بركوته و رشانه . و قال بشر بن الحارث أشد الأعمال ثلاثة الجود في القلة و الورع في الخلوة و كلمة الحق عند من يخاف و يرجى . و يقال إن أخت بشر بن الحارث جاءت إلى أحمد بن حنبل فقالت إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الطاهرية فيقع شعاعها علينا أ فيجوز لنا الغزل في ضونها فقال أحمد من أنت يا أمة الله قالت أخت بشر الحافي فبكى أحمد و قال من بيتكم خرج الورع لا تغزلي في ضوء مشاعلهم . و حكى بعضهم قال مررت بالبصرة في بعض الشوارع فإذا بمشايع فعود و صبيان يلعبون فقلت أ ما تستحيون من هؤلاء المشايخ فقال غلام من بينهم هؤلاء المشايخ قل ورعهم فقلت هيبتهم . و يقال إن مالك بن دينار مكث بالبصرة أربعين سنة ما صح له أن يأكل من تمر البصرة و لا من رطبها حتى مات و لم يدقه و كان إذا انقضى أوان الرطب يقول يا أهل البصرة هذا بطني ما نقص منه شيء سواء علي أكلت من رطبكم أو لم أكل . و قال الحسن مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم و الصلاة . و دخل الحسن مكة فرأى غلاما من ولد علي بن أبي طالب قد أسند ظهره إلى

[188]

الكعبة و هو يعظ الناس فقال له الحسن ما ملاك الدين قال الورع قال فما آفته قال الطمع فجعل الحسن يتعجب منه . و قال سهل بن عبد الله من لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل و لم يشبع . و حمل إلى عمر بن عبد العزيز مسك من الغنم فقبض على مشمه و قال إنما ينتفع من هذا بريحه و أنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين . و سنل أبو عثمان الحريري عن الورع فقال كان أبو صالح بن حمدون عند صديق له و هو في النزع فمات الرجل فنفت أبو صالح في السراج فأطفأه فقيل له في ذلك فقال إلى الآن كان الدهن الذي في المسرجة له فلما مات صار إلى الورثة . و منها الزهد و قد تكلموا في حقيقته فقال سفيان الثوري الزهد في الدنيا قصر الأمل . و قال الخواص الزهد أن تترك الدنيا فلا تبالي من أخذها . و قال أبو سليمان الداراني الزهد ترك كل ما يشغل عن الله . و قيل الزهد تحت كلمتين من القرآن العزيز **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَ لَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** . و كان يقال من صدق في زهده أتته الدنيا و هي راغمة و لهذا قيل لو سقطت قلنسوة من السماء لما وقعت إلا على رأس من لا يريدتها . و قال يحيى بن معاذ الزهد يسعك الخل و الخردل و العرفان يشمك المسك و العنبر .

[189]

و قيل لبعضهم ما الزهد في الدنيا قال ترك ما فيها على من فيها . و قال رجل لذي النون المصري متى تراني أزهده في الدنيا قال إذا زهدت في نفسك . و قال رجل ليحيى بن معاذ متى تراني أدخل حانوت التوكل و ألبس رداء الزهد و أقعد بين الزاهدين فقال إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر إلى حد لو قطع الله عنك القوت ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك و لا في يقينك فأما ما لم تبلغ إلى هذه الدرجة فعودك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن أن تفتضح . و قال أحمد بن حنبل الزهد على ثلاثة أوجه ترك الحرام و هو زهد العوام و ترك الفضول من الحلال و هو زهد الخواص و ترك كل ما يشغلك عن الله و هو زهد العارفين . و قال يحيى بن معاذ الدنيا كالعروس فطالبها كماشطتها تحسن وجهها و تعطر ثوبها و الزاهد فيها كضرتها تسخم وجهها و تنتف شعرها و تحرق ثوبها و العارف مشتغل بالله لا يلتفت إليها و لا يشعر بها . و كان النصرآبادي يقول في مناجاته يا من حقن دماء الزاهدين و سفك دماء العارفين . و كان يقال إن الله تعالى جعل الخير كله في بيت و جعل مفتاحه الزهد و جعل الشر كله في بيت و جعل مفتاحه حب الدنيا . و منها الصمت و قدمنا فيما سبق من الأجزاء نكتا نافعة في هذا المعنى و نذكر الآن شيئا آخر

قال رسول الله ص من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فلا يؤذنين جاره و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليكرم ضيفه و من كان يؤمن بالله و اليوم الآخر فليقل خيرا أو فليصمت .

[190]

و قال أصحاب هذا العلم الصمت من آداب الحضرة قال الله تعالى **وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا** . و قال مخبرا عن الجن **فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا** . و قال الله تعالى مخبرا عن يوم القيامة **وَ حَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا** . و قالوا كم بين عبد سكت تصونا عن الكذب و الغيبة و عبد سكت لاستيلاء سلطان الهيبة . و أنشدوا

أرتب ما أقول إذا افترقنا

و أحكم دائما حجج المقال

فأنساها إذا نحن التقينا
و أنطق حين أنطق بالمحال

و أنشدوا

فيا ليل كم من حاجة لي مهمة
إذا جنتكم لم أدر بالليل ماهيا

قالوا و ربما كان سبب الصمت و السكوت حيرة البديهة فإنه إذا ورد كشف بغتة خرس العبارات عند ذلك فلا بيان و لا نطق و طمست الشواهد فلا علم و لا حس قال الله تعالى **يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ** فأما إثبات أرباب المجاهدة الصمت فلما علموا في الكلام من الآفات ثم ما فيه من حط النفس و إظهار صفات المدح و الميل إلى أن يتميز من بين أشكاله بحسن النطق و غير ذلك من ضروب آفات الكلام و هذا نعت أرباب

[191]

الرياضة و هو أحد أركانهم في حكم مجاهدة النفس و منازلتها و تهذيب الأخلاق . و يقال إن داود الطائي لما أراد أن يقعد في بيته اعتقد أن يحضر مجلس أبي حنيفة لأنه كان تلميذا له و يقعد بين أضرابه من العلماء و لا يتكلم في مسألة على سبيل رياضته نفسه فلما قويت نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة قعد في بيته عند ذلك و أثر العزلة . و يقال إن عمر بن عبد العزيز كان إذا كتب كتابا فاستحسن لفظه مزق الكتاب و غيره . و قال بشر بن الحارث إذا أعجبك الكلام فاصمت فإذا أعجبك الصمت فتكلم و قال سهل بن عبد الله لا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة و لا يصح لأحد التوبة حتى يلزم نفسه الصمت . و منها الخوف قال الله تعالى **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَ طَمَعًا** . و قال تعالى **وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونَ** . و قال **يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ** . أبو علي الدقاق الخوف على مراتب خوف و خشية و هيبة . فالخوف من شروط الإيمان و قضاياه قال الله تعالى **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** . و الخشية من شروط العلم قال الله تعالى **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** .

[192]

و الهيبة من شروط المعرفة قال سبحانه **وَ يَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ** . و قال أبو عمر الدمشقي الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان . و قال بعضهم من خاف من شيء هرب منه و من خاف الله هرب إليه . و قال أبو سليمان الداراني ما فارق الخوف قلبا إلا خرب و منها الرجاء و قد قدمنا فيما قبل من ذكر الخوف و الرجاء طرفا صالحا قال سبحانه **مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ** . و الفرق بين الرجاء و التمني و كون أحدهما محمودا و الآخر مذموما أن التمني ألا يسلك طريق الاجتهاد و الجد و الرجاء بخلاف ذلك فلهذا كان التمني يورث صاحبه الكسل . و قال أبو علي الروذباري الرجاء و الخوف كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر و تم طيرانه و إذا نقص أحدهما وقع فيه النقص و إذا ذهب صار الطائر في حد الموت . و قال أبو عثمان المغربي من حمل نفسه على الرجاء تعطل و من حمل نفسه على الخوف قنط و لكن من هذا مرة و من هذا مرة . و

من كلام يحيى بن معاذ و يروى عن علي بن الحسين ع يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأنني أجدني أعتد في الأعمال على

[193]

الإخلاص و كيف أحرزها و أنا بالآفة معروف و أجدني في الذنوب أعتد على عفوك و كيف لا تغفرها و أنت بالجود موصوف . و منها الحزن و هو من أوصاف أهل السلوك . و قال أبو علي الدقاق صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه من فقد الحزن في سنتين .

في الخبر النبوي ص إن الله يحب كل قلب حزين . و في بعض كتب النبوات القديمة إذا أحب الله عبدا نصب في قلبه نائحة و إذا أبغض عبدا جعل في قلبه مزمارا . و روي أن رسول الله ص كان متواصل الأحران دائم الفكر . و قيل إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب كما أن الدار إذا لم يكن فيها ساكن خربت . و سمعت رابعة رجلا يقول وا حزناه فقالت قل و ا قلة حزناه لو كنت محزونا ما تهياً لك أن تتنفس . و قال سفيان بن عيينة لو أن محزونا بكى في أمة لرحم الله تلك الأمة ببيكانه . و كان بعض هؤلاء القوم إذا سافر واحد من أصحابه يقول إذا رأيت محزونا فأقرئه عني السلام . و كان الحسن البصري لا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة . و قال وكيع يوم مات الفضيل ذهب الحزن اليوم من الأرض . و قال بعض السلف أكثر ما يجده المؤمن في صحيفته من الحسنات الحزن و الهم .

[194]

و قال الفضيل أدركت السلف يقولون إن لله في كل شيء زكاة و زكاة العقل طول الحزن . و منها الجوع و ترك الشهوات و قد تقدم ذكر ذلك . و منها الخشوع و التواضع قال سبحانه **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** و

في الخبر النبوي عنه ص لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر و لا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان فقال رجل يا رسول الله إن المرء ليحب أن يكون ثوبه حسنا فقال إن الله جميل يحب الجمال إنما المتكبر من بطر الحق و غمص الناس و

روى أنس بن مالك أن رسول الله ص كان يعود المريض و يشيع الجنائز و يركب الحمار و يجيب دعوة العبد . و كان يوم قريظة و النضير على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف من ليف . و دخل مكة يوم فتحها راكب بعير برحل خلق و إن ذقنه لتمس وسط الرحل خضوعا لله تعالى و خشوعا و جيشه يومئذ عشرة آلاف . قالوا في حد الخشوع هو الانقياد للحق و في التواضع هو الاستسلام و ترك الاعتراض على الحكم . و قال بعضهم الخشوع قيام القلب بين يدي الحق بهم مجموع . و قال حذيفة بن اليمان أول ما تفقدون من دينكم الخشوع .

[195]

و كان يقال من علامات الخشوع أن العبد إذا أغضب أو خولف أو رد عليه استقبل ذلك بالقبول . و قال محمد بن علي الترمذي الخاشع من خمدت نيران شهوته و سكن دخان صدره و أشرق نور التعظيم في قلبه فماتت حواسه و حيي قلبه و تطامنت جوارحه . و قال الحسن الخشوع هو الخوف الدائم اللازم للقلب . و قال الجنيد الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب

قال الله تعالى **وَ عِبَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا** أي خاشعون متواضعون . و رأي بعضهم رجلا منقبض الظاهر منكسر الشاهد قد زوي منكبيه فقال يا فلان الخشوع هاهنا و أشار إلى صدره لا هاهنا و أشار إلى منكبيه . و

روي أن رسول الله ص رأى رجلا يعبث بلحيته في صلاته فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه . و قيل شرط الخشوع في الصلاة ألا يعرف من على يمينه و لا من على شماله . و قال بعض الصوفية الخشوع قشعريرة ترد على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة . و كان يقال من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره . و قيل إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يسجد إلا على التراب . و كان عمر بن الخطاب يسرع في المشي و يقول هو أنجح للحاجة و أبعد من الزهو . كان رجاء بن حيوة ليلة عند عمر بن عبد العزيز و هو خليفة فصعف المصباح فقام رجل ليصلحه فقال اجلس فليس من الكرم أن يستخدم المرء ضيفه فقال

[196]

أنبه الغلام قال إنها أول نومه نامها ثم قام بنفسه فأصلح السراج فقال رجاء أ تقوم إلى السراج و أنت أمير المؤمنين قال قمت و أنا عمر بن عبد العزيز و رجعت و أنا عمر بن عبد العزيز . و

في حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ص كان يعلف البعير و يقيم البيت و يخصف النعل و يرقع الثوب و يحلب الشاة و يأكل مع الخادم و يطحن معها إذا أعيت و كان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى منزل أهله و كان يصافح الغني و الفقير و يسلم مبتدئا و لا يحقر ما دعي إليه و لو إلى حشف التمر و كان هين المنونة لين الخلق كريم السجية جميل المعاشرة طلق الوجه بساما من غير ضحك محزونا من غير عبوس متواضعا من غير ذلة جوادا من غير سرف رقيق القلب رحيفا لكل مسلم ما تجشأ قط من شبع و لا مد يده إلى طبع . و قال الفضيل أوحى الله إلى الجبال أني مكلم على واحد منكم نبيا فتطاولت الجبال و تواضع طور سيناء فكلم الله عليه موسى لتواضعه . سنل الجنيد عن التواضع فقال خفض الجناح و لين الجانب . ابن المبارك التكبر على الأغنياء و التواضع للفقراء من التواضع . و قيل لأبي يزيد متى يكون الرجل متواضعا قال إذا لم ير لنفسه مقاما و لا حالا و لا يرى أن في الخلق من هو شر منه . و كان يقال التواضع نعمة لا يحسد عليها و التكبر محنة لا يرحم منها و العز في التواضع فمن طلبه في الكبر لم يجده . و كان يقال الشرف في التواضع و العز في التقوى و الحرية في القناعة . يحيى بن معاذ التواضع حسن في كل أحد لكنه في الأغنياء أحسن و التكبر سمج في كل أحد و لكنه في الفقراء أسمج .

[197]

و ركب زيد بن ثابت فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه فقال له يا ابن عم رسول الله فقال إنا كذا أمرنا أن نعمل بعلماننا فقال زيد أرني يدك فأخرجها فقبلها فقال هكذا أمرنا أن نعمل بأهل بيت نبينا . و قال عروة بن الزبير رأيت عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى و على عاتقه قرية ماء فقلت يا أمير المؤمنين إنه لا ينبغي لمثلك هذا فقال إنه لما أتتني الوفود سامعة مهادنة دخلت نفسي نخوة فأحببت أن أكسرها و مضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها . أبو سليمان الداراني من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة . يحيى بن معاذ التكبر على من تكبر عليك تواضع . بشر الحافي سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنا له اشترى خاتما بألف درهم فكتب إليه

بلغني أنك اشتريت خاتما و فسه بألف درهم فإذا أتاك كتابي فبع الخاتم و أشبع به ألف بطن و اتخذ خاتما من درهمين و اجعل فسه حديدا صينيا و اكتب عليه رحم الله امرأ عرف قدره . قومت ثياب عمر بن عبد العزيز و هو يخطب أيام خلافته باثني عشر درهما و هي قباء و عمامة و قميص و سراويل و رداء و خفان و قلتسوة . و قال إبراهيم بن أدهم ما سررت قط سروري في أيام ثلاثة كنت في سفينة و فيها رجل مضحك كان يلعب لأهل السفينة فيقول كنا نأخذ العجج من بلاد الترك هكذا و يأخذ بشعر رأسي فيهنني فسرني ذلك لأنه لم يكن في تلك السفينة أحقر مني في عينه و كنت عليلا في مسجد فدخل المؤذن و قال اخرج فلم أطق فأخذ

[198]

برجلي و جرتني إلى خارج المسجد و كنت بالشام و علي فرو فنظرت إليه فلم أميز بين الشعر و بين القمل لكثرتة . عرض على بعض الأمراء مملوك بألوف من الدراهم فاستكثر الثمن فقال العبد اشترني يا مولاي ففي خصلة تساوي أكثر من هذا الثمن قال ما هي قال لو قدمتي على جميع ممالك و خولتني بكل مالك لم أغلظ في نفسي بل أعلم أنني عبدك فاشتراه .

تشاجر أبو زر و بلال فعير أبو زر بلالا بالسواد فشكاه إلى رسول الله ص فقال يا أبا زر ما علمت أنه قد بقي في قلبك شيء من كبر الجاهلية فألقى أبو زر نفسه و حلف ألا يحمل رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه فما رفع رأسه حتى فعل بلال ذلك

مر الحسن بن علي ع بصبيان يلعبون و بين أيديهم كسر خبز يأكلونها فدعوه فنزل و أكل معهم ثم حملهم إلى منزله فأطعمهم و كساهم و قال الفضل لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني و نحن نجد أكثر مما أطعمناهم . و منها مخالفة النفس و ذكر عيوبها و قد تقدم ذكر ذلك . و منها القناعة قال الله تعالى **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَنْحِيئَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** قال كثير من المفسرين هي القناعة . و

في الحديث النبوي و يقال إنه من كلام أمير المؤمنين ع القناعة كنز لا يفند

[199]

و

في الحديث النبوي أيضا كن ورعا تكن أعبد الناس و كن قنوعا تكن أشكر الناس و أحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا و أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما و أقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب . و كان يقال الفقراء أموات إلا من أحياه الله تعالى بعز القناعة . و قال أبو سليمان الداراني القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد هذا أول الرضا و هذا أول الزهد . و قيل القناعة سكون النفس و عدم انزعاجها عند عدم المألوفات . و قيل في تفسير قوله تعالى **لَيُرَزَقْنَهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا** أنه القناعة . و قال أبو بكر المراغي العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة و التسوية و أنكر أبو عبد الله بن خفيف فقال القناعة ترك التسوية بالمفقود و الاستغناء بالموجود . و كان يقال خرج العز و الغنى يجولان فلقيا القناعة فاستقرا . و كان يقال من كانت قناعتة سميئة طابت له كل مرقة . مر أبو حازم الأعرج بقصاب فقال له خذ يا أبا حازم فقال ليس معي درهم قال أنا أنظرك قال نفسي أحسن نظرة لي منك . و قيل وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع العز في الطاعة و الذل في المعصية و الهيبة في قيام الليل و الحكمة في البطن الخالي و الغنى في القناعة . و كان يقال انتقم من

فلان بالقناعة كما تنتقم من قاتلك بالقصاص . ذو النون المصري من قنع استراح من أهل زمانه و استطال على أقرانه . و
أنشدوا

و أحسن بالفتى من يوم عار
ينال به الغنى كرم و جوع

[200]

و رأى رجل حكيما يأكل ما تساقط من البقل على رأس الماء فقال له لو خدمت السلطان لم تحتج إلى أكل هذا فقال و أنت لو
قنعت بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان . و قيل العقاب عزيز في مطاره لا تسمو إليه مطامع الصيادين فإذا طمع في جيفة
علقت على حباله نزل من مطاره فنشب في الأحبولة . و قيل لما نطق موسى بذكر الطمع فقال **لَوْ شِئْتَ لَأَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**
قال له الخضر **هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ** و فسر بعضهم قوله **هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي** فقال مقاما في القناعة لا
يبلغه أحد . و منها التوكل قال الله تعالى **وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** و قال سهل بن عبد الله أول مقام في التوكل أن
يكون العبد بين يدي الله تعالى كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء لا يكون له حركة و لا تدبير . و قال رجل لحاتم
الأصم من أين تأكل فقال **وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ** . و قال أصحاب هذا الشأن التوكل
بالقلب و ليس ينافيه الحركة بالجسد بعد أن يتحقق العبد أن التقدير من الله فإن تعسر شيء فبتقديره و أن تسهل فبتيسيره

[201]

و

في الخبر النبوي أنه ع قال للأعرابي الذي ترك ناقته مهملة فندت فلما قيل له قال توكلت فتركتها فقال ع اعقل و توكل . و
قال ذو النون التوكل الانخلاع من الحول و القوة و ترك تدبير الأسباب و قال بعضهم التوكل رد العيش إلى يوم واحد
بإسقاط هم غد . و قال أبو علي الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل و هو أدناها ثم التسليم ثم التفويض فالأولى للعوام و
الثانية للخواص و الثالثة لخواص الخواص . جاء رجل إلى الشبلي يشكو إليه كثرة العيال فقال ارجع إلى بيتك فمن وجدت
منهم ليس رزقه على الله فأخرجه من البيت . و قال سهل بن عبد الله من طعن في التوكل فقط طعن في الإيمان و من طعن
في الحركة فقد طعن في السنة . و كان يقال المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوي إليه إلا ثدي أمه كذلك المتوكل لا يهتدي
إلا إلى ربه . و رأى أبو سليمان الداراني رجلا بمكة لا يتناول شيئا إلا شربة من ماء زمزم فمضت عليه أيام فقال له يوما أ
رأيت لو غارت أي زمزم أي شيء كنت تشرب فقام و قبل رأسه و قال جزاك الله خيرا حيث أرشدتني فإني كنت أعبد زمزم
منذ أيام ثم تركه و مضى . و قيل التوكل نفي الشكوك و التفويض إلى مالك الملوك . و دخل جماعة على الجنيد فقالوا
نطلب الرزق قال إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه قالوا فنسأل الله ذلك قال إن علمتم أنه ينساكم فذكروه قالوا لندخل
البيت فنتوكل قال التجربة شك قالوا فما الحيلة قال ترك الحيلة .

[202]

وقيل التوكل الثقة بالله و اليأس عما في أيدي الناس . و منها الشكر و قد تقدم منا ذكر كثير مما قيل فيه . و منها اليقين و هو مقام جليل قال الله تعالى **وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** و

قال علي بن أبي طالب ع لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا . و قال سهل بن عبد الله حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين و فيه شكوى إلى غير الله . و

ذكر للنبي ص ما يقال عن عيسى ابن مريم ع أنه مشى على الماء فقال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء و

في الخبر المرفوع عنه ص أنه قال لعبد الله بن مسعود لا ترضين أحدا بسخط الله و لا تحمدن أحدا على فضل الله و لا تذمن أحدا على ما لم يوتك الله و اعلم أن الرزق لا يسوقه حرص حريص و لا يرده كراهة كاره و أن الله جعل الروح و الفرج في الرضا و اليقين و جعل الهم و الحزن في الشك و السخط . و منها الصبر قال الله تعالى **وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ** و

قال علي ع الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . و سنل الفضيل عن الصبر قال تجرع المرارة من غير تعبير . و قال رويم الصبر ترك الشكوى .

[203]

و

قال علي ع الصبر مطية لا تكبو . وقف رجل على الشبلي فقال أي صبر أشد على الصابرين قال الشبلي الصبر في الله تعالى فقال لا قال فالصبر مع الله تعالى فقال لا قال فأي شيء قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة عظيمة و وقع . و يقال إن الشبلي حبس في المارستان فدخل عليه قوم فقال من أنتم قالوا محبوبك جنناك زانرين فرماهم بالحجارة فهربوا فقال لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلاني و

جاء في بعض الأخبار عن الله تعالى بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي و

قال عمر بن الخطاب لو كان الصبر و الشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت و

في الحديث المرفوع الإيمان الصبر و السخاء و

في الخبر العلم خليل المؤمن و الحلم و زيره و العقل دليله و العمل قانده و الرفق والده و البر أخوه و الصبر أمير جنوده قالوا فناهيك بشرف خصلة تتأمر على هذه الخصال و المعنى أن الثبات على هذه الخصال و استدامة التخلق بها إنما يكون بالصبر فلذلك كان أمير الجنود . و منها المراقبة

جاء في الخبر عن النبي ص أن سائلا سأله عن الإحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . و هذه إشارة إلى حال المراقبة لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب عليه فاستدامة العبد لهذا العلم مراقبة للحق و هو أصل كل خير و لا يكاد يصل إلى هذه الرتبة إلا بعد فراغه عن المحاسبة فإذا حاسب نفسه على ما سلف و أصلح حاله في الوقت

[204]

و لازم طريق الحق و أحسن بينه و بين الله تعالى بمراعاة القلب و حفظ مع الله سبحانه الأنفاس راقبه تعالى في عموم أحواله فيعلم أنه تعالى رقيب عليه يعلم أحواله و يرى أفعاله و يسمع أقواله و من تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة فكيف عن حقائق القربة . و يحكى أن ملكا كان يتحظى جارية له و كان لوزيره ميل باطن إليها فكان يسعى في مصالحتها و يرجح جانبها على جانب غيرها من حظايا الملك و نسانه فاتفق أن عرض عليها الملك حجرين من الياقوت الأحمر أحدهما أنفاس من الآخر بمحضر من وزيره فتحيرت أيهما تأخذ فأوماً الوزير بعينه إلى الحجر الأنفاس و حانت من الملك التفاته فشهد عين الوزير و هي مائلة إلى ذلك الجانب فبقي الوزير بعدها أربعين سنة لا يراه الملك قط إلا كاسرا عينه نحو الجانب الذي كان طرفه مانلا إليه ذلك اليوم أي كأن ذلك خلقة و هذا عزم قوي في المراقبة و مثله فليكن حال من يريد الوصول . و يحكى أيضا أن أميرا كان له غلام يقبل عليه أكثر من إقباله على غيره من مماليكه و لم يكن أكثرهم قيمة و لا أحسنهم صورة فقيل له في ذلك فأحب أن يبين لهم فضل الغلام في الخدمة على غيره فكان يوما راكبا و معه حشمة و بالبعد منهم جبل عليه ثلج فنظر الأمير إلى الثلج و أطرق فركض الغلام فرسه و لم يعلم الغلمان لما ذا ركض فلم يلبث إلا قليلا حتى جاء و معه شيء من الثلج فقال الأمير ما أدراك أني أردت الثلج فقال إنك نظرت إليه و نظر السلطان إلى شيء لا يكون إلا عن قصد فقال الأمير لغلمانه إنما أختصه بإكرامي و إقبالي لأن لكل واحد منكم شغلا و شغله مراعاة لحظاتي و مراقبة أحوالي .

[205]

و قال بعضهم من راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه . و منها الرضا و هو أن يرضى العبد بالشدائد و المصائب التي يقضيها الله تعالى عليه و ليس المراد بالرضا رضا العبد بالمعاصي و الفواحش أو نسبتها إلى الرب تعالى عنها فإنه سبحانه لا يرضاها كما قال جل جلاله **و لا يرضى لعباده الكفر** . و قال **كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** . قال رويم الرضا أن لو أدخلك جهنم لما سخطت عليه . و قيل لبعضهم متى يكون العبد راضيا قال إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة . قال الشبلي مرة و الجنيد حاضر لا حول و لا قوة إلا بالله فقال الجنيد أرى أن قولك هذا ضيق صدر و ضيق الصدر يجيء من ترك الرضا بالقضاء . و قال أبو سليمان الدارني الرضا ألا تسأل الله الجنة و لا تستعيز به من النار . و قال تعالى فيمن سخط قسمته **و منهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا و إن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون** . ثم نبه على ما حرموه من فضيلة الرضا فقال **و لو أنهم رضوا ما آتاهم الله و رسوله و قالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله و رسوله** **إننا إلى الله راغبون** و جواب لو هاهنا محذوف لفهم المخاطب و علمه به .

[206]

و في حذفه فائدة لطيفة و هو أن تقديره لرضي الله عنهم و لما كان رضاه عن عباده مقاما جليلا جدا حذف ذكره لأن الذكر له لا ينبئ عن كنهه و حقيقة فضله فكان الإضراب عن ذكره أبلغ في تعظيم مقامه . و

من الأخبار المرفوعة أنه ص قال اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء قالوا إنما قال بعد القضاء لأن الرضا قبل القضاء لا يتصور و إنما يتصور توطين النفس عليه و إنما يتحقق الرضا بالشيء بعد وقوع ذلك الشيء . و

في الحديث أنه قال لابن عباس يوصيه بعمل الله باليقين و الرضا فإن لم يكن فاصبر فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا و

في الحديث أنه ص رأى رجلا من أصحابه و قد أجهده المرض و الحاجة فقال ما الذي بلغ بك ما أرى قال المرض و الحاجة قال أ و لا أعلمك كلاما إن أنت قلت أذهب الله عنك ما بك قال و الذي نفسي بيده ما يسرني بحظي منهما أن شهدت معك بدرا و الحديبية فقال ص و هل لأهل بدر و الحديبية ما للراضي و القانع . و قال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر و الرضا . قدم سعد بن أبي وقاص مكة بعد ما كف بصره فانتال الناس عليه يسألونه الدعاء لهم فقال له عبد الله بن السائب يا عم إنك تدعو للناس فيستجاب لك هلا دعوت أن يرد عليك بصرك فقال يا ابن أخي قضاء الله تعالى أحب إلي من بصري . عمر بن عبد العزيز أصبحت و ما لي سرور إلا في مواقع القدر . و كان يقال الرضا إطراح الاقتراح على العالم بالصلاح و كان يقال إذا كان القدر حقا كان سخطه حقا .

[207]

و كان يقال من رضي حظي و من اطرح الاقتراح أفلح و استراح . و كان يقال كن بالرضا عاملا قبل أن تكون له معمولا و سر إليه عادلا و الإسرت نحوه معدولا . و قيل للحسن من أين أتى الخلق قال من قلة الرضا عن الله فقيل و من أين دخلت عليهم قلة الرضا عن الله قال من قلة المعرفة بالله . و قال صاحب سلوان المطاع في الرضا

يا مفزعي فيما يجيء
و راحمي فيما مضى
عندي لما تقضيه ما
يرضيك من حسن الرضا

و من القطيعة أستعيذ مصرحا و معرضا و قال أيضا

كن من مدبرك الحكيم
علا و جل على وجل
و ارض القضاء فإنه
حتم أجل و له أجل

و قال أيضا

يا من يرى حالي و أن ليس لي
في غير قربي منه أوطار
و ليس لي ملتحد دونه
و لا عليه لي أنصار
حاشا لذاك العز و الفضل أن

يهلك من أنت له جار
و إن تشأ هلكي فهب لي رضا
بكل ما تقضي و تختار

[208]

عندي لأحكامك يا مالكي
قلب كما أنعمت صبار
كل عذاب منك مستعذب
ما لم يكن سخطك و النار

و منها العبودية و هي أمر وراء العبادة معناها التعبد و التذلل قالوا العبادة للعوام من المؤمنين و العبودية للخواص من السالكين . و قال أبو علي الدقاق العبادة لمن له علم اليقين و العبودية لمن له عين اليقين . و سنل محمد بن خفيف متى تصح العبودية فقال إذا طرح كله على مولاه و صبر معه على بلواه . و قال بعضهم العبودية معانقة ما أمرت به و مفارقة ما زجرت عنه . و قيل العبودية أن تسلم إليه كلك و تحمل عليه كلك . و

في الحديث المرفوع تعس عبد الدينار و تعس عبد الخبيصة . رأى أبو يزيد البسطامي رجلا فقال له ما حرفتك قال خر بندة قال أمانت الله حمارك لتكون عبدا لله لا عبدا للحمار . و كان ببغداد في رباط شيخ الشيوخ صوفي كبير اللحية جدا و كان مغرى و معنى بها أكثر زمانه يدهنها و يسرحها و يجعلها ليلا عند نومه في كيس فقام بعض المريدين إليه في الليل و هو نائم فقصها من الإذن إلى الإذن فأصبحت كالصريم و أصبح الصوفي شاكيا إلى شيخ الرباط فجمع الصوفية و سألهم فقال المرید أنا قصصتها قال و كيف فعلت و يلك ذلك قال أيها الشيخ إنها كانت صنمه و كان يعبدها من دون الله فأنكرت ذلك بقلبي و أردت أن أجعله عبدا لله لا عبدا للحية .

[209]

قالوا و ليس شيء أشرف من العبودية و لا اسم أتم للمؤمن من اسمه بالعبودية و لذلك قال سبحانه في ذكر النبي ص ليلة المعراج و كان ذلك الوقت أشرف أوقاته في الدنيا **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا** و قال تعالى **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به . و أنشدوا

لا تدعني إلا بيا عبدها
فإنه أشرف أسماني

و منها الإرادة قال تعالى **وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعُدَاةِ وَ الْعُشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** . قالوا الإرادة هي بدء طريق السالكين و هي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله و إنما سميت هذه الصفة إرادة لأن الإرادة مقدمة كل أمر فما لم يرد العبد شيئا لم يفعله فلما كان هذا الشأن أول الأمر لمن يسلك طريق الله سمي إرادة تشبيها له بالقصد إلى الأمور التي هو مقدمتها . قالوا و المرید على موجب الاشتقاق من له إرادة و لكن المرید في هذا الاصطلاح من لا إرادة له فما لم يتجرد

عن إرادته لا يكون مريدا كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريدا . وقد اختلفوا في العبارات الدالة على ماهية الإرادة في اصطلاحهم فقال بعضهم الإرادة ترك ما عليه العادة و عادة الناس في الغالب التعرّيج على أوطان الغفلة

[210]

و الركون إلى اتباع الشهوة و الإخلاق إلى ما دعت إليه المنية و المرید هو المنسلخ عن هذه الجملة . و قال بعضهم الإرادة نهوض القلب في طلب الرب و لهذا قيل إنها لوعة تهون كل روعة . و قال أبو علي الدقاق الإرادة لوعة في الفؤاد و لذعة في القلب و غرام في الضمير و انزعاج في الباطن و نيران تأجج في القلوب . و قال ممشاذ الدينوري مذ علمت أن أحوال الفقراء جد كلها لم أمازح فقيرا و ذلك أن فقيرا قدم علي فقال أيها الشيخ أريد أن تتخذ لي عصيدة فجرى على لساني إرادة و عصيدة فتأخر الفقير و لم أشعر فأمرت باتخاذ عصيدة و طلبته فلم أجده فتعرفت خبره فقيل إنه انصرف من فوره و هو يقول إرادة و عصيدة إرادة و عصيدة و هام على وجهه حتى خرج إلى البادية و هو يكرر هذه الكلمة فما زال يقول و يرددها حتى مات . و حكى بعضهم قال كنت بالبادية وحدي فضاقت صدري فصحت يا أنس كلموني يا جن كلموني فهتف هاتف أي شيء ناديت فقلت الله فقال الهاتف كذبت لو أردته لما ناديت الإنس و لا الجن . فالمرید هو الذي لا يشغله عن الله شيء و لا يفتر آناء الليل و أطراف النهار فهو في الظاهر بنعت المجاهدات و في الباطن بوصف المكابدات فارق الفراش و لازم الانكماش و تحمل المصاعب و ركب المتاعب و عالج الأخلاق و مارس المشاق و عانق الأهوال و فارق الأشكال فهو كما قيل

ثم قطعت الليل في مهمه

لا أسدا أخشى و لا ذيبا

[211]

يغلبني شوقي فأطوى السرى

و لم يزل ذو الشوق مغلوبا

و قيل من صفات المریدين التحبب إليه بالتوكل و الإخلاص في نصيحة الأمة و الأتس بالخلوة و الصبر على مقاساة الأحكام و الإيثار لأمره و الحياء من نظره و بذل المجهود في محبته و التعرض لكل سبب يوصل إليه و القناعة بالخمول و عدم الفرار من القلب إلى أن يصل إلى الرب . و قال بعضهم آفة المرید ثلاثة أشياء التزويج و كتبه الحديث و الأسفار . و قيل من حكم المرید أن يكون فيه ثلاثة أشياء نومه غلبة و أكله فاقعة و كلامه ضرورة . و قال بعضهم نهاية الإرادة أن يشير إلى الله فيجده مع الإشارة فقيل له و أي شيء يستوعب الإرادة فقال أن يجد الله بلا إشارة . و سنل الجنيد ما للمریدين و سماع القصص و الحكايات فقال الحكايات جند من جند الله تعالى يقوي بها قلوب المریدين فقيل له هل في ذلك شاهد فتلا قوله تعالى **وَ كَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ** . و قال أصحاب الطريقة بين المرید و المراد فرق فالمرید من سلك الرياضة طلبا للوصول و المراد من فاضت عليه العناية الإلهية ابتداء فكان مخطوبا لا خاطبا و بين

الخاطب و المخطوب فرق عظيم . قالوا كان موسى ع مريدا قال **رَبِّ إِشْرَاحٍ لِي صَدْرِي** و كان محمد ص مرادا قال له **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** و سنل الجنيد عن

[212]

المريد و المراد فقال المريد سائر و المراد طائر و متى يلحق السائر الطائر . أرسل ذو النون المصري رجلا إلى أبي يزيد و قال له إلى متى النوم و الراحة قد سارت القافلة فقال له أبو يزيد قل لأخي الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة فقال ذو النون هنيئا له هذا الكلام لا تبلغه أحوالنا . و قد تكلم الحكماء في هذا المقام فقال أبو علي بن سينا في كتاب الإشارات أول درجات حركات العارفين ما يسمونه هم الإرادة و هو ما يعترى المستبصر باليقين البرهاني أو الساكن النفس إلى العقد الإيماني من الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى فيتحرك سره إلى القدس لينال من روح الاتصال فما دامت درجته هذه فهو مريد . ثم إنه ليجتاج إلى الرياضة و الرياضة موجهة إلى ثلاثة أغراض الأول تنحيه ما دون الحق عن سنن الإيثار . و الثاني تطويع النفس الأمانة للنفس المطمئنة لتنجذب قوى التخيل و الوهم إلى التوهامات المناسبة للأمر القدسي منصرفه من التوهامات المناسبة للأمر السفلي . و الثالث تطييف السر لنفسه . فالأول يعين عليه الزهد الحقيقي و الثاني يعين عليه عدة أشياء العبادة المشفوعة بالفكرة ثم الألحان المستخدمة لقوى النفس الموقعة لما لحن بها من الكلام موقع القبول من الأوهام ثم نفس الكلام الواعظ من قائل ذكي بعبارة بليغة و نعمة رخيمة و سمت رشيد و الثالث يعين عليه الفكر اللطيف و العشق العفيف الذي تتأمر فيه شمائل المعشوق دون سلطان الشهوة .

[213]

و منها الاستقامة و حقيقتها الدوام و الاستمرار على الحال قال تعالى **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** . و سنل بعضهم عن تارك الاستقامة فقال قد ذكر الله ذلك في كتابه فقال **وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا** و

في الحديث المرفوع شيبيني هود فقيل له في ذلك فقال قوله **فَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ** . و قال تعالى **وَ أَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا** فلم يقل سقيناهم بل أسقيناهم أي جعلنا لهم سقيا دائمة و ذلك لأن من دام على الخدمة دامت عليه النعمة . و منها الإخلاص و هو أفراد الحق خاصة في الطاعة بالقصد و التقرب إليه بذلك خاصة من غير رياء و من غير أن يمازحه شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدا بين الناس أو محبة مدح أو معنى من المعاني و لذلك قال أرباب هذا الفن الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين . و قال الخواص من هؤلاء القوم نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه فإذا أراد الله أن يخلص إخلاص عبد أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه فيكون مخلصا لا مخلصا .

و

جاء في الأثر عن مكحول ما أخلص عبد الله أربعين صباحا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

[214]

و منها الصدق و يطلق على معنيين تجنب الكذب و تجنب الرياء و قد تقدم القول فيهما . و منها الحياء و

في الحديث الصحيح إذا لم تستحي فاصنع ما شئت و

في الحديث أيضا الحياء من الإيمان و قال تعالى **أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى** قالوا معناه أ لم يستحي . و

في الحديث أنه قال لأصحابه استحيوا من الله حق الحياء قالوا إنا لنستحيي و نحمد الله قال ليس كذلك من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس و ما وعى و البطن و ما حوى و ليذكر الموت و طول البلى و ليترك زينة الحياة الدنيا فمن يعمل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء . و قال ابن عطاء العلم الأكبر الهيبة و الحياء فإذا ذهب لم يبق خير . و قال ذو النون الحب ينطق و الحياء يسكت و الخوف يقلق . و قال السري الحياء و الأتس يطرقان القلب فإن وجدا فيه الزهد و الورع حطا و إلا رحلا . و كان يقال تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدين حتى رق الدين ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى فنيت المروءة ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى قل الحياء ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة و الرهبة

[215]

و قال الفضيل خمس من علامات الشقاء القسوة في القلب و جمود العين و قلة الحياء و الرغبة في الدنيا و طول الأمل . و فسر بعضهم قوله تعالى **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِهَا لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ** أنها كان لها صنم في زاوية البيت فمضت فألقت على وجهه ثوبا فقال يوسف ما هذا قالت أستحيي منه قال فأنا أولى أن أستحيي من الله . و

في بعض الكتب القديمة ما أنصفتي عبدي يدعوني فأستحيي أن أرده و يعصيني و أنا أراه فلا يستحيي مني و منها الحرية و هو ألا يكون الإنسان بقلبه رق شيء من المخلوقات لا من أغراض الدنيا و لا من أغراض الآخرة فيكون فردا لفرد لا يستترقه عاجل دنيا و لا أجل منى و لا حاصل هوى و لا سؤال و لا قصد و لا أرب .

قال له ص بعض أصحاب الصفة قد عزفت نفسي يا رسول الله عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها و حجرها قال صرت حرا . و كان بعضهم يقول لو صحت صلاة بغير قرآن لصحت بهذا البيت

أ تمنى على الزمان محالا

أن ترى مقلتي طلعة حر

و سنل الجنيد عن من لم يبق له من الدنيا إلا مقدار مص نواه فقال المكاتب عبد ما بقي عليه درهم . و منها الذكر قال الله تعالى **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**

[216]

و

روى أبو الدرداء أن رسول الله ص قال أ لا أنبئكم بخير أعمالكم و أزكاها عند خالقكم و أرفعها في درجاتكم و خير من إعطائكم الذهب و الفضة في سبيل الله و من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم و يضربوا أعناقكم قالوا ما ذلك يا رسول الله قال ذكر الله و

في الحديث المرفوع لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله . و قال أبو علي الدقاق الذكر منشور الولاية فمن وفق للذكر فقد أعطي المنشور و من سلب الذكر فقد عزل . و قيل ذكر الله تعالى بالقلب سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم و به يدفعون الآفات التي تقصدهم و أن البلاء إذا أظل العبد ففرع بقلبه إلى الله حاد عنه كل ما يكرهه . و

في الخبر المرفوع إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها قيل و ما رياض الجنة قال مجالس الذكر و

في الخبر المرفوع أنا جليس من ذكرني . و سمع الشبلي و هو ينشد

ذكرتك لا أني نسيته لمحة

و أيسر ما في الذكر ذكر لساني

فكدت بلا وجد أموت من الهوى

و هام على القلب بالخفقان

فلما أراني الوجد أنك حاضري

شهدتك موجودا بكل مكان

فخاطبت موجودا بغير تكلم

و لاحظت معلوما بغير عيان

[217]

و منها الفتوة قال سبحانه مخبرا عن أصحاب الأصنام **قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ** . و قال تعالى في أصحاب الكهف **إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى** . و قد اختلفوا في التعبير عن الفتوة ما هي فقال بعضهم الفتوة ألا ترى لنفسك فضلا على غيرك . و قال بعضهم الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان . و قالوا إنما هتف الملك يوم أحد بقوله

لا سيف إلا ذو الفقار

و لا فتى إلا علي

لأنه كسر الأصنام فسمي بما سمي به أبوه إبراهيم الخليل حين كسرها و جعلها جذاذا . قالوا و صنم كل إنسان نفسه فمن خالف هواه فقد كسر صنمه فاستحق أن يطلق عليها لفظ الفتوة . و قال الحارث المحاسبي الفتوة أن تنصف و لا تنتصف . و قال عبد الله بن أحمد بن حنبل سنل أبي عن الفتوة فقال ترك ما تهوى لما تخشى . و قيل الفتوة ألا تدخر و لا تعتذر .

سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد الصادق ع عن الفتوة فقال ما تقول أنت قال إن أعطينا شكرنا و إن منعنا صبرنا قال إن الكلاب عندنا بالمدينة هذا شأنها و لكن قل إن أعطينا أثرنا و إن منعنا شكرنا .

[218]

و منها الفراسة قيل في تفسير قوله تعالى **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُنْتَوِسِّمِينَ** أي للمتفرسين و

قال النبي ص اتقوا فِرَاسَةَ المؤمن فإنها لا تخطئ قيل الفِرَاسَةُ سواطع أنوار لمعت في القلوب حتى شهدت الأشياء من حيث أشهدا الحق إياها و كل من كان أقوى إيمانا كان أشد فِرَاسَةً . و كان يقال إذا صحت الفِرَاسَةُ ارتقى منها صاحبها إلى المشاهدة . و منها حسن الخلق و هو من صفات العارفين فقد أثنى الله تعالى به على نبيه فقال **وَ إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** و

قيل له ص أي المؤمنين أفضل إيمانا فقال أحسنهم خلقا و بالخلق تظهر جواهر الرجال و الإنسان مستور بخلقه مشهور بخلقه . و قال بعضهم حسن الخلق استصغار ما منك و استعظام ما إليك . و

قال النبي ص إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم . قيل لذي النون من أكبر الناس هما قال أسوأهم خلقا . و كان يقال ما تخلق أحد أربعين صباحا بخلق إلا صار ذلك طبيعة فيه . قال الحسن في قوله تعالى **وَ ثِيَابَكَ فَطَهَّرَ** أي و خلقك فحسن . شتم رجل الأحنف بن قيس و جعل يتبعه و يشتمه فلما قرب الحي وقف و قال يا فتى إن كان قد بقي في قلبك شيء فقله كيلا يسمعك سفهاء الحي فيجيبوك .

[219]

و يقال إن معروفا الكرخي نزل دجلة ليسبح و وضع ثيابه و مصحفه فجاءت امرأة فاحتلمتها فتبعها و قال أنا معروف الكرخي فلا بأس عليك أ لك ابن يقرأ قالت لا قال أ فك بعل قالت لا قال فهاتي المصحف و خذي الثياب . قيل لبعضهم ما أدب الخلق قال ما أدب الله به نبيه في قوله **خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**

يقال إن في بعض كتب النبوات القديمة يا عبيد اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب . قالت امرأة لمالك بن دينار يا مراني فقال لقد وجدت اسمي الذي أضله أهل البصرة . قال بعضهم و قد سنل عن غلام سوء له لم يمسه قال أ تعلم عليه الحلم . و كان يقال ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة الحلیم عند الغضب و الشجاع عند الحرب و الصديق عند الحاجة إليه . و قيل في تفسير قوله تعالى **وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً** الظاهرة تسوية الخلق و الباطنة تصفية الخلق . الفضيل لأن يصحني فاجر حسن الخلق أحب إلي من أن يصحني عابد سيئ الخلق . خرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراري فاستقبله جندي فسأله أين العمران فأشار إلى المقبرة فضرب رأسه فشجه و أدماه فلما جاوزه قيل له إن ذلك إبراهيم بن أدهم

[220]

زاهد خراسان فرد إليه يعتذر فقال إبراهيم إنك لما ضربتني سألت الله لك الجنة . قال لم سألت ذلك قال علمت أي أوجر على ضربك لي فلم أرد أن يكون نصيبي منك الخير و نصيبك مني الشر . و قال بعض أصحاب الجنيد قدمت من مكة فبدأت بالشيخ كي لا يتعنى إلي فسلمت عليه ثم مضيت إلى منزلي فلما صليت الصبح في المسجد إذا أنا به خلفي في الصف فقلت إنما جنتك أمس لنلا تتعنى فقال ذلك فضلك و هذا حقك .

كان أبو ذر على حوض يسقي إبله فزاحمه إنسان فكسر الحوض فجلس أبو ذر ثم اضطجع فقيل له في ذلك فقال أمرنا رسول الله ص إذا غضب الرجل و هو قائم فليجلس فإن ذهب عنه و إلا فليضطجع . دعا إنسان بعض مشاهير الصوفية إلى

ضيافة فلما حضر باب داره رده و اعتذر إليه ثم فعل به مثل ذلك و ثانية و ثالثة و الصوفي لا يغضب و لا يضجر فمدحه ذلك الإنسان و أتى عليه بحسن الخلق فقال إنما تمدحني على خلق تجد مثله في الكلب إن دعوته حضر و إن زجرته انزجر . مر بعضهم وقت الهاجرة بسكة فألقى عليه من سطح طست رماد فغضب من كان في صحبته فقال لا تغضبوا من استحق أن يصب عليه النار فصولح على الرماد لم تجز له أن يغضب . كان لبغض الخياطين جار يدفع إليه ثيابا فيخيطها و يدفع إليه أجرتها دراهم زيوفا فيأخذها فقام يوما من حانوته و استخلف ولده فجاء الجار بالدراهم الزانفة فدفعها إلى الولد فلم يقبلها فأبدلها بدراهم جيدة فلما جاء أبوه دفع إليه الدراهم فقال ويحك هل جرى بينك و بينه أمر قال نعم إنه أحضر الدراهم زيوفا فرددتها فأحضر هذه

[221]

فقال بنس ما صنعت إنه منذ كذا و كذا سنة يعاملني بالزائف و أصبر عليه و ألقها في بئر كي لا يغر غيري بها و قيل الخلق السيئ هو أن يضيق قلب الإنسان عن أن يتسع لغير ما تحبه النفس و تؤثره كالمكان الضيق لا يسع غير صاحبه . و كان يقال من سوء الخلق أن تقف على سوء خلق غيرك و تعيبه به .

قيل لرسول الله ادع الله على المشركين فقال إنما بعثت رحمة و لم أبعث عذابا

دعا علي ع غلاما له مرارا و هو لا يجيبه فقام إليه فقال أ لا تسمع يا غلام قال بلى قال فما حملك على ترك الجواب قال أمني لعقوبتك قال اذهب فأنت حر . و منها الكتمان

قال رسول الله ص استعينوا على أموركم بالكتمان . و قال السري علامة الحب الصبر و الكتمان و من باح بسرنا فليس منا . و قال الشاعر

كتمت حبك حتى منك تكربة
ثم استوى فيك إسراري و إعلاني
كأنه غاض حتى فاض عن جسدي
فصار سقمي به في جسم كتماني

و هذا ضد ما يذهب إليه القوم من الكتمان و هو عذر لأصحاب السر و الإعلان و كان يقال المحبة فاضحة و الدمع نام . و قال الشاعر

لا جزى الله دمع عيني خيرا
و جزى الله كل خير لساني

[222]

فاض دمعي فليس يكتم شيئا
و وجدت اللسان ذا كتمان

يقال إن بعض العارفين أوصى تلميذه بكتمان ما يطلع عليه من الحال فلما شاهد الأمر غلب فكان يطلع في بئر في موضع
خال فيحدثها بما يشاهد فنبتت في تلك البئر شجرة سمع منها صوت يحكي كلام ذلك التلميذ كما يحكي الصدا كلام المتكلم
فأسقط بذلك من ديوان الأولياء . و أنشدوا

أبدا تحن إليكم الأرواح
و وصالكم ريحانها و الراح
و قلوب أهل و دادكم تشتاقكم
و إلى لقاء جمالكم ترتاح
وا رحمة للعاشقين تحملوا
ثقل المحبة و الهوى فضاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
و كذا دماء البانحين تباح

و قال الحسين بن منصور الحلاج

إني لأكتم من علمي جواهره
كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتننا
و قد تقدمني فيه أبو حسن
إلى الحسين و أوصى قبله الحسن
يا رب مكنون علم لو أبوح به
لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
و لاستحل رجال صالحون دمي
يرون أقبح ما يأتونه حسنا

و منها الجود و السخاء و الإيثار قال الله تعالى **و يُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَ لَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** و

قال النبي ص السخي قريب من الله قريب من الناس

[223]

و البخيل بعيد من الله بعيد من الناس و أن الجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل . قالوا لا فرق بين الجود و
السخاء في اصطلاح أهل العربية إلا أن الباري سبحانه لا يوصف بالسخاء لأنه يشعر بسماح النفس عقيب التردد في ذلك
و أما في اصطلاح أرباب هذه الطريقة فالسخاء هو الرتبة الأولى و الجود بعده ثم الإيثار فمن أعطى البعض و أبقى البعض
فهو صاحب السخاء و من أعطى الأكثر و أبقى لنفسه شيئا فهو صاحب الجود و الذي قاسى الضراء و أثر غيره بالبلغة
فهو صاحب الإيثار . قال أسماء بن خارجة الفزاري ما أحب أن أرد أحدا عن حاجة طلبها إن كان كريما صنت عرضه عن
الناس و إن كان لنيما صنت عنه عرضي . كان مؤرق العجلي يتلطف في بر إخوانه يضع عندهم ألف درهم و يقول

أمسكوها حتى أعود إليكم ثم يرسل إليهم أنتم منها في حل . و كان يقال الجود إجابة الخاطر الأول . و كان أبو الحسن البوشنجي في الخلاء فدعا تلميذا له فقال انزع عني هذا القميص و ادفعه إلى فلان فقيل له هلا صبرت فقال لم آمن على نفسي أن تغير علي ما وقع لي من التخلق معه بالقميص .

رني علي ع يوما باكيا فقيل له لم تبكي فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام أخاف أن يكون الله قد أهانني . أضاف عبد الله بن عامر رجلا فأحسن قراه فلما أراد أن يرتحل لم يعنه غلمانه فسئل عن ذلك فقال إنهم إنما يعينون من نزل علينا لا من ارتحل عنا . و منها الغيرة

قال رسول الله ص لا أحد أغير من الله إنما حرم الفواحش ما ظهر منها و ما بطن لغيرته

[224]

و

في حديث أبي هريرة أن الله ليغار و أن المؤمن ليغار قال و الغيرة هي كراهية المشاركة فيما هو حقك . و قيل الغيرة الأتفة و الحمية . و حكى عن السري أنه قرئ بين يديه **وَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا** فقال لأصحابه أتدرون ما هذا الحجاب هذا حجاب الغيرة و لا أحد أغير من الله . قالوا و معنى حجاب الغيرة أنه لما أصر الكافرون على الجحود عاقبهم بأن لم يجعلهم أهلا لمعرفة أسرار القرآن . و قال أبو علي الدقاق إن أصحاب الكسل عن عبادته هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلة الخذلان فاختر لهم البعد و أخرجهم عن محل القرب و لذلك تأخروا . و في معناه أنشدوا فقالوا

أنا صب بمن هويت و لكن

ما احتيالي في سوء رأي الموالي

و في معناه قالوا سقيم لا يعاد و مرید لا يراد . و كان أبو علي الدقاق إذا وقع شيء في خلال المجلس يشوش قلوب الحاضرين يقول هذا من غيرة الحق يريد به ألا يتم ما أملناه من صفاء هذا الوقت . و أنشدوا في معناه

همت بآتياننا حتى إذا نظرت

إلى المرأة نهانا وجهها الحسن

و قيل لبعضهم أتريد أن تراه قال لا قيل لم قال أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي و في معناه أنشدوا

إني لأحسد ناظري عليك

حتى أعض إذا نظرت إليك

[225]

و أراك تخطر في شمانلك التي

هي فتنني فأغار منك عليكا

و سنل الشبلي متى تستريح قال إذا لم أر له ذاكرة . و قال أبو علي الدقاق في

قول النبي ص عند مبايعته فرسا من أعرابي و أنه استقاله فأقاله فقال الأعرابي عمرك الله فمن أنت قال ص أنا امرؤ من قريش فقال بعض الصحابة من الحاضرين للأعرابي كفاك جفاء ألا تعرف نبيك فكان أبو علي يقول إنما قال امرؤ من قريش غيره و نوعا من الأنفة و إلا فقد كان الواجب عليه أن يتعرف لكل أحد أنه من هو لكن الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابي التعريف للأعرابي بقوله كفاك جفاء ألا تعرف نبيك . و قال أصحاب الطريقة مساكنة أحد من الخلق للحق في قلبك توجب الغيرة منه تعالى . أذن الشبلي مرة فلما انتهى إلى الشهادتين قال و حقك لو لا أنك أمرتني ما ذكرت معك غيرك . و سمع رجل يقول جل الله فقال أحب أن تجله عن هذا . و كان بعض العارفين يقول لا إله إلا الله من داخل القلب محمد رسول الله من قرط الأذن . و قيل لأبي الفتوح السهروردي و قد أخذ بحلب ليصلب على خشبة ما الذي أباحهم هذا منك قال إن هؤلاء دعوني إلى أن أجعل محمدا شريكا لله في الربوبية فلم أفعل فقتلوني .

[226]

و منها التفويض قال الله تعالى **وَ عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** فاستوقف من عقل أمره عن الاقتراح عليه و أفهمه ما يرضاه به من التفويض إليه فالعاقل تارك للاقتراح على العالم بالصلاح . و قال تعالى **فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً** فبعث على تأكيد الرجاء بقوله **خَيْراً كَثِيراً** . و لما فوض مؤمن آل فرعون أمره إلى الله **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَ حَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ** كما ورد في الكتاب العزيز . و حقيقة التفويض هي التسليم لأحكام الحق سبحانه و إلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى **قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** فأس التفويض و الباعث عليه هو اعتقاد العجز عن مغالبة القدر و أنه لا يكون في الخير و الشر أعني الرخص و الصحة و سعة الرزق و البلى و الأمراض و العطل و ضيق الرزق إلا ما أراد الله تعالى كونه و لا يصح التفويض ممن لم يعتقد ذلك و لم يعلمه علم اليقين . و قد بالغ النبي ص في التصريح به و النص عليه

بقوله لعبد الله بن مسعود ليقبل همك ما قدر أتك و ما لم يقدر لم يأتك و لو جهد الخلق أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه و لو جهدوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك

[227]

و

في صحيح مسلم بن الحجاج أنه قال لأبي هريرة في كلام له فإن أصابك شيء فلا تقل لو فعلت كذا لكان كذا فإن لو تفتح عمل الشيطان و لكن قل ما قدر الله و ما شاء فعل و

في صحيح مسلم أيضا عن البراء بن عازب إذا أخذت مضجعتك فقل كذا إلى أن قال وجهت وجهي إليك و ألبأت ظهري إليك
رغبة و رهبة إليك لا منجى و لا ملجأ منك إلا إليك . و كان يقال معارضة المريض طبيبه توجب تعذيبه و كان يقال إنما
الكيس الماهر من أمسى في قبضة القاهر . و كان يقال إذا كانت مغالبة القدر مستحيلة فما من أعوان تقوده إلى الحيلة . و
كان يقال إذا التبست المصادر ففوض إلى القادر . و كان يقال من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب و مدبر مربوب
أن يتبدل رأيه في بعض الخطوب و يعمى عليه الصواب المطلوب . و إذا كان كذلك فربما كان تدميره في تدبيره و اغتياله
من احتياله و هلكته من حركته . و في ذلك أنشدوا

أيا من يعول في المشكلات
على ما رآه و ما دبره
إذا أعضل الأمر فافزع به
إلى من يرى منه ما لم تره
تكن بين عطف يقيل الخطوب
و لطف يهون ما قدره
إذا كنت تجهل عقبى الأمور
و ما لك حول و لا مقدره
فلم ذا العنا و علام الأسى
و مم الحذار و فيم الشره

[228]

و أنشدوا في هذا المعنى

يا رب معتبط و مغبوط
بأمر فيه هلكه
و منافس في ملك ما
يشقيه في الدارين ملكه
علم العواقب دونه
ستر و ليس يرام هتكه
و معارض الأقدار بالآراء
سيئ الحال ضنكه
فكن امرأ محض اليقين
و زيف الشبهات سبكه
تفويضه توحيد
و عناده المقدار شركه

و منها الولاية و المعرفة و قد تقدم القول فيهما . و منها الدعاء و المناجاة قال الله تعالى **أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** و

في الحديث المرفوع الدعاء مخ العبادة . و قد اختلف أرباب هذا الشأن في الدعاء فقال قوم الدعاء مفتاح الحاجة و مستروح أصحاب الفاقات و ملجأ المضطرين و متنفس ذوي المآرب . و قد ذم الله تعالى قوما فقال **و يَقْبِضُونَ أَيديَهُمْ** فسروه و قالوا لا يمدونها إليه في السؤال . و قال سهل بن عبد الله التستري خلق الله الخلق و قال تاجروا في فإن لم تفعلوا فاسمعوا مني فإن لم تفعلوا فكونوا ببابي فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي . قالوا و قد أثنى الله على نفسه فقال **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ** قالوا الدعاء إظهار فاقة العبودية .

[229]

و قال أبو حاتم الأعرج لأن أحرم الدعاء أشد علي من أن أحرم الإجابة . و قال قوم بل السكوت و الخمود تحت جريان الحكم و الرضا بما سبق من اختيار الحكيم العالم بالمصالح أولى و لهذا قال الواسطي اختيار ما جرى لك في الأزل خير لك من معارضة الوقت . و

قال النبي ص إخبارا عن الله تعالى من شغله ذكرني عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين . و قال قوم يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه و صاحب رضا بقلبه ليأتي بالأمرين جميعا . و قال قوم إن الأوقات تختلف ففي بعض الأحوال يكون الدعاء أفضل من السكوت و في بعض الأحوال يكون بالعكس و إنما يعرف هذا في الوقت لأن علم الوقت يحصل في الوقت فإذا وجد في قلبه الإشارة إلى الدعاء فالدعاء أولى و إن وجد بقلبه الإشارة إلى السكوت فالسكوت له أتم و أولى . و

جاء في الخبر أن الله يبيغض العبد فيسرع إجابته بغضا لسماع صوته و أنه يحب العبد فيؤخر إجابته حبا لسماع صوته . و من أدب الدعاء حضور القلب

فقد روي عنه ص أن الله لا يستجيب دعاء قلب لاه . و من شروط الإجابة طيب الطعمة و حل المكسب

قال ص لسعد بن أبي وقاص أظك كسبك تستجب دعوتك .

[230]

و ينبغي أن يكون الدعاء بعد المعرفة

قيل لجعفر بن محمد الصادق ع ما بالننا ندعو فلا يستجاب لنا قال لأنكم تدعون من لا تعرفونه . كان صالح المري يقول كثيرا ادعوا فمن أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له فقالت له رابعة العدوية ما ذا تقول أغلق هذا الباب حتى يستفتح فقال صالح شيخ جهل و امرأة علمت . و قيل فائدة الدعاء إظهار الفاقة من الخلق و الإقبال يفعل ما يشاء . و قيل دعاء العامة بالأقوال و دعاء العابد بالأفعال و دعاء العارف بالأحوال . و قيل خير الدعاء ما هيجه الأحران و الوجد . و قيل أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الاضطرار لقوله تعالى **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ** . قال أصحاب هذه الطريقة السنة المبتدئين أرباب الإرادة منطلقة بالدعاء و السنة المحققين الواصلين قد خرسست عن ذلك . و كان عبد الله بن المبارك يقول

ما دعوته منذ خمسين سنة و لا أريد أن يدعو لي أحد . و قيل الدعاء سلم المذنبين . و قال من قال بنقيض هذا الدعاء مراسلة و ما دامت المراسلة باقية فالأمر جميل بعد . و قالوا السنة المذنبين دموعهم . و كان أبو علي الدقاق يقول إذا بكى المذنب فقد راسل الله . و في معناه أنشدوا

دموع الفتى عما يجن تترجم
و أنفاسه تبدين ما القلب يكتم

[231]

و قال بعضهم لبعض العارفين ادع لي فقال كفاك من الإجابة ألا تجعل بينك و بينه واسطة . و منها التأسى قال سبحانه **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** أي في مصابه و ما نيل منه في نفسه و في أهله يوم أحد فلا تجزعوا أن أصيب بعضكم . و

جاء في الحديث المرفوع لا تنظروا إلى من فوقكم و انظروا إلى من دونكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعم الله عليكم . و قالت الخنساء ترثي أباها

و لو لا كثرة الباكين حولي
على إخوانهم لقتلت نفسي
و ما يبكون مثل أخي و لكن
أعزي النفس عنه بالتأسى

و حقيقة التأسى تهوين المصائب و النوائب على النفس بالنظر إلى ما أصاب أمثالك و من هو أرفع محلا منك . و قد فسر العلماء قوله تعالى **وَ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** قال إنه لا يهون على أحد من أهل النار عذابه و إن تأسى بغيره من المعذبين لأن الله تعالى جعل لهم التأسى نافعا في الدنيا و لم يجعله نافعا لأهل النار مبالغة في تعذيبهم و نفيا لراحة تصل إليهم .

[232]

و منها الفقر و هو شعار الصالحين

قال رسول الله ص اللهم أحيني مسكينا و أمتني مسكينا و احشروني مع المساكين . قال لعلي ع إن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بأحسن منها و هب لك حب المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعا و يرضون بك إماما . و

جاء في الخبر المرفوع الفقراء الصبر جلساء الله يوم القيامة . و سنل يحيى بن معاذ عن الفقر فقال ألا تستعني إلا بالله . و

قال أبو الدرداء لأن أقع من فوق قصر فأتحطم أحب إلي من مجالسة الغني لأنني سمعت رسول الله ص يقول إياكم و مجالسة الموتى فقيل له و ما الموتى قال الأغنياء . قيل للربيع بن خثيم قد غلا السعر قال نحن أهون على الله من أن يجيعنا إنما يجيع أوليائه . و قيل ليحيى بن معاذ ما الفقر قال خوف الفقر . و قال الشبلي أدنى علامات الفقير أن لو كانت

الدنيا بأسرها لو واحد فأنفقها في يوم واحد ثم خطر بباله لو أمسكت منها قوت يوم آخر لم يصدق في فقره . سنل ابن الجلاء عن الفقر فسكت ثم ذهب قليلا و عاد فقال كانت عندي أربعة دوانيق فاستحييت من الله أن أتكلم في الفقر و هي عندي فذهبت فأخرجتها ثم قعد فتكلم في الفقر . و قال أبو علي الدقاق في تفسير

قوله ص من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه إن المرء بقلبه و لسانه و جوارحه فمن تواضع لغني بلسانه و جوارحه ذهب ثلثا دينه فإن تواضع له مع ذلك بقلبه ذهب دينه كله .

[233]

و منها الأدب قالوا في تفسير قوله تعالى **ما زاعَ البَصْرَ وَ ما طَغى** حفظ أدب الحضرة . قيل إنه ع لم يمد نظره فوق المقام الذي أوصل إليه ليلة شاهد السدرة و هي أقصى ما يمكن أن ينتهي إليه البشريون . و

في الحديث المرفوع أدبني ربي فأحسن تأديبي و قيل إن الجنيد لم يمد رجله في الخلوة عشرين سنة و كان يقول الأدب مع الله أولى من الأدب مع الخلق . و قال أبو علي الدقاق من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل . و

من كلامه ع ترك الأدب يوجب الطرد فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب و من أساء الأدب على الباب رد إلى ساحة الدواب . و قال عبد الله بن المبارك قد أكثر الناس في الأدب و عندي أن الأدب معرفة الإنسان بنفسه . و قال الثوري من لم يتأدب للوقت فوقته مقت . و قال أبو علي الدقاق في قوله تعالى حكاية عن أيوب **إذ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** قال لم يقل فارحمني لأنه حفظ آداب الخطاب و كذلك قال في قول عيسى **إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ** قال لم يقل لم أقل رعاية لأدب الحضرة .

[234]

و منها المحبة و هي مقام جليل قالوا المحبة أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء . قيل لبعض العرب ما وجدت من حب فلانة قال أرى القمر على جدارها أحسن منه على جدران الناس . و قال أبو عبد الرحمن السلمي المحبة أن تغار على محبوبك أن يحبه غيرك . و قال النصرآبادي المحبة نوعان نوع يوجب حقن الدماء و نوع يوجب سفك الدماء . و قال يحيى بن معاذ المحبة الخالصة ألا تنقص بالجفاء و لا تزيد بالبر . و قيل للنصرآبادي كيف حالك في المحبة قال عدمت وصال المحبين و رزقت حسراتهم فهو ذا أنا أحترق فيها ثم قال المحبة مجانية السلو على كل حال . و أنشدوا

و من كان في طول الهوى ذاق سلوة

فإني من ليلى لها غير ذائق

و أكثر شيء نلته من وصالها

أمانى لم تصدق كلمحة بارق

جاء في الحديث المرفوع المرء مع من أحب و لما سمع سمنون هذا الخبر قال فاز المحبون بشرف الدنيا و الآخرة لأنهم مع الله تعالى . و

في الحديث المرفوع لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله و هذا يتجاوز حد الجلالة و الشرف . و كان يقال الحب أوله ختل و آخره قتل . قيل كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد سكرت من كثرة ما شربت من محبته فكتب إليه أبو زيد غيرك شرب بحور السموات و الأرض و ما روي بعد و لسانه خارج و هو يقول هل من مزيد .

[235]

و أنشد

عجبت لمن يقول ذكرت حبي
و هل أنسى فأذكر ما نسيت
شربت الحب كأسا بعد كأس
فما نفذ الشراب و لا رويت

و قيل المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف . و أنشدوا

فأسكر القوم دور كأس
و كان سكري من المدير

و منها الشوق

جاء في الخبر المرفوع أن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة علي و سلمان و عمار . الشوق مرتبة من مراتب القوم و مقام من مقاماتهم سنل ابن عطاء الشوق أعلى أم المحبة فقال المحبة لأن الشوق منها يتولد . و

من الأدعية النبوية المأثورة الدعاء الذي كان يدعو به عمار بن ياسر رضي الله عنه اللهم بعلمك بالغيب و قدرتك على الخلق أحييني ما علمت الحياة خيرا لي و توفيي ما كانت الوفاة خيرا لي اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب و الشهادة و أسألك كلمة الحق في الرضا و الغضب و أسألك القصد في الغنى و الفقر و أسألك نعيما لا يبديد و قرّة عين لا تنقطع و أسألك الرضا بعد القضاء و برد العيش بعد الموت و أسألك النظر إلى وجهك و الشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة اللهم زينا بزينة الإيمان و اجعلنا هداة مهتدين . قالوا الشوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب و على قدر المحبة يكون الشوق و علامة الشوق حب الموت .

[236]

و هذا هو السر في قوله تعالى **فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** أي أن من كان صاحب محبة يتمنى لقاء محبوبه فمن لا يتمنى ذلك لا يكون صادق المحبة . قيل لبعض الصوفية هل تشتاق إليه فقال إنما الشوق إلى غائب و هو حاضر لا يغيب . و قالوا في قوله تعالى **مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ** إنه تطيب لقلوب المشتاقين . و

يقال إنه مكتوب في بعض كتب النبوات القديمة شوقناكم فلم تشتاقوا و زمرنا لكم فلم ترقصوا و خوفناكم فلم ترهبوا و نحن
لكم فلم تحزنوا و

قيل إن شعيبا بكى حتى عمي فرد الله إليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد عليه بصره ثم كذلك ثلاثا فقال الله تعالى إن كان هذا
البكاء شوقا إلى الجنة فقد أبحثها لك و إن كان خوفا من النار فقد أجرتك منها فقال و حقك لا هذا و لا هذا و لكن شوقا
إليك فقال له لأجل ذلك أخدمتك نبيا و كليمي عشر سنين . و منها الزهد و رفض الدنيا قال سبحانه **وَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى
مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا و**

جاء في الخبر أن يوسف ع كان بجوع في سني الجذب فقيل له أ تجوع و أنت على خزان مصر فقال أخاف أن أشبع
فأنسى الجياح و كذلك

قال علي ع و قد قيل له أ هذا لباسك و هذا مأكولك و أنت أمير

[237]

المؤمنين فقال نعم إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا لأنفسهم كضعفة الناس كيلا يتبغ بالفقير فقره . و منع عمر بن
الخطاب نفسه عام الرمادة الدسم و قال لا أكله حتى يصيبه المسلمون جميعا . و كان عمر بن عبد العزيز من أكثر الناس
تعما قبل أن يلي الخلافة قومت ثيابه حينئذ بألف دينار و قومت و هو يخطب الناس أيام خلافته بثلاثة دراهم . و اعلم أن
بعض هذه المراتب و المقامات التي ذكرناها للقوم قد يكون متاخلا في الظاهر و له في الباطن عندهم فرق يعرفه من
يأنس بكتبهم و قد أتينا في تقسيم مراتبهم و تفصيل مقاماتهم في هذا الفصل بما فيه كفاية

[238]

218 و من كلام له ع قاله عند تلاوته

يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ أَدْحَضُ مَسْئُولٍ حُجَّةً وَ أَقْطَعُ مُعْتَرٍ مَعْدِرَةً لَقَدْ أْبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ يا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ما جَرَّكَ عَلَى ذُنُوبِكَ وَ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ وَ ما أَنْسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ أَمْ ما مِنْ دَانِكَ بُلُولٌ أَمْ لَيْسَ مِنْ نُومَتِكَ نُومِكُ يَقْظَةٌ أَمْ ما تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ ما تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ فَلَرَبِّما تَرى الضَّاحِي مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ أَوْ تَرى الْمُبْتَلَى بِاللِّمِّ بِمِضْ جَسَدِهِ فَتُبْكِي رَحْمَةً لَهُ فَمَا صَبْرَكَ عَلَى دَانِكَ وَ جَلْدَكَ عَلَى مُصَابِكَ وَ عَزَّكَ عَنِ النُّبْغَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وَ هِيَ أَعَزُّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكَ وَ كَيْفَ لا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَّاتِ نِعْمَةٍ وَ قَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ فَتَدَاوِ مِنْ دَاءِ الْفُتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ وَ مِنْ كَرَى الْعُقْلَةِ فِي نَاطِرِكَ بِبِقْظَةٍ وَ كُنْ لِلَّهِ مُطِيعاً وَ بِذِكْرِهِ أَنْسَأً وَ تَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ وَ يَتَعَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ وَ أَنْتَ مُتَوَلِّ عَنهُ إِلَى غَيْرِهِ

[239]

فَتَعَالَى مِنْ قُوِيٍّ ما أَكْرَمَهُ وَ تَوَاضَعَتْ مِنْ ضَعِيفٍ ما أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَ أَنْتَ فِي كُنْفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ وَ فِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلُهُ وَ لَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ بَلْ لَمْ تَحُلْ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ أَوْ سِنِيَّةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطْعَمْتَهُ وَ أَيُّمَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَفَقِّينَ فِي الْفُؤَةِ مُتَوَارِيَيْنَ فِي الْفُؤَةِ لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِدَمِيمِ الْأَخْلَاقِ وَ مَسَاوِيِ الْأَعْمَالِ وَ حَقًّا أَقُولُ ما الدُّنْيَا عَرَّتْكَ وَ لَكِنْ بِهَا اِغْتَرَزْتَ وَ لَقَدْ كَاشَفْتُكَ الْعِظَاتِ وَ أَدْنَيْتُكَ عَلَى سِوَاءٍ وَ لَهِيَ بِما تَعْدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ وَ النِّقْصِ النَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ أَصْدَقُ وَ أَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَعْرَكَ وَ لَرَبِّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مَتَّهَمٌ وَ صَادِقٍ مِنْ خَبَرِها مُكْذَّبٌ وَ لَنْ تَعْرِفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ وَ الرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ لَتَجِدْنَهَا مِنْ حُسْنِ تَدْكِيرِكَ وَ بِلَاغِ مَوْعِظَتِكَ بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ وَ الشَّحِيحِ بِكَ وَ لِنِعْمِ دَارٍ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً وَ مَحَلٍّ مَنْ لَمْ يُوطَّنْها مَحَلًّا وَ إِنَّ السُّعْدَاءَ بِالدُّنْيَا عَدَا هُمْ الْهَارِبُونَ مِنْها أَلْيَوْمَ إِذا رَجَعْتَ الرَّاجِفَةَ وَ حَقَّتْ بِجَلَانِهَا الْقِيَامَةُ وَ لِحَقِّ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ وَ بِكُلِّ مَعْبُودٍ عِبْدَتُهُ وَ بِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ فَلَمْ يَجْرَ يُجْرَ فِي عَذْلِهِ وَ قِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ حَرْقٌ بِصَرِّ فِي الْهُوَاءِ وَ لا هَمْسٌ قَدِمَ فِي الْأَرْضِ إِلا بِحَقِّهِ فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ وَ عَلائِقُ عِذْرِ مُنْقَطِعَةٌ فَتَحَرَ مِنْ أَمْرِكَ ما يَفُومُ بِهِ عِذْرُكَ وَ تَنْبُثُ بِهِ حُجَّتَكَ وَ خُذْ ما يَبْقَى لَكَ مِمَّا لا تَبْقَى لَهُ وَ تَيْسَّرْ لِسَفْرِكَ وَ شِمِّ بَرِّقِ النَّجَاةِ وَ ارْحَلْ مَطَايَا الشَّشْمِيرِ

[240]

لقائل أن يقول لو قال ما غرك بربك العزيز أو المنتقم أو نحو ذلك لكان أولى لأن للإنسان المعاتب أن يقول غرني كرمك الذي وصفت به نفسك . و جواب هذا أن يقال إن مجموع الصفات صار كشيء واحد و هو الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صوره ما شاء ركبك و المعنى ما غرك برب هذه صفته و هذا شأنه و هو قادر على أن يجعلك في أي صوره شاء فما الذي يؤمنك من أن يمسحك في صورة القردة و الخنازير و نحوها من الحيوانات العجم و معنى الكريم هاهنا الفياض على المواد بالصور و من هذه صفته ينبغي أن يخاف منه تبديل الصورة . قال ع أدحض مسنول حجة المبتدأ محذوف و الحجة الداخضة الباطلة . و المعذرة بكسر الذال العذر . و يقال لقد أبرح فلان جهالة و أبرح لوما و أبرح شجاعة و أتى بالبرح من ذلك أي بالشديد العظيم و يقال هذا الأمر أبرح من هذا أي أشد و قتلوه أبرح قتل و جهالة منصوب على التمييز . و قال القطب الراوندي مفعول به قال معناه جلب جهالة إلى نفسه و ليس بصحيح و أبرح لا يتعدى هاهنا و إنما يتعدى

أبرح في موضعين أحدهما أبرحه الأمر أي أعجبه و الآخر أبرح زيد عمرا أي أكرمه و عظمه . قوله ما جرأك بالهمزة و فلان جريء القوم أي مقدمهم . و ما أنسك بالتشديد و روي ما آنسك بالمد و كلاهما من أصل واحد و تأنست

[241]

بفلان و استأنست بمعنى و فلان أنيسي و مؤانسي و قد أنسني كله بمعنى أي كيف لم تستوحش من الأمور التي تؤدي إلى هلكة نفسك . و البلول مصدر بل الرجل من مرضه إذا برئ و يجوز أبل قال الشاعر

إذا بل من داء به ظن أنه

نجا و به الداء الذي هو قاتله

و الضاحي لحر الشمس البارز و هذا داء ممض أي مؤلم أمضني الجرح إمضاضا و يجوز مضني . و روي و جلدك على مصائبك بصيغة الجمع . و بيات نقمة بفتح الباء طروقها ليلا و هي من ألفاظ القرآن العزيز . و تورط وقع في الورطة بتسكين الراء و هي الهلاك و أصل الورطة أرض مطمئنة لا طريق فيها و قد أورطه و ورطه توريطا أي أوقعه فيها . و المدارج الطرق و المسالك و يجوز انتصاب مدارج هاهنا لأنها مفعول به صريح و يجوز أن ينتصب على تقدير حرف الخفض و حذفه أي في مدارج سطواته . قوله و تمثل أي و تصور . و يتعمدك بفضله أي يسترك بعفوه و سمي العفو و الصفح فضلا تسمية للنوع بالجنس . قوله مطرف عين بفتح الراء أي زمان طرف العين و طرفها إطباق أحد

[242]

جفنيها على الآخر و انتصاب مطرف هاهنا على الظرفية كقولك وردت مقدم الحاج أي وقت قدومهم . قوله متوازيين في القدرة أي متساويين و روي متوازيين بالنون . و العظات جمع عظة و هو منصوب على نزع الخافض أي كاشفتك بالعظات و روي العظات بالرفع على أنه فاعل و روي كاشفتك الغطاء . و أدنتك أي أعلمتك . و على سواء أي على عدل و إنصاف و هذا من الألفاظ القرآنية . و الراجفة الصيحة الأولى و حقت بجلانها القيامة أي بأمرها العظام و المنسك الموضوع الذي تذبح فيه النسانك و هي ذبائح القربان و يجوز فتح السين و قد قرئ بهما في قوله تعالى **لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا** . فإن قلت إذا كان يلحق بكل معبود عبدته فالنصارى إذن تلحق بعبسى و الغلاة من المسلمين بعلي و كذلك الملانكة فما القول في ذلك . قلت لا ضرر في التحاق هؤلاء بعبوديتهم و معنى الالتحاق أن يؤمر الأتباع في الموقف بالتحيز إلى الجهة التي فيها الرؤساء ثم يقال للرؤساء هؤلاء أتباعكم و عبدتكم فحينئذ يتبرعون منهم فينجو الرؤساء و تهلك الأتباع كما قال سبحانه **أ هُولَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ** أي إنما كانوا يطيعون الشياطين المضلة لهم فعبادتهم في

[243]

الحقيقة للشياطين لا لنا و إنهم ما أطاعونا و لو أطاعونا لكانوا مهتدين و إنما أطاعوا شياطينهم . و لا حاجة في هذا الجواب إلى أن يقال ما قيل في قوله تعالى **إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ** من تخصيص العموم بالآية الأخرى و هي قوله تعالى **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** . فإن قلت فما قولك في اعتراض ابن الزبيري على الآية هل

هو وارد . قلت لا لأنه قال تعالى **إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ** و ما لما لا يعقل فلا يرد عليه الاعتراض بالمسيح و الملائكة و الذي قاله المفسرون من تخصيص العموم بالآية الثانية تكلف غير محتاج إليه . فإن قلت فما الفائدة في أن قرن القوم بأصنامهم في النار و أي معنى لذلك في زيادة التعذيب و السخط . قلت لأن النظر إلى وجه العدو باب من أبواب العذاب و إنما أصاب هؤلاء ما أصابهم بسبب الأصنام التي ضلوا بها فكلما رأوها معهم زاد غمهم و حسرتهم . و أيضا فإنهم قدروا أن يستشفعوا بها في الآخرة فإذا صادفوا الأمر على عكس ذلك لم يكن شيء أبغض إليهم منها . قوله فلم يجر قد اختلف الرواة في هذه اللفظة فرواها قوم فلم يجر و هو مضارع جرى يجري تقول ما الذي جرى للقوم فيقول من سألته قدم الأمير من السفر فيكون المعنى على هذا فلم يكن و لم يتجدد في ديوان حسابه ذلك اليوم صغير و لا حقير إلا بالحق و الإنصاف و هذا مثل قوله تعالى **لا ظلمَ اليومَ إنَّ اللهَ سريعُ**

[244]

الحساب و رواها قوم فلم يجر مضارع جاز يجوز أي لم يسغ و لم يرخص ذلك اليوم لأحد من المكلفين في حركة من الحركات المحقرات المستصغرات إلا إذا كانت قد فعلها بحق و على هذا يجوز فعل مثلها و رواها قوم فلم يجر من جار أي عدل عن الطريق أي لم يذهب عنه سبحانه و لم يضل و لم يشذ عن حسابه شيء من أمر محقرات الأمور إلا بحقه أي إلا ما لا فائدة في إثباته و المحاسبة عليه نحو الحركات المباحة و العبثية التي لا تدخل تحت التكليف . و قال الراوندي خرق بصر مرفوع لأنه اسم ما لم يسم فاعله و لا أعرف لهذا الكلام معنى . و الهمس الصوت الخفي . قوله فتحر من أمرك تحريت كذا أي توخيته و قصدته و اعتمدته . قوله و تيسر لسفرك أي هيئ أسباب السفر و لا تترك لذاك عانقا . و الشيم النظر إلى البرق . و رحلت مطيتي إذا شددت على ظهرها الرحل قال الأعشى

رحلت سمية غدوة أجمالها

غضبي عليك فما تقول بدا لها

و التشمير الجد و الاتكماش في الأمر . و معاني الفصل ظاهرة و ألفاظه الفصيحة تعطيها و تدل عليها بما لو أراد المفسر أن يعبر عنه بعبارة غير عبارته ع لكان لفظه ع أولى أن يكون تفسيراً لكلام ذلك المفسر

[245]

219 و من كلام له ع

وَ اللَّهِ لَأَنْ أُبَيَّتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّدًا أَوْ أُجِرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّدًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا
لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَ غَاصِبًا لِشَيْءٍ مِنَ الْحَطَامِ وَ كَيْفَ أَظْلَمُ أَحَدًا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قُفُولَهَا وَ يَطُولُ فِي النَّرَى حُلُولَهَا وَ اللَّهُ
لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وَ قَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بَرِّكُمْ صَاعًا وَ رَأَيْتُ صَبِيَانَهُ شُعَثَ الشُّعُورِ غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّمَا
سُودَتْ وَجُوهُهُمْ بِالْعَظْمِ وَ عَاوَدَنِي مُوَكِّدًا وَ كَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّدًا فَاصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَ اتَّبَعُ قِيَادَهُ
مُفَارِقًا طَرِيقَتِي فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا فَضَجَّ صَجِيجَ ذِي دَنْفٍ مِنْ أَلْمَهَا وَ كَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ
مِيسَمِهَا فَقُلْتُ لَهُ تَكَلَّتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ أَ تَتِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلْعِبَةِ وَ تَجْرُنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَارُهَا لِغَضَبِهِ أ
تَتِنُّ مِنَ الْأَدَى وَ لَا أَيْنَ مِنْ لَظَى وَ أَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَفْنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وَ عَابِهَا وَ مَعْجُونَةٍ شَنِتُّهَا كَأَنَّمَا عَجْنَتْ بِرِيقِ
حَيَّةٍ أَوْ قَيْنِهَا فَقُلْتُ أ صَلَّةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلُ الْبَيْتِ فَقَالَ لَا ذَا وَ لَا ذَاكَ وَ لَكِنِهَا هَدِيَّةٌ فَقُلْتُ هَبْلَتَكَ
الْهَبُولُ أ عَنْ دِينِ اللَّهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي أ مُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٍ أَمْ تَهْجُرُ وَ اللَّهُ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاحِهَا
عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمَلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ

[246]

مَا فَعَلْتُهُ وَ إِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لِأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَفْضُمُهَا مَا لِعَلِيٍّ وَ لِنَعِيمٍ يَفْنَى وَ لُدَّةٍ لَا تَبْقَى نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ
الْعَقْلِ وَ قُبْحِ الزَّلْلِ وَ بِهِ نَسْتَعِينُ السَّعْدَانِ نَبْتِ ذُو شَوْكٍ يُقَالُ لَهُ حَسَكُ السَّعْدَانِ وَ حَسَكَةُ السَّعْدَانِ وَ تَشْبَهُ بِهِ حَلْمَةُ الثَّدْيِ
فَيُقَالُ سَعْدَانَةُ الثَّدْوَةِ وَ هَذَا النَّبْتُ مِنْ أَفْضَلِ مِرَاعِي الْإِبِلِ وَ فِي الْمَثَلِ مِرْعَى وَ لَا كَالسَّعْدَانِ وَ نُونُهُ زَائِدَةٌ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي
الْكَلَامِ فَعْلَالٌ غَيْرُ مَضَاعِفٍ إِلَّا خَزْعَالٌ وَ هُوَ ظَلْعٌ يَلْحَقُ النَّاقَةَ وَ قَهْقَارٌ وَ هُوَ الْحَجَرُ الصَّلْبُ وَ قَسْطَالٌ وَ هُوَ الْغَبَارُ . وَ
الْمَسْهَدُ الْمَمْنُوعُ النَّوْمِ وَ هُوَ السَّهَادُ . وَ الْأَغْلَالُ الْقِيُودُ وَ الْمَصْفَدُ الْمَقِيدُ وَ الْحَطَامُ عُرُوضُ الدُّنْيَا وَ مَتَاعُهَا شَبَهُ لِرِزْوَالِهِ وَ
سُرْعَةَ فَنَائِهِ بِمَا يَتَحَطَّمُ مِنَ الْعِيدَانِ وَ يَتَكَسَّرُ . ثُمَّ قَالَ كَيْفَ أَظْلَمُ النَّاسَ لِأَجْلِ نَفْسٍ تَمُوتُ سَرِيعًا يَعْنِي نَفْسَهُ ع . فَإِنْ قُلْتُ أ
لَيْسَ قَوْلُهُ عَنْ نَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قُفُولَهَا يَشْعُرُ بِمَذْهَبٍ مِنْ قَالَ بِقَدَمِ الْأَنْفُسِ لِأَنَّ الْقُفُولَ الرَّجُوعَ وَ لَا يُقَالُ فِي مَذْهَبِهِ
لِلْمَسَافِرَةِ قَافِلَةٌ إِلَّا إِذَا كَانَتْ رَاجِعَةً . قُلْتُ لَا حَاجَةَ إِلَى الْقَوْلِ بِقَدَمِ الْأَنْفُسِ مَحَافِظَةً عَلَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ وَ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا
كَانَتْ حَادِثَةً فَقَدْ كَانَ أَصْلُهَا الْعَدَمُ فَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ عَدَمَتْ نَفْسُهُ فَرَجَعَتْ إِلَى الْعَدَمِ الْأَصْلِيِّ وَ هُوَ الْمَعْبَرُ عَنْهُ بِالْبَلَى .

[247]

وَ أَمْلَقَ افْتَقَرَ قَالَ تَعَالَى وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ . وَ اسْتَمَاحَنِي طَلَبَ مَنِي أَنْ أُعْطِيَهُ صَاعًا مِنَ الْحَنْطَةِ وَ الصَّاعُ أَرْبَعَةٌ
أَمْدَادٌ وَ الْمَدُّ رَطْلٌ وَ ثَلْثٌ فَمَجْمُوعُ ذَلِكَ خَمْسَةُ أَرْطَالٍ وَ ثَلْثُ رَطْلٍ وَ جَمْعُ الصَّاعِ أَصُوعٌ وَ إِنْ شَتَّتْ هَمَزَتْ وَ الصَّوَاعُ لُغَةٌ فِي
الصَّاعِ وَ يُقَالُ هُوَ إِنْءَاءٌ يَشْرَبُ فِيهِ . وَ الْعَظْمُ بِالْكَسْرِ فِي الْحَرْفَيْنِ نَبْتٌ يَصْبَغُ بِهِ مَا يَرَادُ اسْوَدَادَهُ وَ يُقَالُ هُوَ الْمَوْسِمَةُ وَ
شُعَثَ الْأَلْوَانِ أَيِ غَبِرَ . وَ أَصْغَيْتُ إِلَيْهِ أَمَلْتُ سَمْعِي نَحْوَهُ . وَ اتَّبَعُ قِيَادَهُ أَطْبَعَهُ وَ انْقَادَ لَهُ . وَ أَحْمَيْتُ الْحَدِيدَةَ فِي النَّارِ فَهِيَ
مَحْمَاةٌ وَ لَا يُقَالُ حَمَيْتُ الْحَدِيدَةَ . وَ ذِي دَنْفٍ أَيِ ذِي سَقَمٍ مَوْلَمٍ . وَ مِنْ مِيسَمِهَا مِنْ أَثَرِهَا فِي يَدِهِ . وَ تَكَلَّتْكَ الثَّوَاكِلُ دَعَاءٌ
عَلَيْهِ وَ هُوَ جَمْعُ ثَاكِلَةٍ وَ فَوَاعِلٌ لَا يَجِيءُ إِلَّا جَمْعُ الْمَوْئِثِ إِلَّا فِيمَا شَذَّ نَحْوَ فَوَارِسٍ أَيِ تَكَلَّتْكَ نَسَاوِكُ . قَوْلُهُ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا
أَيِ صَاحِبِهَا وَ لَمْ يَقُلْ إِنْسَانٌ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُقَابِلَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ بِقَوْلِهِ جَبَارُهَا . وَ سَجَرُهَا بِالتَّخْفِيفِ أَوْ قَدَّهَا وَ أَحْمَاهَا وَ السَّجُورُ

ما يسجر به التنور . قوله بملفوفة في وعائها كان أهدى له الأشعث بن قيس نوعا من الحلواء تأتى فيه و كان ع يبغض الأشعث لأن الأشعث كان يبغضه و ظن الأشعث أنه يستميله بالمهاداة لغرض دنيوي كان في نفس الأشعث و كان أمير المؤمنين

[248]

ع يفطن لذلك و يعلمه و لذلك رد هدية الأشعث و لو لا ذلك لقبها لأن النبي ص قبل الهدية و قد قبل علي ع هدايا جماعة من أصحابه و دعاء بعض من كان يأتس إليه إلى حلواء عملها يوم نوروز فأكل و قال لم عملت هذا فقال لأنه يوم نوروز فضحك و قال نوروزا لنا في كل يوم إن استطعتم . و كان ع من لطافة الأخلاق و سجاحة الشيم على قاعدة عجيبة جميلة و لكنه كان ينفر عن قوم كان يعلم من حالهم الشنآن له و عن يحاول أن يصانعه بذلك عن مال المسلمين و هيهات حتى يلين لضرارس الماضغ الحجر . و قال بملفوفة في وعائها لأنه كان طبق مغطى . ثم قال و معجونة شنتها أي أبغضتها و نفرت عنها كأنها عجت بريق الحية أو بقينها و ذلك أعظم الأسباب للنفرة من المأكول . و قال الراوندي وصفها باللطافة فقال كأنها عجت بريق الحية و هذا تفسير أبعد من الصحيح . قوله أصلة أم زكاة أم صدقة فذلك محرم علينا أهل البيت الصلة العطية لا يراد بها الأجر بل يراد وصلة التقرب إلى الموصول و أكثر ما تفعل للذكر و الصيت و الزكاة هي ما تجب في النصاب من المال . و الصدقة هاهنا هي صدقة التطوع و قد تسمى الزكاة الواجبة صدقة إلا أنها هنا هي النافلة . فإن قلت كيف قال فذلك محرم علينا أهل البيت و إنما يحرم عليهم الزكاة الواجبة خاصة و لا يحرم عليهم صدقة التطوع و لا قبول الصلوات قلت أراد بقوله أهل البيت الأشخاص الخمسة محمدا و عليا و فاطمة و حسنا و حسين

[249]

ع فهولاء خاصة دون غيرهم من بني هاشم محرم عليهم الصلة و قبول الصدقة و أما غيرهم من بني هاشم فلا يحرم عليهم إلا الزكاة الواجبة خاصة . فإن قلت كيف قلت إن هولاء الخمسة يحرم عليهم قبول الصلوات و قد كان حسن و حسين ع يقبلان صلة معاوية . قلت كلا لم يقبل صلته و معاذ الله أن يقبلها و إنما قبلا منه ما كان يدفعه إليهما من جملة حقهما من بيت المال فإن سهم ذوي القربى منصوص عليه في الكتاب العزيز و لهما غير سهم ذوي القربى سهم آخر للإسلام من الغنم . قوله هبلتك الهبول أي ثكلتك أمك و الهبول التي لها عادة بثكل الولد . فإن قلت ما الفرق بين مختبط و ذي جنة و يهجر . قلت المختبط المصروع من غلبه الأخلاط السوداء أو غيرها عليه و ذو الجنة من به مس من الشيطان و الذي يهجر هو الذي يهذي في مرض ليس بصرع كالمحموم و المبرسم و نحوهما . و جلب الشعيرة بضم الجيم قشرها و الجلب و الجلبة أيضا جليلة تعلق الجرح عند البرء يقال منه جلب الجرح يجلب و يجلب و أجلب الجرح أيضا و يقال للجليدة التي تجعل على القتب جلبة أيضا . و تقضمها بفتح الضاد و الماضي قضم بالكسر

[250]

نبذ من أخبار عقيل بن أبي طالب

و عقيل هو عقيل بن أبي طالب ع بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أخو أمير المؤمنين ع لأمه و أبيه و كان بنو أبي طالب أربعة طالب و هو أسن من عقيل بعشر سنين و عقيل و هو أسن من جعفر بعشر سنين و جعفر و هو أسن من علي بعشر سنين و علي و هو أصغرهم سنا و أعظمهم قدرا بل و أعظم الناس بعد ابن عمه قدرا . و كان أبو طالب يحب عقيل أكثر من حبه سائر بنيهِ فلذلك قال للنبي ص و للعباس حين أتياه ليقترسما بنيهِ عام المحل فيخففا عنه ثقلهم دعوا لي عقيلاً و خذوا من شنتم فأخذ العباس جعفرا و أخذ محمد ص عليا ع . و كان عقيل يكنى أبا يزيد

قال له رسول الله ص يا أبا يزيد إني أحبك حبين حبا لقرابتك مني و حبا لما كنت أعلم من حب عمي إياك . أخرج عقيل إلى بدر مكرها كما أخرج العباس فأسر و فدي و عاد إلى مكة ثم أقبل مسلما مهاجرا قبل الحديبية و شهد غزوة مؤتة مع أخيه جعفر ع و توفي في خلافة معاوية في سنة خمسين و عمره ست و تسعون سنة . و له دار بالمدينة معروفة و خرج إلى العراق ثم إلى الشام ثم عاد إلى المدينة و لم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين ع شيئا من حروبه أيام خلافته و عرض نفسه و ولده عليه فأعفاه و لم يكلفه حضور الحرب . و كان أنسب قريش و أعلمهم بأيامها و كان مبغضا إليهم لأنه كان يعد مساوئهم

[251]

و كانت له طنفسة تطرح في مسجد رسول الله ص فيصلي عليها و يجتمع إليه الناس في علم النسب و أيام العرب و كان حينئذ قد ذهب بصره و كان أسرع الناس جوابا و أشدهم عارضة . كان يقال إن في قريش أربعة يتحاكم إليهم في علم النسب و أيام قريش و يرجع إلى قولهم عقيل بن أبي طالب و مخرمة بن نوفل الزهري و أبو الجهم بن حذيفة العدوي و حويط بن عبد العزى العامري . و اختلف الناس في عقيل هل التحق بمعاوية و أمير المؤمنين حي فقال قوم نعم و روى أن معاوية قال يوما و عقيل عنده هذا أبو زيد لو لا علمه أني خير له من أخيه لما أقام عندنا و تركه فقال عقيل أخي خير لي في ديني و أنت خير لي في دنياي و قد آثرت دنياي أسأل الله خاتمة خير . و قال قوم إنه لم يعد إلى معاوية إلا بعد وفاة أمير المؤمنين ع و استدلوا على ذلك بالكتاب الذي كتبه إليه في آخر خلافته و الجواب الذي أجابه ع و قد ذكرناه فيما تقدم و سيأتي ذكره أيضا في باب كتبه ع و هذا القول هو الأظهر عندي و روى المدائني قال قال معاوية يوما لعقيل بن أبي طالب هل من حاجة فأقضيها لك قال نعم جارية عرضت علي و أبي أصحابها أن يبيعوها إلا بأربعين ألفا فأحب معاوية أن يمازحه فقال و ما تصنع بجارية قيمتها أربعون ألفا و أنت أعمى تجتزئ بجارية قيمتها خمسون درهما قال أرجو أن أطأها فتلد لي غلاما إذا أغضبته يضرب عنقك بالسيف فضحك معاوية و قال مازحناك يا أبا يزيد و أمر فابتيعت له الجارية

[252]

التي أولد منها مسلما فلما أتت على مسلم ثماني عشرة سنة و قد مات عقيل أبوه قال لمعاوية يا أمير المؤمنين إن لي أرضا بمكان كذا من المدينة و إني أعطيت بها مائة ألف و قد أحببت أن أبيعك إياها فادفع إلي ثمنها فأمر معاوية بقبض الأرض و دفع الثمن إليه .

فبلغ ذلك الحسين ع فكتب إلى معاوية أما بعد فإنك غررت غلاما من بني هاشم فابتعت منه أرضا لا يملكها فاقبض من الغلام ما دفعته إليه و اردد إلينا أرضنا . فبعث معاوية إلى مسلم فأخبره ذلك و أقرأه كتاب الحسين ع و قال اردد علينا مالنا و خذ أرضك فإنك بعت ما لا تملك فقال مسلم أما دون أن أضرب رأسك بالسيف فلا فاستلقى معاوية ضاحكا يضرب برجله فقال يا بني هذا و الله كلام قاله لي أبوك حين ابتعت له أمك . ثم كتب إلى الحسين إنني قد رددت عليكم الأرض و سوغت مسلما ما أخذ فقال الحسين ع أبيتكم يا آل أبي سفيان إلا كرما . و قال معاوية لعقيل يا أبا يزيد أين يكون عمك أبو لهب اليوم قال إذا دخلت جهنم فاطلبه تجده مضاجعا لعمتك أم جميل بنت حرب بن أمية . و قالت له زوجته ابنة عتبة بن ربيعة يا بني هاشم لا يحبكم قلبي أبدا أين عمي أين أخي كان أعناقهم أباريق الفضة ترى أنافهم الماء قبل شفاههم قال إذا دخلت جهنم فخذني على شمالك .

[253]

سأل معاوية عقيلاً عن قصة الحديدية المحماة المذكورة فبكى و قال أنا أحدثك يا معاوية عنه ثم أحدثك عما سألت نزل بالحسين ابنه ضيف فاستسلف درهما اشترى به خبزا و احتاج إلى الإدام فطلب من قنبر خادمهم أن يفتح له زقا من زقاق عسل جاءتهم من اليمن فأخذ منه رطلا فلما طلبها ع ليقسمها قال يا قنبر أظن أنه حدث بهذا الزق حدث فأخبره فغضب ع و قال علي بحسين فرفع عليه الدرة فقال بحق عمي جعفر و كان إذا سنل بحق جعفر سكن فقال له ما حملك أن أخذت منه قبل القسمة قال إن لنا فيه حقا فإذا أعطينا رددناه قال فذاك أبوك و إن كان لك فيه حق فليس لك أن تنتفع بحقك قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم أما لو لا أني رأيت رسول الله ص يقبل ثنيتك لأوجعتك ضربا ثم دفع إلى قنبر درهما كان مصرورا في رदानه و قال اشتر به خير عسل تقدر عليه قال عقيل و الله لكائي أنظر إلى يدي علي و هي على فم الزق و قنبر يقلب العسل فيه ثم شده و جعل يبكي و يقول اللهم اغفر لحسين فإنه لم يعلم . فقال معاوية ذكرت من لا ينكر فضله رحم الله أبا حسن فلقد سبق من كان قبله و أعجز من يأتي بعده هلم حديث الحديدية .

قال نعم أقوى و أصابتني مخصصة شديدة فسألته فلم تند صفاته فجمعت صبياني و جنته بهم و البوس و الضر ظاهران عليهم فقال انتني عشية لأدفع إليك شيئا فجنته يقودني أحد ولدي فأمره بالتحتي ثم قال أ لا فدوتك فأهويت حريصا قد غلبني الجشع أظنها صرة فوضعت يدي على حديدة تلتهب نارا فلما قبضتها نبذتها و خرت كما يخور الثور تحت يد جازره فقال لي تكلتك أمك هذا من حديدة

[254]

أوقدت لها نار الدنيا فكيف بك و بي غدا إن سلطنا في سلاسل جهنم ثم قرأ **إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَ السَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ** . ثم قال ليس لك عندي فوق حقك الذي فرضه الله لك إلا ما ترى فانصرف إلى أهلك . فجعل معاوية يتعجب و يقول هيهات هيهات عقت النساء أن يلدن مثله

[255]

220 و من دعاء له ع

اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ وَلَا تَبْذُلْ جَاهِي بِالْإِقْتَارِ فَاسْتَرْزُقْ طَالِبِي رِزْقَكَ وَاسْتَعْطِفْ شِرَارَ خَلْقِكَ وَابْتَلِي بِحَمْدِ مَنْ
أَعْطَانِي وَأَفْتِنَنَّ بِذَمِّ مَنْ مَنَعَنِي وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلِيَّ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ صُنْ وَجْهِي بِالْيَسَارِ
أي استره بأن ترزقني يسارا و ثروة أستغني بهما عن مسألة الناس . و لا تبذل جاهي بالإقتار أي لا تسقط مروعتي و
حرمتي بين الناس بالفقر الذي أحتاج معه إلى تكفف الناس . و روي أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجواد رقت حاله
في آخر عمره لأن عبد الملك جفاه فراح يوما إلى الجمعة فدعا فقال اللهم إنك عودتني عادة جريت عليها فإن كان ذلك قد
انقضى فاقبضني إليك فلم يلحق الجمعة الأخرى . و

كان الحسن بن علي ع يدعو فيقول اللهم وسع علي فإنه لا يسعني إلا الكثير .

[256]

قوله فاسترزق منصوب لأنه جواب الدعاء كقولهم ارزقني بعيرا فأحج عليه بين ع كيفية تبذل جاهه بالإقتار و فسرته فقال
بأن أطلب الرزق ممن يطلب منك الرزق . و أستعطف الأشرار من الناس أي أطلب عاطفتهم و إفضالهم و يلزم من ذلك
أمران محذوران أحدهما أن أبتلى بحمد المعطي . و الآخر أن أفتتن بذم المانع . قوله ع و أنت من وراء ذلك كله مثل يقال
للمحيط بالأمر القاهر له القادر عليه كما نقول للملك العظيم هو من وراء وزرائه و كتابه أي مستعد متهيئ لتتبعهم و
تعقبهم و اعتبار حركاتهم لإحاطته بها و إشرافه عليها . و ولي مرفوع بأنه خبر المبتدأ و يكون خبرا بعد خبر و يجوز أن
يكون ولي هو الخبر و يكون من وراء ذلك جملة مركبة من جار و مجرور منصوبة الموضع لأنه حال

[257]

221 و من خطبة له ع

دَارَ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةً وَ بِالْعَدْرِ مَعْرُوفَةً لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا وَ لَا يَسْلُمُ نَزَالُهَا أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ وَ تَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ
وَ الْأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ وَ إِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَعْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا وَ تُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ وَ مَا
أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً وَ أَعْمَرَ دِيَاراً وَ أَبْعَدَ آثَاراً أَصْبَحَتْ
أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً وَ رِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً وَ أَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً وَ دِيَارُهُمْ خَالِيَةً وَ آثَارُهُمْ عَافِيَةً فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمَشِيدَةِ وَ النَّمَارِقِ
الْمُمَهَّدَةِ الصُّخُورَ وَ الْأَحْجَارَ الْمُسْنَدَةَ الْمُسْنَدَةَ وَ الْقُبُورَ اللَّاطِنَةَ الْمُلْحَدَةَ الَّتِي قَدْ بَنِيَ عَلَى الْخَرَابِ فِنَاوُهَا وَ شَيْدَ بِالْخَرَابِ
بِنَاوُهَا فَمَحَلَّهَا مُعْتَرِبٌ بَيْنَ أَهْلِ مَحَلَّةٍ مُوحِشِينَ وَ أَهْلِ فِرَاحٍ مُتَشَاعِلِينَ لَا يَسْتَأْسُونَ بِالأَوْطَانِ وَ لَا
يَتَوَاصِلُونَ تَوَاصِلَ الْأَجِيرَانِ عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ قُرْبِ الْأَجْوَارِ وَ دُنُوِّ الدَّارِ وَ كَيْفَ يَكُونُ بَيْنَهُمْ تَزَاوُرٌ وَ قَدْ طَحَنَهُمْ بِكَلْبِهِ الْبَلْبَى
وَ أَكَلَتْهُمْ الْأَجْنَادِلُ وَ النَّزْرَى وَ كَأَنَّ قَدْ صِرْتُمْ إِلَى مَا صَارُوا إِلَيْهِ وَ ارْتَهَنَكُمْ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ وَ ضَمَّكُمْ ذَلِكَ الْمُسْتَوْدَعُ فَكَيْفَ بِكُمْ لَوْ
تَنَاهَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ وَ بُعِثَتْ الْقُبُورُ هُنَالِكَ تَبْلُؤُوا كُلُّ

[258]

نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةً قَدْ أَحَاطَ بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . وَ
تَارَاتٍ جَمْعُ تَارَةٍ وَ هِيَ الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ وَ مُتَصَرِّفَةٌ مُنْتَقِلَةٌ مُتَحَوِّلَةٌ . وَ مُسْتَهْدَفَةٌ بِكَسْرِ الدَّالِ مُنْتَصِبَةٌ مَهْيَاةٌ لِلرَّمِي وَ رُوي
مُسْتَهْدَفَةٌ بِفَتْحِ الدَّالِ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ كَأَنَّهَا قَدْ اسْتَهْدَفَهَا غَيْرُهَا أَيْ جَعَلَهَا أَهْدَافاً . وَ رِيَاحُهُمْ رَاكِدَةٌ سَاكِنَةٌ وَ آثَارُهُمْ عَافِيَةٌ
مَنْدَرَسَةٌ . وَ الْقُصُورُ الْمَشِيدَةُ الْعَالِيَةُ وَ مِنْ رُويِ الْمَشِيدَةِ بِالتَّخْفِيفِ وَ كَسْرِ الشَّيْنِ فَمَعْنَاهُ الْمَعْمُولَةُ بِالشَّيْدِ وَ هُوَ الْجِصُّ . وَ
النَّمَارِقُ الْوَسَائِدُ . وَ الْقُبُورُ الْمُلْحَدَةُ نَوَاتِ اللَّحُودِ . وَ رُويِ وَ الْأَحْجَارُ الْمُسْنَدَةُ بِالتَّشْدِيدِ . قَوْلُهُ ع قَدْ بَنِيَ عَلَى الْخَرَابِ
فِنَاوُهَا أَيْ بَنِيَتْ لِأَنْتَسَكِنَ الْأَحْيَاءُ فِيهَا كَمَا تَبْنِي مَنَازِلَ أَهْلِ الدُّنْيَا . وَ الْكَلْبُ الْبَصِيرُ وَ هُوَ هَاهُنَا اسْتِعَارَةٌ . وَ الْجِنَادِلُ
الْحِجَارَةُ وَ بَعِثَتْ الْقُبُورَ أَثِيرَتْ . وَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ تَخْبِيرٌ وَ تَعْلَمُ جِزَاءَ أَعْمَالِهَا وَ فِيهِ حَذْفٌ مُضَافٌ وَ مِنْ

[259]

قَرَأَ تَتَلَوُ بِالْتَّاءِ بِنَقَطَتَيْنِ أَيْ تَقْرَأُ كُلُّ نَفْسٍ كِتَابَهَا وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ بَطَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَهِ وَ يَكْذِبُونَ فِيهِ مِنْ
الْقَوْلِ بِالشَّرْكَاءِ وَ أَنَّهُمْ شَفَاعَاءُ

ذكر بعض الآثار و الأشعار الواردة في ذم الدنيا

و من كلام بعض البلغاء في ذم الدنيا أما بعد فإن الدنيا قد عاتبت نفسها بما أبدت من تصرفها و إنبات عن مساوئها بما أظهرت عن مصارع أهلها و دلت على عوراتها بتغير حالاتها و نطقت ألسنة العبر فيها بزوالها و شهد اختلاف شئونها على فنائها و لم يبق لمرتاب فيها ريب و لا ناظر في عواقبها شك بل عرفها جل من عرفها معرفة يقين و كشفوها أوضح تكشيف ثم اختلجتهم الأهواء عن منافع العلم و دلتهم الآمال بغرور فلججت بهم في غمرات العجز فسبحوا في بحورها موقنين بالهلكة و رتعا في عراضها عارفين بالخدعة فكان يقينهم شكا و علمهم جهلا لا بالعلم انتفعوا و لا بما عينوا اعتبروا قلوبهم عالمة جاهلة و أبدانهم شاهدة غائبة حتى طرقتهم المنية فأعجلتهم عن الأمنية فبغتتهم القيامة و أورثتهم الندامة و كذلك الهوى حلت مذاقته و سمت عاقبته و الأمل ينسى طويلا و يأخذ وشيكا فانتفع امرؤ بعلمه و جاهد هواه أن يضلّه و جانب أملة أن يغره و قوي يقينه على العمل و نفى عنه الشك بقطع الأمل فإن الهوى و الأمل إذا استضعفا اليقين صرعا و إذا تعاونا على ذي غفلة خدعا فصريعهما لا ينهض سالما و خديعهما لا يزال نادما و القوي من قوي عليهما و الحازم من احترس منهما ألبسنا الله و إياكم جنة السلامة و وقانا و إياكم سوء العذاب .

[260]

كان عمر بن عبد العزيز إذا جلس للقضاء قرأ **أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ** . قال منصور بن عمار لأهل مجلسه ما أرى إساءة تكبر على عفو الله فلا تياس و ربما أخذ الله على الصغير فلا تأمن و قد علمت أنك بطول عفو الله عنك عمرت مجالس الاغترار به و رضيت لنفسك المقام على سخطه و لو كنت تعاقب نفسك بقدر تجاوزه عن سيئاتك ما استمر بك لجاج فيما نهيت عنه و لا قصرت دون المبالغة فيه و لكنك رهين غفلتك و أسير حيرتك . قال إسماعيل بن زياد أبو يعقوب قدم علينا بعبادان راهب من الشام و نزل دير ابن أبي كبشة فذكروا حكمة كلامه فحملني ذلك على لقائه فأتيته و هو يقول إن لله عبادا سميت بهم همهم فهووا عظيم الذخائر فالتمسوا من فضل سيدهم توفيقا يبلغهم سمو الهمم فإن استطعتم أيها المرتحلون عن قريب أن تأخذوا ببعض أمرهم فإنهم قوم قد ملكت الآخرة قلوبهم فلم تجد الدنيا فيها ملبسا فالحزن بثهم و الدمع راحتهم و الدعوب وسيلتهم و حسن الظن قربانهم يحزنون بطول المكث في الدنيا إذا فرح أهلها فهم فيها مسجونون و إلى الآخرة منطلقون . فما سمعت موعظة كانت أنفع لي منها . و من جيد شعر أبي نواس في الزهد

يا بني النقص و الغير

و بني الضعف و الخور

و بني البعد في الطباع

على القرب في الصور

[261]

و الشكول التي تباين
في الطول و القصر
أين من كان قبلكم
من ذوي البأس و الخطر
سائلوا عنهم المدائن
و استبحثوا الخبر
سبقونا إلى الرحيل
و إنا لبالأثر
من مضى عبرة لنا
و غدا نحن معتبر
أن للموت أخذة
تسبق الملح بالبصر
فكأني بكم غدا
في ثياب من المدر
قد نقلتم من القصور
إلى ظلمة الحفر
حيث لا تضرب القباب
عليكم و لا الحجر
حيث لا تطربون منه
للهو و لا سمر
رحم الله مسلما
ذكر الموت فازدجر
رحم الله مؤمنا
خاف فاستشعر الحذر

و من جيد شعر الرضي أبي الحسن رحمه الله في ذكر الدنيا و تقلبها بأهلها

و هل نحن إلا مرامي السهام
يحفزها نابل دانب
نسر إذا جازنا طانش
و نجرع إن مسنا صانب
ففي يومنا قدر لا بد
و عند غد قدر واثب

طراند تطردها النانبات
و لا بد أن يدرك الطالب
أرى المرء يفعل فعل الحديد
و هو غدا حمأ لأزب
عوارى من سلب الهالكين
يمد يدا نحوها السالب
لنا بالردى موعدا صادق
و نيل المنى موعدا كاذب
حبائل للدهر مبيثوئه
يرد إلى جذبها الهارب
و كيف تجاوز غاياتنا
و قد بلغ المورد القارب
نصبح بالكأس مجدحة
ذعافا و لا يعلم الشارب

و قال أيضا و هي من محاسن شعره

ما أقل اعتبارنا بالزمان
و أشد اغترارنا بالأمانى
وقفات على غرور و إقدام
على مزلق من الحدثنان
فى حروب مع الردى فكانا اليوم
فى هدنة مع الأزمان
و كفانا مذكرا بالمنايا
علمنا أننا من الحيوان
كل يوم رزية بفلان
و وقوع من الردى بفلان
كم ترانى أضل نفسا و ألهو
فكأنى وثقت بالوجدان
قل لهذى الهوامل استوقفى السير
أو استنشدى عن الأعطان

و استقيمي قد ضمك اللقم النهج
و غني وراعيك الحاديان

[263]

كم محيدا عن الطريق وقد ضرح
خلج البرى و جذب العران
ننتني جازعين من عدوة الدهر
و نرتاع للمنايا الرواني
جفلة السرب في الظلام و قد ذدع
روعا من عدوة الذؤبان
ثم ننسى جرح الحمام و إن كان
رغيبا يا قرب ذا النسيان
كل يوم تزايل من خليط
بالردى أو تباعد من دان
و سواء مضى بنا القدر الجد
عجولا أو ماظل العصران

و أيضا من هذه القصيدة

قد مررنا على الديار خشوعا
و رأينا البنا فأين الباني
و جهلنا الرسوم ثم علمنا
فذكرنا الأوطار بالأوطان
التفاتا إلى القرون الخوالي
هل ترى اليوم غير قرن فان
أين رب السدير فالحيرة البيضاء
أم أين صاحب الإيوان
و السيوف الحداد من آل بدر
و القنا الصم من بني الريان
طردتهم وقانع الدهر عن لعلع
طرد السفاف عن نجران
و المواضي من آل جفنة أرسى
طنبا ملكهم على الجولان

يكرعون العقار في فلق الإبريز
كرع الظماء في الغدران
من أباة اللعن الذين يحيون
بها في معاهد التيجان
تتراءهم الوفود بعيدا
ضاربين الصدور بالأذقان

[264]

في رياض من السماح حوال
و جبال من الحلوم رزان
و هم الماء لذ لناهل الظمان
بردا و النار للحيران
كل مستيقظ الجنان إذا أظلم
ليل النومة المبطن
يغتدي في السباب غير شجاع
و يرى في النزال غير جبان
ما تثنت عنهم المنون يدا شوكاء
أطرافها من المران
عطف الدهر فرعهم فرءاه
بعد بعد الذرى قريب المجاني
وتنتهم بعد الجماح المنايا
في عنان التسليم و الإذعان
عطلت منهم المقاري و باخت
في حماهم مواقد النيران
ليس يبقى على الزمان جريء
في إباء أو عاجز في هوان
لا شبوب من الصوار و لا أعنق
يرعى منابت العلجان
لا و لا خاضب من الربد يختال
بريط أحم غير يمان
يرتمي وجهة الرنال إذا أنس
لون الإظلام و الإدجان

و عقاب الملاع تلحم فرخيها
بإزليقة زلول القنان
نانلا في مطامح الجو هاتيك
و ذا في مهابط الغيطان

و هذا شعر فصيح نادر معرق في العربية .

[265]

و من شعره الجيد أيضا في ذكر الدنيا و مصائبها

أ و ما رأيت وقائع الدهر
أ فلا تسيء الظن بالعمر
بيننا الفتى كالطود تكنفه
هضباته و العضب ذي الأثر
يأبى الدنيا في عشيرته
و يجاذب الأيدي على الفخر
و إذا أشار إلى قبائله
حشدت عليه بأوجه غر
يترادفون على الرماح فهم
سيل يعب و عارض يسري
إن نهنوها زادوا مقاربة
فكأنما يدعون بالزجر
عدد النجوم إذا دعي بهم
يتزاحمون تزاحم الشعر
عقدوا على الجلى مآزرهم
سبطي الأنامل طيبي النشر
زل الزمان بوظء أخصمه
و مواطئ الأقدام للعثر
نزع الإباء و كان شملته
و أقر إقرارا على صغر
صدع الردى أعياء تلاحمه
من أحم الصدفين بالقطر
جر الجياد على الوجى و مضى

أما يدق السهل بالوعر
حتى التقى بالشمس مغمدة
في قعر منقطع من البحر
ثم انثنت كف المنون به
كالضغث بين الناب و الظفر
لم تشتجر عنه الرماح و لا
رد القضاء بماله الدثر
جمع الجنود وراءه فكأنما
لاقتة و هو مضيع الظهر
و بنى الحصون تمنعا فكأنما
أمسى بمضيعة و ما يدري
و بري المعابل للعدا فكأنما
لحمامه كان الذي يبيري

[266]

إن التوقي فرط معجزة
فدع القضاء يقدر أو يفري
و حمى المطاعم للبقا و ذي الأجال
ملء فروجها تجري
لو كان حفظ النفس ينفعا
كان الطبيب أحق بالعمر
الموت داء لا دواء له
سيان ما يوبي و ما يمري

و هذا من حر الكلام و فصيحته و نادره و لا عجب فهذه الورقة من تلك الشجرة و هذا القبس من تلك النار

[267]

222 و من دعاء له ع

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْسُ الْأَنْسِينَ لِأَوْلِيَانِكَ وَ أَحْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ تَشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ وَ تَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ وَ تَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ فَأَسْرَارَهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ وَ قُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ إِنْ أَوْحَشْتَهُمُ الْغُرْبَةَ أَنْسَهُمْ ذِكْرَكَ وَ إِنْ صَبَّتَ عَلَيْهِمُ الْمَصَانِبُ لَجَنُوا إِلَى الْأَسْتِجَارَةِ بِكَ عِلْمًا بِأَنَّ أَرْمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ وَ مَصَادِرُهَا عَنْ قَضَائِكَ اللَّهُمَّ إِنْ فَهَيْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي أَوْ عَمِيْتُ عَنْ طَلِبَتِي فَذَلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي وَ خَذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ وَ لَا يَبْدِعُ مِنْ كِفَايَاتِكَ اللَّهُمَّ اِحْمَلْنِي عَلَى عَفْوِكَ وَ لَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَذَابِكَ أَنْسَتْ ضِدَّ وَحْشَتِي وَ الْإِنْسَانَ ضِدَّ الْإِيحَاشِ وَ كَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يَقُولَ إِنَّكَ أَنْسُ الْمُؤَنَسِينَ لِأَنَّ الْمَاضِيَ أَفْعَلُ وَ إِنَّمَا الْآتِسُونَ جَمْعُ أَنْسٍ وَ هُوَ الْفَاعِلُ مِنْ أَنْسْتَ بِكَذَا لَا مِنْ أَنْسْتَ فَالرَّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ إِذَنْ بِأَوْلِيَانِكَ أَي أَنْتَ أَكْثَرُهُمْ أَنْسًا بِأَوْلِيَانِكَ وَ عَطْفًا وَ تَحَنُّنًا عَلَيْهِمْ . وَ أَحْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ أَي أَبْلَغُهُمْ إِحْضَارًا لِكِفَايَةِ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِمْ وَ أَقْوَمُهُمْ بِذَلِكَ

[268]

تشاهدهم في سرائرهم أي تطلع على غيبهم و البصائر العزائم نفذت بصيرته في كذا أي حق عزمه . و قلوبهم إليك ملهوفة أي صارخة مستغيثه . و فهيت عن مسألتني بالكسر عييت و الفهية و الفهاهة العي رجل أفه و رجل فه أيضا و امرأة فهية قال الشاعر

فلم تلفني فها و لم تلف حاجتي
ملجلة أبغي لها من يقيمها

و قد فهيت يا رجل فها أي عييت و يقال سفيه فهيه و فهيه الله و خرجت لحاجة فأفهنني عنها فلان أي أنسانيها . و يروى أو عمهت بالهاء و الميم المكسورة و العمه التحير و التردد عمه الرجل فهو عمه و عامه و الجمع عمه و أرض عمه لا أعلام بها . و النكر العجب و البدع المبتدع و منه قوله تعالى **قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاً مِنَ الرُّسُلِ** أي لم آت بما لم أسبق إليه . و مثل قوله ع اللهم احملني على عفوك و لا تحملني على عدلك قول المروانية للهاشمية لما قتل مروان في خبر قد اقتصناه قديما ليسعنا عدلكم قالت الهاشمية إذن لا نبقي منكم أحدا لأنكم حاربتم عليا ع و سمتمت الحسن ع و قتلتم الحسين و زيدا و ابنه و ضربتم علي بن عبد الله و خنقتم إبراهيم الإمام في جراب النورة . قالت قد يسعنا عفوكم قالت أما هذا فنعم

[269]

أدعية فصيحة من كلام أبي حيان التوحيدي

و من الدعوات الفصيحة المستحسنة فصول من كلام أبي حيان التوحيدي نقلتها . فمنها اللهم إني أبرأ من الثقة إلا بك و من الأمل إلا فيك و من التسليم إلا لك و من التفويض إلا إليك و من التوكل إلا عليك و من الطلب إلا منك و من الرضا إلا عنك و من الذل إلا في طاعتك و من الصبر إلا على بلائك و أسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتي و الشكر على نعمك شعاري و دثاري و النظر إلى ملكوتك دأبي و ديني و الانقياد لك شأني و شغلي و الخوف منك أمني و إيماني و اللياذ بذكرك بهجتي و سروري . اللهم تتابع برك و اتصل خيرك و عظم رفدك و تناهى إحسانك و صدق وعدك و بر قسمك و عمت فواضلك و تمت نوافلك و لم تبق حاجة إلا و قد قضيتها أو تكلفت بقضائها فاختم ذلك كله بالرضا و المغفرة إنك أهل ذلك و القادر عليه و الملي به . و منها اللهم إني أسألك خفايا لطفك و فواتح توفيقك و مألوف برك و عوائد إحسانك و جاه المقدسين من ملائكتك و منزلة المصطفين من رسلك و مكاترة الأولياء من خلقك و عاقبة المتقين من عبادك . و أسألك القناعة برزقك و الرضا بحكمك و النزاهة عن محظورك و الورع في شبهاتك و القيام بحجتك و الاعتبار بما أبديت و التسليم لما أخفيت و الإقبال على ما أمرت و الوقوف عما زجرت حتى أتخذ الحق حجة عند ما خف و ثقل و الصدق سنة فيما عسر و سهل و حتى أرى أن شعار الزهد أعز شعار و منظر الباطل أشوه منظر

[270]

فأتبخر في ملكوتك بفضفاض الرداء بالدعاء إليك و أبلغ الغاية القصوى بين خلقك بالثناء عليك . و منها اللهم إليك أرفع عجري و بجري و بك أستعين في عسري و يسري و إياك أدعو رغبا و رهبا فإنك العالم بتسويل النفس و فتنة الشيطان و زينة الهوى و صرف الدهر و تلون الصديق و بانقة الثقة و قنوط القلب و ضعف المنة و سوء الجزع . فقتني اللهم ذلك كله و اجمع من أمري شمله و انظم من شأني شتيته و احرسني عند الغنى من البطر و عند الفقر من الضجر و عند الكفاية من الغفلة و عند الحاجة من الحسرة و عند الراحة من الفسولة و عند الطلب من الخيبة و عند المنازلة من الطغيان و عند البحث من الاعتراض عليك و عند التسليم من التهمة لك . و أسألك أن تجعل صدري خزانة توحيدك و لساني مفتاح تمجيدك و جوارحي خدم طاعتك فإنه لا عز إلا في الذل لك و لا غنى إلا في الفقر إليك و لا أمن إلا في الخوف منك و لا قرار إلا في القلق نحوك و لا روح إلا في الكرب لوجهك و لا ثقة إلا في تهمة خلقك و لا راحة إلا في الرضا بقسمك و لا عيش إلا في جوار المقربين عندك . و منها اللهم ببرهانك الصادع و بنور وجهك الساطع صل على محمد نبيك نبي الرحمة و قائد الأمة و إمام الأنمة و احرس علي إيماني بك بالتسليم لك و خفف عني منونة الصبر على امتحانك و واصل لي أسباب المزيد عند الشكر على نعمتك و اجعل بقية عمري في غنى عن خلقك و رضا بالمقدم من رزقك .

[271]

اللهم إنك إن أخذتنا بذنوبنا خسفت الأرض بنا و إن جازيتنا على ظلمنا قطعت دوابرنا فإنك قلت **فَقَطِّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا و غل صدورنا و فتنة أنفسنا و طموح أبصارنا و رفث أسننتنا و سخف أحلامنا و سوء أعمالنا و فحش لجاجنا و قبح دعوانا و نتن أشرارنا و خبث أخيارنا و تلرزق ظاهرنا و تمزق باطننا . اللهم فارحمنا و ارفأ بنا و اعطف علينا و أحسن إلينا و تجاوز عنا و اقبل الميسور منا فإننا أهل عقوبة و

أنت أهل مغفرة و أنت بما وصفت به نفسك أحق منا بما وسمنا به أنفسنا فإن في ذلك ما اقترن بكرمك و أدى إلى عفوك و من قبل ذلك و بعده فألب عيشنا بنعمتك و أرح أرواحنا من كد الأمل في خلقك و خذ بأزمنا إلى بابك و أله قلوبنا عن هذه الدار الفانية و ازرع فيها محبة الدار الباقية و قلبنا على بساط لطفك و حثنا بالإحسان إلى كنفك و رفهنا عن التماس ما عند غيرك و اغضض عيوننا من ملاحظة ما حجب من غيرك و صل بيننا و بين الرضا عنك و ارفع عنا منونة العرض عليك و خفف علينا كل ما أوصلنا إليك و أدقنا حلوة قربك و اكشف عن سرائرنا سواتر حجبك و وكل بنا الحفظة و ارزقنا اليقظة حتى لا نفتقر سينة و لا نفارق حسنة إنك قائم على كل نفس بما كسبت و أنت بما نخفي و ما نعلن خبير بصير . و منها اللهم أنت الحي القيوم و الأول الدائم و الإله القديم و البارئ المصور و الخالق المقدس و الجبار الرفيع و القهار المنيع و الملك الصفوح و الوهاب المنوح

[272]

و الرحمن الرؤوف و الحنان العطوف و المنان اللطيف مالك الذنوب و النواصي و حافظ الأداني و الأقصي و مصرف المطيع و العاصي . اللهم أنت الظاهر الذي لا يحدك جاحد إلا زليلته الطمأنينة و أسلمه اليأس و أوحشه القنوط و رحلت عنه العصمة و تردد بين رجاء قد نأى عنه التوفيق و أمل قد حفت به الخيبة و طمع يحوم على أرجاء التكذيب و سر قد أطاف به الشقاء و علانية قد أناف عليها البلاء موهون المنة منسوخ العقدة مسلوب العدة تشنوه العين و تقلبه النفس عقله عقل طائر و لبه لب حائر و حكمه حكم جانر لا يروم قرارا إلا أزعج عنه و لا يستفتح بابا إلا أرتج دونه و لا يقتبس ضرما إلا أجم عليه عثرته موصولة بالعثرة و حسرته مقرونة إلى حسرة إن سمع زيف و إن قال حرف و إن قضى خرف و إن احتج زخرف و لو فاء إلى الحق لوجد ظله ظليلا و أصاب تحته مثنوى و مقيلا و أنت الباطن الذي لا يرومك رانم و لا يحوم على حقيقتك حانم إلا غشيه من نور إلهيتك و عز سلطانتك و عجب قدرتك و باهر برهاتك و غرائب غيوبك و خفي شأنك و مخوف سطوتك و مرجو إحسانك ما يرده خاسنا من مزحزحه عن الغاية خجلا مبهورا و يرده إلى عجزه ملتحفا بالندم مرتديا بالاستكانة راجعا إلى الصغار موقوفا مع الذلة فظاهرك يدعو إليك بلسان الاضطراب و باطنك يحير فيك لسعة قضاء الاعتبار و فعلك يدل عليك الأسماع و الأبصار و حكمتك تعجب منك الألباب و الأسرار لك السلطان و الملكة و بيدك النجاة و الهلكة فإليك المفر و معك المقر و منك صنوف الإحسان و البر أسألك بأصح سر و أكرم لفظ و أفصح لغة و أتم إخلاص و أشرف همة و أفضل نية و أظهر عقيدة و أثبت يقين أن تصد عني

[273]

كل ما يصد عنك و تصلني بكل ما يصل بك و تحبب إلي كل ما يحبب إليك فإنك الأول و الثاني و المشار إليه في جميع المعاني لا إله إلا أنت . و منها اللهم إني أسألك جدا مقرونا بالتوفيق و علما برينا من الجهل و عملا عريا من الرياء قولاً موشحاً بالصواب و حالا دائرة مع الحق و فطنة عقل مضروبة في سلامة صدور و راحة جسم راجعة إلى روح بال و سكون نفس موصولا بثبات يقين و صحة حجة بعيدة من مرض شبهة حتى تكون غاييتي في هذه الدنيا موصولة بالأمثل فالأمثل و عاقبتني عندك محمودة بالأفضل فالأفضل من حياة طيبة أنت الواعد بها و نعيم دائم أنت المبلغ إليه . اللهم لا تخيب رجاء هو منوط بك و لا تصفر كفا هي ممدودة إليك و لا تعذب عينا فتحتها بنعمتك و لا تذلل نفسا هي عزيزه بمعرفتك و لا تسلب عقلا هو مستضيء بنور هدايتك و لا تخرس لسانا عودته الشاء عليك فكما كنت أولا بالتفضل فكن

آخرًا بالإحسان . الناصية بيدك و الوجه عان لك و الخير متوقع منك و المصير على كل حال إليك . ألبسني في هذه الحياة الباندة ثوب العصمة و حلني في تلك الدار الباقية بزينة الأمن و أطم نفسي عن طلب العاجلة الزائدة و أجرني على العادة الفاضلة و لا تجعلني ممن سها عن باطن ما لك عليه بظاهر ما لك عنده فإلشقي من لم تأخذ بيده و لم تؤمنه من غده و السعيد من آويته إلى كنف نعمتك و نقلته حميدا إلى منازل رحمتك غير مناقش في الحساب و لا سائق له إلى العذاب فإنك على ذلك قدير . و منها اللهم اجعل غدونا إليك مقرونا بالتوكل عليك و رواحنا عنك موصولا

[274]

بالنجاح منك و إجابتنا لك راجعة إلى التهالك فيك و ذكرنا إياك منوطا بالسكون معك و ثقتنا بك هادنة إلى التفويض إليك و لا تخلنا من يد تستوعب الشكر و من شكر يمتري خلف المزيد و من مزيد يسبق اقتراح المقترحين و صنع يفوق ذرع الطالبين حتى نلقاك مبشرين بالرضا محكمين في المنى غير مناقشين و لا مطرودين . اللهم أعزنا من جشع الفقير و ريبة المنافق و تجليح المعاند و طيشة العجول و فترة الكسلان و حيلة المستبد و فتور العقل و حيرة المخرج و حسرة المحوج و فلتة الذهول و حرقة النكول و رقة الخائف و طمأنينة المغرور و غفلة الغرور . و اكفنا منونة أخ يرصد مسكونا إليه و يمكر موثوقا به و يخيس معتمدا عليه . و صل الكفاية بالسلوة عن هذه الدنيا و اجعل التهافتا عليها حنينا إلى دار السلام و محل القرار و غلب إيماننا بالغيب على يقيننا بالعيان و احرسنا من أنفسنا فإنها ينابير الشهوة و مفاتيح البلوى . و أرنا من قدرتك ما يحفظ علينا هيبتك و أوضح لنا من حكمتك ما يقلبنا في ملكوتك و أسبغ علينا من نعمتك ما يكون لنا عوناً على طاعتك و أشع في صدورنا من نورك ما تتجلى به حقائق توحيدك و اجعل ديدننا ذكرك و عادتنا الشوق إليك و علمنا النصح لخلقك و اجعل غايتنا الاتصال بك و احجبنا عن قول بئري من رضاك و عمل يعمي صاحبه عن هداك و ألف بيننا و بين الحق و قربنا من معادن الصدق و اعصمنا من بوانق الخلق و انقلنا من مضايق الرق و اهدنا إلى فوائد العتق . اللهم إنك بدأت بالصنع و أنت أهله فعد بالتوفيق فإنك أهله .

[275]

اللهم إنا نتضاءل لك عند مشاهدة عظمتك و ندل عليك عند تواتر برك و نذل لك عند ظهور آياتك و نلح عليك عند علمنا بجودك . و نسألك من فضلك ما لا يرزوك و لا ينكوك و نتوسل إليك بتوحيد لا ينتمي إليه خلق و لا يفارقه حق . و منها اللهم عليك أتوكل و بك أستعين و فيك أوالي و بك أنتسب و منك أفرق و معك أستأنس و لك أمجد و إياك أسأل لسانا سمحا بالصدق و صدرا قد ملئ من الحق و أملا منقطعاً عن الخلق و حالا مكنونها بيوى الجنة و ظاهرها يحقق المنة و عاقبة تنسي ما سلف و تتصل بما يتمنى و يتوكف . و أسألك اللهم كبدا رجوا خنوقا و دمعا نطوقا شوقا إليك و نفسا عزوقا إذعانا لك و سرا ناقعا ببرد الإيمان بك و نهارا مشتملا على ما كسب من مرضاتك و ليلا مالنا بما أزلف لديك . أشكو إليك اللهم تلهفي على ما يفوتني من الدنيا و إنني في طاعة الهوى جاهلا بحقك ساهيا عن واجبك ناسيا ما تكرر من وعظك و إرشادك و بيانك و تنبيهك حتى كان حلاوة وعدك لم تلج أذني و لم تباشر فؤادي و حتى كأني مرارة عتابك و لانمتك لم تهتك حجابي و لم تعرض علي أوصابي . اللهم إليك المفر من دار منهومها لا يشبع و حانمها لا ينقع و طالبها لا يربح و واجدها لا يقنع و العيش عنك رقيق و للأمل فيك تحقيق . اللهم كما ابتليت بحكمتك الخفية التي أشكلت على العقول و

حارت معها البصائر فعاف برحمتك اللطيفة التي تطاولت إليها الأعناق و تشوفت نحوها السرائر و خذ معنا بالفضل الذي
إليك هو منسوب و عنك هو مطلوب و أطمئ نفوسنا من رضاع الدنيا

[276]

و الطف بما أنت له أهل إنك على كل شيء قدير . اللهم قدنا بأزمة التوحيد إلى محاضر طاعتك و اخلطنا في زمرة
المخلصين لذكرك و اجعل إجابتك من قبيل ما يتصل بكرم عفوك و لا تجعل خيبتنا من قبل جهلنا بقدرك و إضرابنا عن
أمرك فلا سائل أحوج منا و لا مسئول أجود منك . اللهم احجر بيننا و بين كل ما دل على غيرك ببيانك و دعا إلى سواك
ببرهاتك و انقلنا عن مواطن العجز مرتقيا بنا إلى شرفات العز فقد استحوذ الشيطان و خبثت النفس و ساءت العادة و كثر
الصادون عنك و قل الداعون إليك و ذهب المراعون لأمرك و فقد الواقفون عند حدودك و خلت ديار الحق من سكانها و
بيع دينك بيع الخلق و استهزئ بناشر مجدك و أقصى المتوسل بك . اللهم فأعد نضارة دينك و أفض بين خلقك بركات
إحسانك و امدد عليهم ظل توفيقك و اقمع ذوي الاعتراض عليك و اخسف بالمقترحين في دقائق غيبك و اهتك أستار
الهاتكين لستر دينك و القارعين أبواب سر ك القانسين بينك و بين خلقك اللهم إني أسألك أن تخصني بالهام اقتبس الحق
منه و توفيق يصحبني و أصحابه و لطف لا يغيب عني و لا أغيب عنه حتى أقول إذا قلت لوجهك و أسكت إذا سكت بإذنك و
أسأل إذا سألت بأمرك و أبين إذا أبنت بحجتك و أبعده إذا بعدت بإجلالك و أقرب إذا قربت برحمتك و أعبد إذا عبدت مخلصا
لك و أموت إذا مت منتقلا إليك اللهم فلا تكلني إلى غيرك و لا تؤيسني من خيرك . و منها اللهم إنا بك نعز كما إنا بغيرك
نذل و إياك نرجو كما إنا من غيرك نياس و إليك نفوض كما إنا من غيرك نعرض أذنت لنا في دعائك و أدنيتنا إلى فنانك و
هياتنا لعطائك و خصصتنا بحبانك و وسمتنا بولانك و عممتنا بالآنك و غمستنا في نعمائك و ناغيتنا بالسن ملكوتك عن
دنان ما في عالمك و لاطفتنا بظاهر قولك

[277]

و توليتنا بباطن فعلك فسمت نحوك أبصارنا و شامت بروق جودك بصائرنا فلما استقر ما بيننا و بينك أرسلت علينا سماء
فضلك مدرارا و فتحت لنا منا أسماعا و أبصارا فرأينا ما طاح معه تحصيلنا و سمعنا ما فارقتنا عنده تفضيلنا فلما سرنا إلى
خلقك من ذلك نروا اتخذونا من أجله لعبا و هزوا فبقدرتك على بلوانا بهم أرنا بك الغنى عنهم اللهم قيض لنا فرجا من
عندك و أنح لنا مخلصا إليك فإننا قد تعبنا بخلقك و عجزنا عن تقويمهم لك و نحن إلى مقاربتهم في مخالفتك أقرب منا إلى
منابتهم في موافقتك لأنه لا طاقة لنا بدهمانهم و لا صبر لنا على بلوانهم و لا حيلة لنا في شفانهم ففسألك بالضراعة
التامة و بالإخلاص المرفود إلا أخذت بأيدينا و أرسلت رحمتك علينا فما أقدرك على الإجابة و ما أجودك بكل مصون يا ذا
الجلال و الإكرام . و منها اللهم إنا قربنا بك فلا تنننا عنك و ظهرنا لك فلا تبطننا دونك و وجدناك بما ألقيت إلينا من غيب
ملكوتك و عزفنا عن كل ما لوانا عن بابك و وثقتنا بكل ما وعدتنا في كتابك و توكلنا بالسر و العلن على لطيف صنعك .
اللهم إليك نظرت العيون فعادت خاسنة عبرى و فيك تقسمت الظنون فانقلبت يانسة حسرى و في قدرتك حارت الأبصار و
في حكمتك طاحت البصائر و في آلائك غرقت الأرواح و على ما كان منك تقطعت الأنفاس و من أجل إعراضك التهب
الصدور و لذكر ما مضى منك هملت الدموع اللهم تولنا فيما وليتنا حتى لا ننولى عنك و أمنا مما خوفنا حتى نقر معك و
أوسعنا رحمتك حتى نطمئن إلى ما وعدتنا في كتابك و فرق بيننا و بين الغل حتى لا نعامل به خلقك و أغننا بك حتى لا

نفتقر إلى عبادك فإنك إذا يسرت أمرا تيسر و مهما بلوتنا فلا تبلنا بهجرك و لا تجرنا مرارة سخطك لا قد اعترفنا
بربوبيتك

[278]

عبودية لك فعرفنا حقيقتها بالعفو عنا و الإقبال علينا و الرفق بنا يا رحيم . و منها اللهم إن الرغبات بك منوطة و الوسائل
إليك متداركة و الحاجات ببابك مرفوعة و الثقة بك مستحصفة أي مستحكمة و الأخبار بجودك شائعة و الآمال نحوك
نازعة و الأمانى وراءك منقطعة و الثناء عليك متصل و وصفك بالكرم معروف و الخلاق إلى لطفك محتاجة و الرجاء فيك
قوي و الظنون بك جميلة و الأعناق لعزك خاضعة و النفوس إلى مواصلتك مشتاقة و الأرواح لعظمتك مبهوته لأتلك لإله
العظيم و الرب الرحيم و الجواد الكريم و السميع العليم تملك العالم كله و ما بعده و ما قبله و لك فيه تصاريف القدرة و
خفيات الحكمة و نوافذ الإرادة و لك فيه ما لا ندرية مما تخفيه و لا تبديه جللت عن الإجلال و عظمت عن التعظيم و قد
أزف و رودنا عليك و وقفنا بين يديك و ظننا ما قد علمت و رجاؤنا ما قد عرفت فكن عند ظننا بك و حقق رجاءنا فيك فما
خالفناك جرأة عليك و لا عصيانك تقمنا في سخطك و لا اتبعنا هوانا استهزاء بأمرك و نهيك و لكن غلبت علينا جوازب
الطينة التي عجننا بها و بذور الفطرة التي أنبتنا منها فاسترخت قيودنا عن ضبط أنفسنا و عزبت ألبابنا عن تحصيل
حظوظنا و لسنا ندعي حجة و لكن نسألك رافة فبسترك السابغ الذيال و فضلك الذي يستوعب كل مقال إلا تمت ما سلف
منك إلينا و عطفت بجودك الفياض علينا و جذبت بأضباعنا و أقررت عيوننا و حققت آمالنا إنك أهل ذلك و أنت على كل
شيء قدير